ابراهيم الكوني

المجوس

رواية

الجزء الثاني



(١)

من فم الجدّة تزوّد بالأساطير عن «واو»:

في تلك السنوات تنقلوا مع القبيلة في الصحراء. عانوا الجوع وقساوة الجدب ولكنهم لم يتوقفوا عن التنقل والعبور والبحث عن الكلأ. وكلما تذكّر تلك الطفولة الشقية ابتسم آدّه بمرارة وقارن في نفسه طلب القبيلة العنيد للربيع المستحيل بتقليد الصحراويين القديم في بحثهم المستمر، المكابر، الوحشي، عن الوطن الضائع. وكلما عاد إلى الماضي وحاول أن يسترجع ذكرى الهجرة استولى عليه انطباع البهجة والفرح. انطباع مستمد من يقين غامض ومدهش يقول له الآن، بلغة العقل والنضج، إن «واو»، التي يفني الصحراوي عمره بحثاً عنها، هي بين يديه، هي هذه الدنيا الصحراوية التي لا يذكر لها، في طفولته، أول من آخر. بل ولا يذكر أنه وقف على بدايتها أو نهايتها حتى الآن بعد ما قضى عشرات السنين من الطواف. رافق القوافل التجارية وزاول الرعي واشترك في الغزوات وعبر إلى غدامس وآهجار وآير وأطراف الأدغال، ولكن العراء استمرّ يمتد ويبتعد، ليشتبك في قوس الأفق. في الأفق يلعب سراب يذكّر أعْتَد المهاجرين بالهزيمة والعجز.

يتوقفون في العراء القاسي، العاري، الملتهب، في أُمسيات الصيف. تحرق الحجارة قدميه الحافيتين فيزحف على ركبتيه ومرفقيه، أو يحتضن

قدميه بيديه. وفي إحدى المرات اشتكى من الحريق وبكى بصوت عالٍ ولكن لم يلتفت إليه أحد. انشغلت أمّه بقطيع الماعز وأبوه انهمك في نزع الأحمال عن الجمال، والجدة صارعت الركائز وتولّت نصب الخباء بمساعدة امرأة أحد الأقرباء. آلمه الإهمال. أغاظه أن يواجه الناس نداءه بالقسوة واللامبالاة فمزَّق ثوبه الفضفاض بأسنانه ولفّه حول قدميه الحافيتين ومشى بين المضارب عارياً.

في الليل عاقبته الأم بالفلفل. وضعت رأسه بين ركبتيها وصبَّت السائل الناري في فتحة أنفه

هرب إلى خباء الجدة. يهرب إلى الجدّة كلما نشب مع الأم عراك، فتستقبله العجوز في مدخل الخباء وتقوده إلى موقد النار. تعطيه الحليب أو بضع حبات من التمر لتسترضيه وتواصل عملها في مخض الحليب، ولكن كسب رضائه ليس السبب الوحيد لسعادة الجدّة. كانت العجوز البائسة تخاف الجن وتعاني من مطاردة الأشباح. تروي قصصاً شيقة عن العمالقة الذين يطلعون لها كلما اختلت إلى نفسها واعتزلت الناس. وكثيراً ما تأتي إلى خبائهم في قلب الليل وتوقظ أمه طالبة منها أن تسمح لها بـ «استعارة» الحفيد، لأن الجن منعوا عنها النوم، وكانت تظن أن الولد سيؤنس وحدتها ويفزع الأشباح. في بعض الأحيان توقظه أمّه وتقوده لتسلمه في يد العجوز التي تقف في خارج الخباء ترطن بالتعاويذ بلغة مجهولة عرف فيما بعد أنها لغة «الهوسا»، لأن أهل الصحراء على يقين أن الهوسا هي اللغة الخفية التي يفهمها الجن، وهي اللغة الرسمية الشائعة بين السَحَرَة والعرّافين في كانو وآير. وإذا احتجّ على الإزعاج وبكى أو عارك، تأخذه أمه بين يديها وتسلّمه إلى الجدّة وتعود هي لتواصل النوم. في هذه الحالات كانت الجدة ترشوه بقطعة سكر أو حبة تمر، أو. . أو أسطورة جديدة عن «واو». وكثيراً ما سهرا معاً في العراء، خارج الخباء، تحت ضوء القمر، حتى يطلع الصباح. يستلقي على ظهره، يحدِّق في القمر. يتمتع بالسكر، ويستمع إلى القصص الشيِّقة عن الوطن المجهول. وهي تسرد الأساطير، تقصِّر من

عمر الليل، تقرّب الصباح، لتبعد شبح الجن. يسرح معها في الصحراء، يغيب في الواحة الخفية التي تفتح أبوابها لتستقبل الأبطال الأشقياء، يدخلون ليبقوا هناك إلى الأبد. لاحظ أن هؤلاء المحظوظين ينسون أنفسهم ويؤثرون البقاء هناك، عكس ما سمعه عن الأبطال الآخرين في قصص أولاد الجيران، فسأل العجوز مرة: «لماذا لا يعود المسافر إلى الصحراء ويفضل أن يبقى في واو»؟. تبتسم بحزن وتقول: «وما حاجتهم إلى العودة؟ المهاجر إذا دخل «واو» نسي الصحراء». يحتجُّ ويعترض: «الأولاد يحكون قصصاً أخرى تؤكد أن المسافر يمكن أن يعود من الرحلة. سمعت أمس أن شيخاً وقوراً يعيش في النجع سبق له أن زار «واو». إذا لم تقنعيني فسوف أذهب وأسأله عن السلطان وعن البستان ولقمة الحرام». تبتسم وترفع رأسها إلى الأفق البعيد دون أن تتوقف عن مخض الحليب. تجد المخرج بسرعة: «شهود العيان في النجع لم يدخلوا «واو». الشيخ الوقور زار مدينة الجن وظن أنها الواحة الموعودة، فلا تصدّق أولاد الجيران». يفكر قليلاً. يهرش شعره الذي يشطر رأسه إلى نصفين مثل عرف الديك قبل أن يتوسّل: «حدثيني عن مدن الجن. دخلنا «واو» مرات كثيرة ولكنّا لم ندخل مدن الجن مرة واحدة». تختفي الابتسامة ويحلّ في عيْنَيْ العجوز الفزع. تبدأ في قراءة تعاويذ الهوسا في حين يضحك بشقاوة. يضحك في النهار ولكنه يختلس البكاء في الليل شفقة عليها. يخفي وجهه تحت الغطاء ويستعيد تعبير الفزع على وجهها فيُكَفِّر عن إساءته وشقاوته بالحزن والبكاء. هي تخشى سيرة الجنّ وهو يعرف ذلك فيبتزُّها ويستبدل قطعة سكر مقابل أن يتنازل ويضحي بأساطير الظلمات والفزع وقصص الجنّ.

طاردهم الجدب وتسقطوا أخبار المطر وتنقّلوا في الصحراء الأبدية دون توقف. ينزلون الوديان الشاحبة، يزيحون الأثقال عن الجمال ويطلقون سراح الأنعام في الأشجار الميتة. في الليل تزورهم الذئاب. تحوم حول النجع بأصوات فاجعة فيتبادل رجال القبيلة حراسة قطعان الماشية، وينتهز العرّافون والحكماء الفرصة فيقرأون في النداء أخبار الجدب وأنباء المجاعة. في الصباح تقرع الطبول وتبدأ رحلة البحث من جديد.

الجدّة أسعد الناس بالتنقل. وتقول إن الترحال يرهق الجن فيتخلّف ويعسكر في رماد النجع المهاجر. وحذّرته كثيراً من رماد النجوع المهاجرة وقالت إنها الوطن المفضّل لقبائل الجن. ولكن أهل الخفاء لم يتعبوا في الرحلات الأخيرة واستماتوا في المطاردة على غير عادتهم. فأصبحت لغة الهوسا، لغة السحر والجن والتمائم، لغة يومية لا تفارق شفتي العجوز. ترطن بها في الفجر قبل الصلاة، وترطن بها بجوار النار وخلال النهار وطوال الليل بعد أنْ كانت تتمتم بها مرة واحدة في الماضي، قبل أن تأوي إلى فراشها. زارت الفقيه في خيمته وعادت منه بحجاب قرآني جديد أضافته إلى القلادة الكثيفة من التعاويذ المدسوسة في الجلد، ثم ذهبت إلى العرّافة الزنجية وجاءت منها بثلاث حبات من النوى. أخفتها في حفرة تحت الركيزة. أهدت لها جارتها العجوز حفنة من الشيح وقالت لها إن لكل داء دواء والجن والشيح لا يمكن أن يجتمعوا في نجع واحد. عادت إلى البيت بقامتها الفرعاء التي حطّم الزمان كبرياءها وأجبرها على الانحناء، تستعين بعكازها الأملس المصقول بيد، وتمسك اللحاف الأسود الكئيب حول وجهها الحزين الغائر ذي الوجنتين العظميتين البارزتين. من صدغها تدلّت خصلة جليلة من الشعر الذي توجّه الزمان أيضاً وكلّله بالبياض.

أوقدت نار المساء وانتظرت حتى هدأ اللهب وتوهّج الجمر. ألقت بنثر العشبة السحرية في الأتون وانحنت برأسها فوق الموقد وكتمت بخار الشيح بأن غطت الموقد بلحافها. أخذته أيضاً ودسّت رأسه داخل اللحاف. كتم بخار الشيح أنفاسه فاختنق وسعل طويلاً. تناولت نثراً من العشبة وأخفتها في خرقة سوداء وصنعت له حجاباً من الشيح. ثبتته في معصمه بخيط من الجلد وقالت إنه سيقيه من الجن. ولا يعرف لماذا وجدت في نفسها الشجاعة في تلك الليلة لتحدثه عن قوم حرّمت على نفسها أن تأتي حتى على ذكرهم، بل وحرّمت على أفراد القبيلة أن يأتوا على ذكرهم في حضورها. ربما استنصرت بالشيح. السرّ في العشبة السحرية.

أطعمته فطيرة على العشاء وأودعته فراشه. توضأت وصلّت وتمتمت

بتعاويذ الهوسا. أنهت طقوس الليل وتكوّمت بجواره تعبث بحباب المسبحة وتغمغم بتسابيح آخر الليل. أنهت الأوراد وكوّرت المسبحة في كفها. فركتها بين يديها وسألت:

ـ هل غلبك النوم؟

أجاب ببرود وهو يزيح الغطاء ويضع رجله على ركبته الأخرى متابعاً النجوم:

ـ لن يغلبني قبل أن أسمع القصة التالية.

ـ إذن اسمع ما يحدث للمعاندين الذين يخالفون نصائح الأمهات والجدات. لو لم أخالف ما نهتني عنه العجائز لما عشت اليوم مطاردة من العمالقة وأهل الخفاء. خالفت فتسكّعت في الرماد القديم المهجور الذي تركته النجوع المهاجرة. هناك وجدت حلقة معدنية ظننتها من النحاس. غفلت عن تحذير الحكيمات مرة أخرى وأخذت الحلقة. كانت واسعة الدائرة، في حجم القرط، تلمع تحت شمس الغروب. عقدتها في طرف اللحاف ونسيتها أياماً. لفتت نظر راعي الإبل فطلبها كي يستخدمها لسنام الجدع الذي روّضه ولجمه منذ أيام. سافر الراعي إلى المراعي الشمالية البعيدة حيث بشّر رجال الاستطلاع باكتشاف وديان خضراء خلّفتها سحب عابرة في فصل الشتاء. بعدها لم أرَ الراعي، كما لم أرَ جدعه أيضاً. ضاع الراعي ومات بالظمأ قبل أن يصل إلى أرض البشارة. والجدع تاه وهام في الصحاري الغربية. ويُقال إن قطّاع الطرق اختلوا به ونحروه جنوب غدامس. قبل وصول خبر الراعي زارتني الحسناء بذيل الثعبان. نعم. لا تقاطعني. حسناء فرعاء لم أرَ لها نظيرة في الصحراء ولكنها تجرُّ ذيلاً بشعاً أثار اشمئزازي. ولو رأيته منذ البداية لعرفت طينة الزائرة ولأجرت نفسي من ورطة التحدث معها. ولكني لم أشهد الذيل إلاّ عندما انصرفت. وقالت لي العرّافة فيما بعد، وهي تحدثني عن سلوك الجن، أن هذه عادة شائعة بين أهل الخفاء. يروق لفريق آخر أن يمشي بحوافر حمار، وفريق ثالث يتعمّد أن يخفي وجهه ويطلع للناس بلا رأس. وجماعة رابعة تخرق الفضاء

وتغيب بقاماتها في السماوات. وسوف أحدِّثك عن الفريق الأخير بعد قليل. حدثتني العرّافة طويلاً عن غرام الجن بالتنكر ووضع الأقنعة، وقالت إنه لا أحد يستطيع أن يعرف لماذا لم يتنكروا على طريقة أهل الصحراء، وهي تظن، وأنا أوافقها في هذ الظن، أن أهل الصحراء تفوَّقوا حتى على الجن، بعد أن تفوقوا على الإنس، بهذا الاختراع التنكري الأصيل المسمّى: اللثام.

وتساءلت العرّافة: مَنْ مِنّا لا يريد أن يخفي وجهه؟ مَنْ مِنَ النّاس لا يتمنى أن يستر فمه الذي كان سبباً في طرده من «واو» بعد أن أكل لقمة الحرام؟ مَنْ مِنّا لا يريد أن يمنع عاره عن عيون الفضوليين؟ مَنْ مِنَ المخلوقات لا يسعى لأن يحجب أفكاره؟ حتى الجن، كما رأينا، يحاولون أن يفعلوا ذلك، ولكن على الصحراوي أن يفخر بأنه سبق بقية المخلوقات في جعل القناع لباسه اليومي، التقليدي، الأبدي. والكبرياء وحدها هي التي تمنع الجن من المجاراة والتشبه بنا، بعد أن سبقناهم، خاصة وأنهم يتباهون دائماً بقوتهم وتفوقهم ولا يريدون أن يعترفوا بكفاءة الإنس. وهذا يدل على أن أهل الصحراء أسبق من أهل الخفاء في دخول الصحراء. هذا ما أقوله أنا. هذا ما تقوله العرّافة أيضاً. ولكن هذه خرافة أخرى

دعنا الآن نعود إلى الحورية. جاءتني بعد الغروب، قبل أن يستشهد قبس الشمس في الأفق. سكان الظلمة يحبون هذا الوقت. جاءتني بعد أن أنهيت حلب الماعز وفرغت من آخر ضرع. التفتُّ فوجدت أن شبحاً يقف فوق رأسي، لا أدري من أين طلع. شبح امرأة، متلحفة بالسواد، تشدّ بيدها اليمنى اللحاف حول وجهها المستطيل. عيناها كبيرتان، مرسومتان بالكحل، سوداوان. الحواجب كثيفة، مقوسة. الرموش طويلة. الأنف طويل مرفوع، متكبر. أمَّا الذقن فلم أتبيَّنه بوضوح لأنها حجبته باللحاف. القدّ مشدود. القامة فرعاء. الردفان ممتلئان مثل قربة ماء.

قالت: «أنتِ رفست ولدي، وأخذتي حاجتي». لم أفهم. طبيعي أني لم أفهم هذه التهمة القبيحة. فلا أذكر أني رفست في حياتي حتى النملة، كما

لم يحدث أن مددت يدي لآخذ حاجة الغير. ويبدو أنها رأت الاستنكار في وجهي فأوضحت ببرود: «أَلَمْ تأخذي حلقة الذهب من الرماد القديم منذ أيام؟ هل تنكرين أنك تسكّعت في الأرض المهجورة وتمرّغت في الرماد؟». تذكرت الحلقة النحاسية فقلت بدهشة: «أخذت حلقة نحاس ولم أرَ هناك أثراً لولد». لم يخطر ببالي أن تكون محدثتي من أهل الظلمة حتى تلك اللحظة، لأني رأيت الذيل القبيح عندما استدارت فقط. عقدت حاجبيها الكثيفين وقالت بغضب: «أنتم لا تبصرون. عيونكم كبيرة ولكن كلّكم عميان. لم ترِ الولد ولكنك رأيت الحلقة. تقولين إنه نحاس ولكنه لمّاع وأخّاذ وإلاّ لما امتدت يدك إليه. أنتم تبصرون الأشياء اللمّاعة فقط. أما المخلوقات المطفأة المعجونة من اللحم والدم فلا ترونها. أنتم دهاة لأنكم لا ترون إلاّ الأشياء التي تريدون رؤيتها». سكتت ثم أكملت بنغمة أخرى: «الذهب حجابنا. حصننا. كتابنا. أنتم تحتمون ببيان القرآن وتعاويذ السحرة ونحن نتستّر ببريق سيّد المعادن. تعموننا وتتقون شرنا بالآيات والأحجبة ونعميكم بالبريق لنتقي شركم. أعيدي حجاب الولد».
وعدتها. قلت لها إني سأعيد الحلقة بمجرد أن يعود الراعي من الوديان. انصرفت فرأيت في العتمة الذيل البشع. زَحَفَتْ على جلدي قشعريرة وأُصِبت بالرجفة. تذكرت أننا لا نسكن الصحراء وحدنا. تذكرت أننا ننزل ضيوفاً على قوم يدّعون أنهم أقدم منا وينازعوننا حقّنا في الوطن العاري. ينازعوننا برغم أننا سبقناهم في اختراع القناع. وأدهشني أني نسيتهم طوال الحوار. أدهشني أن تحدثني الحورية عن إيذاء ولد غير مرئي ولا أنتبه إلى أن الولد إذا كان خفيّاً فلن يكون إلاّ من الأهل الذين ينازعوننا في امتلاك الصحراء. ثم تذكرت شيئاً آخر أفزعني أكثر: الرماد. الرماد المهجور بيتهم المفضل، ولا أحد استطاع أن يجد تفسيراً لهذا الغرام المبهم. تذكرت فصرعتني الحمّى. لزمت الفراش أياماً كثيرة. ثرثرت بالهذيان ورطنت بالهوسا في الغيبوبة، ورأيت واحات مجهولة في الأحلام. زارتني العجائز والعرّافة والإمام. أخفيت السرّ حتى وقفت على قدمي. في ذلك الوقت جاءت أخبار الوديان بمصرع الراعي. عرفت أن وعدي لن يتحقق فذهبت

إلى العرّافة. أخبرتها بسري وطلبت منها الكتمان. حدثتني طويلاً عن أخلاقهم وسلوكهم ونبلهم أيضاً، فأفزعني أنهم لا يغفرون الحَنْثَ بالوعد. لا أعرف كم مضى من الزمن عندما عادوا لزيارتي مرة أخرى. لم تعد الحوراء بل جاءني بعلها الفظيع. جاء مقطوع الرأس في المرة الأولى. وجاء مارداً في المرة الثانية، غابت قامته في السماء. لم أذق طعم الهناء منذ ذلك اليوم. توالت زياراتهم. أعترف أنهم كانوا حليمين، رحيمين. لم يهددوا. لم يتنابزوا بالألقاب. لم يضربوني ولم يلجأوا لسلاح الأذى. ولكني كنت، في كل زيارة، أرتجف وأقشعر وأتصبب العرق وأرقد بالحمّى. في هيئتهم شيء خفي، مجهول، جليل ومخيف. مخيف بقدر ما هو جليل. أحسست أني أخطأت في حقهم مرتين: الأولى عندما اقتحمت ديار الرماد ومددت يدي إلى الحلقة الملعونة، والمرة الثانية عندما وعدت الأم الزائرة وحنثت بوعدي لسبب خارج عن إرادتي. أحسست أني أستحق أن أتلقى منهم الضربات على قفاي كعقاب، ولكنهم لم يحتكموا إلى العصا. أدركت أنهم ليسوا همجاً كما خيَّلتهم لنا الأمهات والجدات. ولكن ذلك لم يخفف من شعوري بالإثم. استمرّت الزيارات واستمر الخوف والخطيئة. عجزت تعاويذ العرّافة وأحجبة الإمام. ساعدتني مستحضرات الأعشاب وهدَّأت في نفسي الخوف المجهول. تنقلنا بين المراعي كثيراً فوجدت أنهم يتخلّفون عن الوصول بعد كل رحلة. يتخلّفون ولكنهم يصلون في النهاية. يستغرق ذلك بضعة أيام وأحياناً بضعة أسابيع. ولا أفهم حتى الآن سرّاً لذلك. ولكني عرفت سرّاً آخر. سرٌّ أقدم من الصحراء ومن «واو». سرٌّ ورثه أهلنا عن آنهي المفقود. يقول: «أنْ تقطع يدك أفضل من أنْ تدعها تمتدّ إلى الكنوز». يدي هي التي ورطتني عندما تركتها تمتد إلى الحلقة، كما ورطتني رجلي لمّا دخلت ديار الرماد. وما فائدة الحكمة الآن؟ ما فائدة الدرس بعد أن تقع الواقعة ويكتوي ابن آدم بنار التجريب؟ لا.. أنت لا تدري يا ولدي، أنّ نار الشقاء في الكنوز. وتلك القلة التي عرفت السرّ ورجعت عن الجري إلى رحاب السكينة هي الفئة المختارة للسعادة. وبرغم أني لم أمدّ يدي إلى الحلقة طمعاً في الكنز

إلاّ أن الجن لا يفرِّقون بين الطمع وبين الفضول. الفضول أيضاً خطأ. فلاحقوني في كل مكان ليذكروني بالخطيئة دون أن أتمكن من معرفة ما تعنيه لهم الحلقة المشؤومة.

قالت الحوراء في الزيارة الأولى إنها حجاب ولكن ذلك لم يقنعني ولم يبرر هذا الحماس في المطاردة. وقد أقفل هذا الباب في وجهي بعد أن تشبُّث كل الزوار بالصمت. لم يكلموني أبداً، مما ضاعف من فزعي. تقول العجائز نقلاً عن الكتاب الضائع أن توالي الأيام مقبرة الآلام، والزمان يستطيع أن يصالح أشد الأطراف عداوة، ولكني لا أذكر أني سمعت في آنهي ما يفيد بأن هذا الصلح يمكن أن يشمل الإنس والجن. أردت أن أقول لك إني عجزت عن التعوّد الذي أوجبته عليَّ الأشباح بطلوعها المتكرر. سرّ الجن أنه يخيفك في كل مرة حتى لو طلع لك ألف مرة. الخالق بنى سدّاً من الظلمات ليفصل بين الإنس والجان كما بنى سدّاً من المجهول بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، أو بين الصحراء المكشوفة و«واو» الخفية. هذا السدّ الأعمى هو الذي أبطل حجاب الزمان، حجاب التعوّد. آخ... آخ... يا ولدي. هل غلبك سلطان النوم؟.

غلبه. نام مستلقياً على ظهره، مفتوح العينين كأنه لا يريد أن يحرم مقلتيه من التحديق في قرص القمر الفضي الصحراوي العابر حتى وهو مغلوب بالنوم. أنصتت العجوز لأنفاس الحفيد لحظات، ثم زحفت إليه وتفقدت كيس الشيخ المثبت في معصمه. قرأت التعاويذ باللغتين: لغة أهل الصحراء، ولغة السحر والهوسا والأدغال.

(٢)

عندما زلزلت الأرض ورقصت أرّخ لها الصحراويون بـ «عام الهزّة». وعندما عمَّ الجدب وهيمنت المجاعة على القارة أرَّخوا لذلك الزمان بـ «سنوات الأزمة». وعندما خطف الجن الجدّة وجدوا أنفسهم يقولون: «عام اختطف الجن العجوز راتا». وما زال العقلاء، خاصة المعمرون،

يؤرِّخون لأحداث الصحراء بهذه الجملة التي ورثتها الأجيال اللاحقة ورددتها دون أن تتساءل عن الحدث حتى من باب الفضول. ولكن العقلاء الذين وجدوا في استهتار الأجيال بتاريخ الصحراء تهوراً غفروا للشباب هذا الطيش كما غفر لهم الأجداد والآباء طيشاً آخر من قبلهم. ولكن هل ينسى الحفيد ذلك الوجوم المشبوه الذي رآه على وجه الأم، ثم الأب، ثم قرأه في وجوه العجائز المرسومة بالغضون بعد تلك الليلة التي غلبه فيها النوم وحرمه من الاستماع إلى نهاية قصتها مع الجنّية الحوراء؟ عندما تهامست النساء بـ «طارت. .» الغامضة كان الرجال ينتشرون في كل الصحراء بحثاً عن الجدة الضائعة. فإذا كان الرجال أكثر جسارة في ذكر الجن وتسمية الأشياء الخفية بأسمائها العلنية، فإن النساء الصحراويات كنّ دائماً أكثر حذراً في تجنّب سيرة سكان المجهول. ففي الوقت الذي ظلّ الرجال يرددون فيه العبارة التاريخية: «عام اختطف الجن العجوز راتا. .» لجأت النساء إلى التورية والإيماء، فاستعملن عبارة خفية تليق بجلال أهل الخفاء: «في ذلك العام الذي اختفت فيه العجوز راتا. .». كأن الجدّة اختارت أن تختفي بإرادتها، أو الجملة اللئيمة الأخرى: «. . في ذلك العام عندما طارت العجوز راتا. .»، كأن الجدّة تلقت فجأة أجنحة هدية من نساء الخرافات أو جنيات الأساطير اللائي روت له عنهن أمتع القصص. كل هذه الحيل اخترعتها النساء البارعات في نظم الشعر وإخفاء المعنى خوفاً من إيذاء سكان الظلمات. بهذه الصياغة أرّخت الأجيال لحادثة الاختفاء.

ولا يستطيع أن يعرف لماذا حفر الزمان في ذاكرته هذا الوجوم طوال هذا العمر. وجوم غامض، متوتر، يخفي خوفاً وفجيعة واستسلاماً للقدر والمكتوب. وربما يخفي أشياء أخرى لم يفهمها في ذلك الوقت ولا يستطيع أن يستعيدها اليوم. يستطيع أن يراهن على شيء واحد، قرأه في عيون الجميع: كل القبيلة على يقين أن ما حدث كان سيحدث. كل الناس تعرف أن زيارات الجن لن تنتهي على خير. الكل يتوقّع للعجوز المسكينة هذا المصير. واستمرت العيون تومىء بهذا التعبير طوال الأيام التي قضاها رجال القبيلة في البحث عن جدته المفقودة. عزّته النساء بنظرات صامتة،

ربتت على رأسه العجائز الحكيمات بأيدٍ رحيمة وأصابع كأعواد الحطب وقدّمن له العزاء في حبات التمر. قال الصبيان له: إنه لن يسمع قصصاً ليلية بعد اليوم، لأن البحث في البراري لم يسفر عن شيء. بدأ يفهم سرّ الصمت والوجوم. عاد بعض الأتباع باللحاف الأسود بعد أيام. أخبروا أن خبراء الاستقصاء ورصد الآثار وجدوه على مسافة تبعد ثلاثة أيام عن النجع. ولكنهم لم يجدوا أثراً للعجوز نفسها. تدخل العرّاف وأكّد أن اللحاف إشارة وهم يسيرون في الصراط المستقيم. توارى النجع وراء وجومه وانتظر. مرت أيام أخرى. في مساء اليوم الخامس، عند الغسق، تجمّع الكبار والصغار، ليتفرّجوا على فارس البشارة وهو يظهر ويغيب في الأفق. ينزل الوديان فيختفي ويغيب، يصعد الروابي والمرتفعات، في العراء الممدود إلى الأبد، فيظهر من جديد مثل الشبح. اقترب فتأكّدت النساء أنه ليس شبحاً من الجن أو خيالاً نسجه السراب فرفعن عيونهن إلى السماء وأطلقن ألسنتهن المدرَّبة في زغاريد عاصفة، طويلة، احتفاء بوصول الرسول. يومها حيّرته النساء. سأل نفسه: كيف تجرؤ امرأة أن ترفع صوتها بزغاريد الفرح دون أن تنتظر وتعرف أي بشارة يحملها الرسول؟ ولكنه كان صبياً يافعاً فلم يلحظ الإشارة. لم يرَ في عتمة الغسق كيف لوَّح الفارس في الهواء بقطعة شاش بيضاء.

في صباح اليوم التالي، عند الأصيل، جاءت القافلة بالعجوز محمولة على ظهر جمل، ملفوفة في الأردية والبطاطين، ترقد في سرج مستطيل صنعه الرجال من الأغطية والثياب وأوراق الرَّتم. محمومة. ترتجف. يغزو البياض مقلتيها. عيناها تدوران في الفراغ كعيون العميان. نبت الزبد الناصع حول شفتيها المتغضنتين، الهرمتين، وهذت برطانة هي أقرب إلى لغة الجن. خليط من تماهق والهوسا والتباويّة ومفردات أخرى غير مفهومة مما حمل العجائز على الظن بأنها ما زالت غائبة في المخاطبات مع أهل الخفاء.

سهر فوق رأسها مع أمّه. حاول أن يفكّ رموز لغتها الجديدة. تمكّن

التعب من الأم فاستسلمت وأغفت وواصل هو السهر. خاطب النجوم وتوسّل القمر أن يشفيها ويعيدها للناس، أن يعفيها من ملاحقة الجن ويعيدها إليه كي تحدّثه عن «واو» وتحكي له مطاردة الجنية الحوراء في ضياء البدر الصحراوي. كي ترشوه بحبات التمر وقطع السكر حتى يؤنس وحدتها ويقبل قضاء الليالي معها. كانت على يقين أن الجن يخشون الرجال حتى لو كانوا أطفالاً. يكفي أن يكون ذكراً. الجن يفزعون من رائحة الذكور. الذكر مخيف حتى لو كان طفلاً.

بعد أن أغفت الأم أنصت لهمهمتها المبهمة ووضع راحته على جبينها ليمتحن الحرارة. أحسَّ بالعرق اللزج الحار في أصابعه فزحف على ركبتيه خارج الخباء. تذكَّر أنه أغفى في تلك الليلة عندما خاطرت بحياتها وأفشت له سرّها. أغفى قبل أن تكمل قصتها فاستهان بمصيبتها. كيف سمح لنفسه أن يغفو ويستهتر بمصاب العجوز المسكينة؟ الوحيد الذي اختارته وخصّته بالسرّ، فكيف غلبه النوم قبل أن يسمع نهاية المطاردة؟ أفشت السرّ فعاقبها أهل الظلمات بالخطف والعقاب و. . وبماذا أيضاً؟ لم يعرف أحد تفاصيل رحلتها المجهولة. لم يعرف أحد لأنها نسيت لغة الإنس وتخاطبت بلغة قوم المجهول. حتى هو الذي عاشرها وفهم تمتماتها وهمهماتها وتعاويذها بلغات الأدغال عجز أن يفهم اللغة الجديدة. ولو فهم جملة واحدة لتوصّل إلى الخيط الذي سيقود القبيلة لفهم ما دار بينها وبين أعدائها القدامى.

تكاثف الزبد على شفتيها وازداد البياض في مقلتيها وغمر الوجهَ شحوبٌ. ماتت بعد أيام. هاجرت إلى السماوات المجهولة وتركته فجأة. بكى وهام بين البيوت كالدرويش. رفض أن يأكل ويشرب لأنه لم يصدق أن عجوزه يمكن أن تطير وتتركه وحيداً في الصحراء. لم يفهم حتى ذلك اليوم أن رحلة الإنسان في الصحراء ليست خالدة، ولم يفهم أنه جاء عابراً. أبوه هو الذي قال له ذلك: «كلنا عابرون إلى الجهة الأخرى. الصحراء ليست مقامنا الأبدي». بكى وفكّر طوال الوقت في العبور.

هذا أول لقاء له بالهجرة. بالعبور. بالموت.

استمر في الصيام. عزّته الأم وأفشت له سرّاً آخر: «كلنا نعرف أنها سترحل. ستعبر. إذا زارك الجن فهذه إشارة إلى بداية الرحلة. لم يحدث أن ظهر جنّ لإنسي وبقي الأخير على قيد الحياة».

هذا أيضاً درس لم ينسه.

ولكن ثمة سرّ أخفاه عن أُمّه وأبيه وكل القبيلة. سرّ لقّنته له الجدّة قبل أن تعبر، ويقول إن الجن يجيئون كي يستعيدوا قطعة الذهب فإنْ رفض وعاند أخذوه وملكوه.

(٣)

جفّ الدمع في عين السماء وهيمن على الصحراء الجفاف. وجد الجلّاد الأعلى فرصته فجلدها بالنّار طوال سبع سنوات. هلكت القطعان. عمّت المجاعة. تشتت شمل القبيلة. نزحت العشائر للاحتماء بالواحات. هاجرت عائلات إلى بلاد السود. وعاندت فئة قليلة متنقلة في الحمادة العارية. لم يفت الأوبئة أن تأخذ حصتها أيضاً. أمّه أخذها وباء مجهول جاء به القبلي. والأب صرعه الظمأ وهو يتفقد إبله المفقودة غرب الحمادة. ولكن جفاف ينابيع السماء السباعي ليس إلّا بشارة في الغيب لا يعلمها إلّا العرّافون. فالسبع العجاف تعقبها سبع سمان، يقول العرف المكتوب في النجوم. وبرغم طعن بعض العقلاء في صحة الرقم السباعي إلّا أن الرواة أرّخوا للسنوات السمان بالرقم السحري ليس من باب الإجلال لعرّاف القبيلة ولكن لأن المصاب إذا ابتدأ برقم «سبعة» فإن التعويذة لا بدّ أن تقود إلى الخلاص يوماً.

كل مَنْ اكتوى بنار السبع العجاف تذكّر مدى الحياة كيف تجمّع الماء الفقيد في مآقي السماء. وآدّه الذي فقد الأب والأم والأقرباء وبقي هائماً في الحمادة الوحشية يملك الحق في أن يذكره أكثر من كل العشائر التي

تخلّت عن الصحراء وبحثت عن حياة الاستقرار في الواحات. وهو، مثل كل التائهين المبعثرين في دنيا الخلاء، لا يدري كيف تنادى الندى، وتقنّع وجه السماء بالسحاب. تبللت المآقي القاسية وانفطرت بالدمع العصي. تهيأت الصحراء الظمأى لتلقي الخصاب وتبادلت الدور مع بعل العلا. استعارت السماء دور العروس الصحراوية في ليلة الزفّة فبكت بدموع سخية، وتقمّصت الصحراء البكر جسد السماء ففتحت ذراعيها وساقيها لتحتضن الزوج الأبدي الذي هجرها طوال السبع العجاف. لم يستمر العرس طويلاً، ولكن العناق كان كافياً كي يجعل الوديان تسيل بالماء العطن، المارد، المخلوط بالبعر، والقش، وعظام الموتى، .وجثث الحيوانات والخنافس وثياب الأفاعي.

دبّت الحياة في النبات الميت في ضربة سحر. عادت مع حبات المطر الأولى بذوراً اندثرت، وولدت في الصحراء الحياة من رحم الفناء الشامل. اخضرّ الرَّتم في الأودية السفلى وأزهر بأريج الأسطورة والفردوس. غزا أنوف الصبايا الصحراويات في المراعي فاستدارت نهودهن البتولة وتمرّدت بحثاً عن الحب الذي ضاع منهن طوال السبع العجاف. تململ العصفور الخفي في صدر الفتى آدّه ورفرف للقاء العرائس الظامئة.

قرر أن ينسى الجن والجفاف والسبع العجاف ويعشق بحلول موسم انتظرته الحمادة طويلاً. إذْ ما فائدة أنْ تعود الحياة إلى الصحراء ويحلّ الربيع في الزهور إذا لم تتكوّر نهود العذارى، وتتفتح القلوب البكر لترتوي من ظمأ السبع العجاف، وتلتقي بقلوب الفرسان في حرم العشق؟

(٤)

في الصحراء لا يستطيع الفارس أن يدّعي الفروسية، أو النبل، أو البطولة، أو حتى الرجولة، إذا لم يبدأ بالعشق. شاعرة القبيلة تسعى بين المضارب. تفتش عن الفتيان الزهّاد الذين عزفوا عن الصبايا كي تؤلف موال الهجاء الذي ستردده المغنيات في أول ميعاد يسطع فيه البدر.

الفتى آدّه ورث الخوف من العار، ومن هجاء الشاعرات، فاستجاب له العصفور ورفرف في القفص: رقد في المراعي وشاهد السماء العارية. رأى في أسمال السحب العابرة نهوداً مدوّرة في حجم حبات الكمأ، وجدائل فحماء كخيوط اقتطعت من ليلة صحراوية هجرها القمر. راقب الخدود المزوّقة بـ «تيفتست» الأقحوان، القدود الممدودة، الممشوقة كقوام المها، وغزا أنفه الأريج المستحضر من زهور الرّتم حتى أغمض عينيه وأحسّ بالدوار.

ولم يعرف أن شعائر العشق بدأت قبل أن يلتقي بـ «تاناد» في أول ميعاد رتبته العذارى مع البدر.

أ ـ تاناد الأولى

سمع من الصبيان أنها تنظم الشعر سرّاً. زادتها الشائعة، في عينيه، سحراً. لم تكن فارعة كما يليق بالحسن الصحراوي النبيل. فكل الصبايا الحسان، في العرف الصحراوي، فارعات. ولكنها عوّضت تواضع القامة بالسحر. سحر اللغة والشعر الخفي، وسحر الملامح والعينين. في عينيها جرأة لا تليق بعذراء. وفي الوجه الصبياني المستدير شقاوة وتطاول. رآها في ليلة الميعاد تتوسّط حلقة مختلطة من الصبايا والفتيان. يتبارزون بالأحاجي، ويتبارون بأبيات الشعر. اقترب وتربّع على خطوات من الحلقة. تربع «خميدو» بجواره ليتابع معه المباراة. في البداية سرح مع البدر لقتل الضجر، ثم انتبه إلى لغة تاناد في الشعر. لم تكن الأبيات التي تردّ بها على أشعار الفتيان قد سمعها في معجم القبيلة. في أبياتها طراوة، وبكارة، وجسارة. كانت تفتح ثغراً مرصّعاً بصفين من الأسنان الدقيقة وترفع رأسها كأنها تهب ابتسامتها للقمر وحده، ثم تجرّ قوس «امزاد» على الوتر الوحيد فينطلق النغم الحزين ليسكت أسئلة الفضوليين الذين يلحّون على الاستفهام عن هوية الأبيات. كانت «تاناد» الداهية تستجير بالوتر الحزين حتى لا يضطرها الهواة الخبثاء أن تجيب على أسئلتهم فتكذب. لأنها لم تقرر، حتى الآن، أن تنافس شاعرة القبيلة.

ولكن «خميدو» الثعلب كان يميل بعمامته نحو «آده» عقب كل بيت شعري ليعلّق: «هذا من تأليفها. أقسم أن هذا البيت من تأليفها». أو يطلق صيحة إعجاب ليلفت إليه الأنظار ويهمس في أُذن آده: «هذا ارتجلته للتوِّ. أقسم أنها ارتجلته الآن» ويدعم القسم بصيحة أُخرى. اقترب آده من الحلقة وتحدَّاها في الشعر.

تنحّى الشباب وفتحوا له منفذاً في الحلقة. في عيني «تاناد» شاع الفضول وطغى على السحر. في عيون الأقران شاهد السخرية ونبوءات بالهزيمة. نطق البدر أيضاً بابتسامة خفية ولكنها مشجّعة. خلفه أطلق «خميدو» ضحكة مكتومة. الأبله!

قالت بابتسام وتهليل:

ـ بِمَ سنبدأ: بشعر الفرسان والعراك أم بمواويل الصحراء والصبر على العشق؟

أعقبت سؤالها بضحكة وجرّة على وتر حبس في صدره أحزان الأجيال.

قال آده بمناورة رآها الأقران موفقة:

ـ وهل يملك الفارس أن يختار بحضور صبية؟

بدأت بيتين زهديين مجهولين. وأعقبتهما ببيت ثالث معروف، فكوّنت الأبيات الثلاثة قصيدة جديدة، مشحونة بحسّ صوفي، عن طوق لواه القدر في عنق الصحراوي هو: العزلة. وكي تمنح الفتاة قصيدتها الماكرة الأصالة والبعد الشجني الذي تشترطه كل قصائد الصحراء، صنعت لها لحناً على وتيرة «هلي ـ هلي»، وارتجلتها كأغنية ملحونة.

بدأ آده. وعندما انتهى لم يصدق حتى خميدو أن يفوز بهذه الكفاءة.

فازت القبيلة بأغنية جديدة منذ بداية المباراة.

. . . وأضافت إلى معجم الشعر الفروسي نصيباً أكبر. فلم يعرف أحد من هواة الشعر ولا من محترفيه، سواء مَنْ انتمى إلى فريق الصبايا أم إلى

فريق الصبيان، من أين خرج آده بهذه الذخيرة الشعرية. عجز خميدو نفسه عن إعطاء تفسير للمعجزة. أحاط به الشبان وألحوا في أن يعرفوا شيئاً عن مواهب صديقه الشعرية المغمورة. قالوا له إنهم تعوَّدوا أن يبحثوا عن أسماء الشاعرات السرّيات، ولكنهم لم يتعودوا من الشبان أن يخفوا مواهبهم الأدبية. قال خميدو: إنه لا يعرف. وكان يعرف أنهم لم يصدقوه. وما أن تعب البدر وأعياه الوجد فغاب خلف التلال المجاورة حتى ألقت تاناد بوتر الحزن في حضن رفيقتها ودمعت عيناها قبل أن تستسلم وتنسحب. طارد خميدو رفيقه في عتمة العراء وألحَّ عليه بالسؤال: من أين لك بكل هذه الأشعار؟

عاد الفتى آده إلى خبائه منفوشاً. ورغم الجهد والإنهاك استقبل القبس البكر مفتوح العيني. غرّد في صدره العصفور الظمآن ورفع صوتاً بنداء العشق.

في النهار تحدّث النجع بالميعاد وبشّره أهل الفضول بشائعات النصرو.. تفاسير عن رصيده الشعري الخفي.

نقل له خميدو قولاً يفيد بأنه ورث الذخيرة النفيسة عن جدته التي قضت نحبها بسبب تعاملها مع الجن. أورثته الجنية العجوز هذا السلاح الشيطاني كي يغزو به الحسان ويسلب قلوب العذارى. واختلقوا قصة عاجلة، مثيرة، تعزو وفاة الجدّة إلى ارتكاب أخطاء في حساباتها مع أهل الخفاء، فحدث لها ما يحدث لأولئك المغامرين القادمين من مراكش أو بلاد شنقيط عندما يرتكبون أقل خطأ في فك الطلسم عن الكنز المحروس، دوماً، بالمردة والجان: يخسفون بهم الأرض، يزلزلون الصحراء، ويصيبونهم بعاهة كي تكون لهم عبرة أبدية تذكّر بالهزيمة، وترجعهم عن التفكير، من جديد، بطلب الكنوز المستحيلة.

اقترفت العجوز أيضاً خطأً مماثلاً، برأي أهل القول والفضول، فاختطفها أهل الخفاء وعذبوها بالجوع والظمأ وإرهاب الأفاعي فماتت لمَّا بلغ بها الفزع مداه.

لم يشغل باله بالخرافات الجديدة. مضى في الليل إلى التلال. راقب قبس البدر كما راقب قبس قرينته الشمس في الصبح، تاركاً للقبيلة متعة اكتشاف تطرد الوحشة لأيام وشهور.

... ثم سافر.

هاجر إلى المراعي الجبلية في صحراء الشمال وجاهد هناك كي يلفّق لها قصيدة حب مكوّنة من أبيات مختلفة استعارها من الكنز الشعري الذي حفظه طوال السنوات الماضية. عاد إلى القبيلة وقرأها في أول ميعاد تحت ضياء البدر. فازت بإعجاب الصبايا والصبيان، وأجبرت العذراء أن تطأطىء رأسها حياء.

ولكن حدثت مفاجأة.

قفزت شاعرة القبيلة الخلاسية من حلقة الغناء ورمته بالغش. قالت غاضبة:

ـ هذا شعر ملفق. أنت سرقت الأبيات من القصائد القديمة، المجهولة، ونسجت منها شعرك. أنت شاعر مزيف!

لم يتدخل أحد. أخرست الدهشة الفتيان والفتيات. هيمن الصمت وتوارى البدر خلف سحابة شفافة، عابرة. رأى آده أنه إذا لم يدافع عن نفسه فلن يستطيع أحد أن يردع المرأة السّليطة.

قال ببرود:

ـ لو لم تكوني امرأة لقطعت لسانك الأسود الحسود بسيفي.

انطلق لسان الشاعرة:

ـ تستطيع أن تقطع حتى رأسي بسيفك، ولكنك لن تستطيع أن تمنح تاناد بيتاً واحداً من شعرك. ليس العار أن يعجز الفارس عن صنع الشعر، ولكن العار أن يستعيره من قاموس الأولين ويدَّعي أنه من صنعه.

ـ تقولين هذا لأنك لم تقتلي ثعبان الحسد الذي يتحرّك في بطنك.

ـ كيف تستطيع تاناد أن تبادلك العشق بعد أن علّقت في رقبتها شعراً مزيفاً.

ـ أراهن أنك لن تستطيعي إثبات ماتدعين.

ـ قبلت الرهان. أُراهنك بناقة.

ـ قبلت.

ـ إشْهَدْ يا ميعاد القبيلة. فلنبدأ بالبيت الأول...

أجهشت تاناد ودسَّت رأسها في حضن أقرب فتاة. توارى القمر وراء أسمال السحب وظهر مرة أُخرى. بدأت الشاعرة الجنيّة تفكك أبيات القصيدة الملفقة وتعيد كل بيت إلى أصله. قالت إن المطلع مستعار من قصيدة قديمة تعود إلى شاعر من آير. وهي قصيدة طويلة ويتيمة لم يؤلف غيرها. ولكن هذا لم يمنع الإتقان من أن يجعل منها قصيدة خالدة. ولم يتمالك الشبان أنفسهم من التقارب والتهامس عندما لاحظت أن القصيدة منسيّة حتى في آير نفسها، ويعود الفضل في إنقاذ بعض المقاطع إلى عجائز في آهجار وآزجر وهبن قوة الذاكرة.

علا نشيج تاناد وبدأت الشاعرة تستعيد القصيدة التي استعار منها آده بيته الثاني.

قرأت الأبيات وهي تتمايل كالمجذوبة، إلى أن وصلت إلى المقطع الذي يصف فيه الشاعر الحزن في عيني معشوقته ويشبههما بعيني غزالة هاربة من صياد أصاب وليدها بسهمه فعادت ووقفت فوق الصغير، تلعق النزيف في رقبته، وترفع عينين معتمتين حزينتين نحو الصياد. وقد أفرد الشاعر هذا المقطع الطويل وأجاد في وصف دمعة انبثقت من عين الأم وأطال حتى أثّر في شعراء عصره وشعراء الأجيال التالية، وأصبحت لا غنى عنها لِمَنْ أراد من الشعراء أن يعبّر عن الحزن. ولم يفت الجنيّة أن تذكر

الحاضرين بشرع الاستعارة في شعر الصحراء، وقالت إن الإشارة للمصدر الشعري السالف ملزمة للشاعر داخل نسيج القصيدة بحيلة لا تؤثر في الوحدة أو الإيقاع أو الوزن أو التناغم الموسيقي. وهوما لا يقدر عليه إلا الشعراء الموهوبون.

عجزت تاناد عن الاستمرار في الاستماع فهربت إلى البيت.

لم يخسر آده بعملته الحمقاء رهاناً واحداً، ولكنه خسر ثلاثة: الناقة، والسمعة و. . . تاناد.

في الليل زاره «خميدو». تربَّع ونطق بأول إدانة:

ـ أهنت الصحراء واعتديت على النّاموس.

ـ لم أدّعِ يوماً أني شاعر، ولكن من حقي أن أجتهد إرضاءً لِمَنْ أُريد.

ـ من حقك أن تجتهد لا أن تلفّق. حتى العقلاء لن يغفروا لك إهانة الأشعار.

ـ هل كلّفوك أن تبلغني هذا؟

هزّ عمامته بالإيجاب. عقَّب:

ـ الشيخ أبدى استياءه.

ـ التقيته صباح اليوم فلم يبد لي شيئاً.

ـ متى كان الشيوخ يبدون استياءهم وجهاً لوجه؟ ما نفع الحكمة إذا لم تحصِّن حاملها من العجلة؟

سكت آده فليّن خميدو في الكلام:

ـ أعرف أن الفتى سيعيش شقياً إذا فات عجنة التراب الصحراوي أن تزرع في لسانه الكذب، ولكن الكثيرين وجدوا في أنفسهم الشجاعة لأن يستميلوا قلوب العذارى دون أن يضطروا إلى التلفيق في الأشعار.

صمت ثم عاد إلى القساوة:

ـ أنت مسكين. الفتاة لن تغفر لك قصيدتك المزيفة!

ـ ليس تزييفاً أن أصنع قصيدة حلوة جديدة مستوحاة من مجموعة قصائد جميلة، قديمة. لولا تدخلكم لعرفت الطريق إلى إقناعها.

هزّ خميدو عمامته المهيبة بيأس:

ـ ربما عرفت الطريق حقاً إلى عقلها، ولكن خبرتي تؤكِّد أنك فقدت الطريق إلى قلبها إلى الأبد.

قرر آده أن يقفل الحوار:

ـ لست في حاجة لخبرة أحد.

استمرّ قرينه يهزّ عمامته:

ـ ربما. ولكن اليقين أن خبرتك في الكلام الحلو لم تتجاوز عتبة الطفولة. سيمضي وقت طويل حتى تعرف أن المرأة لا تعترف، في النهاية، إلاّ بالرجل الذي يملأ أُذنيها بالكذب.

ـ لست مضطراً أن أكذب أبداً.

ـ ها.. ها.. سوف تكذب. أقسم أنك سوف تكذب إذا كنت جادّاً في أن تبني علاقة بامرأة.

ـ هل تريد أن تقول إن كل أولئك الذين يحظون بعشق الصبايا هم فرسان مزيفون؟

ـ بل مجرد كذّابين غزوا قلوبهن البكر بالكلام الحلو. وهو سلاح أخطر من الشعر الذي نسجت به هديتك لـ«تاناد». لو كانوا فرساناً بحق لما نالوا عشق النساء!

ـ هل تريد أن تقول إن المرأة لا تعشق الفارس؟

ـ نعم. إذا كان حقيقياً فلن تعشقه المرأة أبداً.

ـ ولكن لماذا؟

ـ لو كنت أعرف لماذا لكشفت لك، بل ولنفسي، سرّ المرأة بضربة واحدة.

شقَّ الأُفق قبس القمر. قال خميدو بلهجة تتفق مع جلال البدر الوليد:

ـ لستُ معمِّراً حتى أفهم الحياة. ولكن الفارس النبيل لا ينال من المرأة إلاّ الاحتقار. ربما لأنها لا تستطيع أن تملكه كله كما تفعل مع نقيضه الوضيع الذي لا يملك إلاّ لسانه. آه لو فهمت الحياة مثل المعمِّرين الحكماء لعرفت لماذا ينال الأوغاد هذه الحظوة لدى النساء!

ضحك ملقياً بعمامته إلى الوراء:

ـ ها.. ها.. المعمِّرون يجمعون أننا سنعرف ذلك يوماً. سنعرف عندما لن نكون في حاجة لأن نعرف أي شيء. هذا هو ناموس القوقعة التي وُجدنا فيها وسُميت: صحراء.

قفز آده إلى رجاء آخر:

ـ علِّمني الكلام الحلو. أريدك أن تعلمني الكذب.

حدّق فيه خميدو قبل أن يسأل:

ـ هل تعشق الصبايا إلى هذ الحد؟

ـ وماذا يعجبك في الصحراء غير الصبايا؟

ـ أووه. الصحراء. وماذا تعرف يا أبله عن الصحراء؟ لو عرفت الصحراء لسلَّمت نفسك إليها وتخليت عن أجمل صبايا الإنس والجان. ما أدراك ما هي الصحراء؟

ـ دعني من صحرائك الحسناء وحدثني عن اللغة الحلوة التي تأسر قلوب العذارى. لا أُريد من الصحراء إلاّ أن تتنازل لي عن تاناد. أَلَمْ يتعلق قلبك يوماً بصبيّة؟

ـ أنت نسيت أن الكذب هو اللغة الوحيدة التي لا يستطيع أحد أن يعلمها لأحد. يعجز معلم أن يلقنها لمتلقٍ، لأنها مثل الشعر، موهبة من السماء.

هيمن السكون. عاد آدّه يسأل نفسه كما سأل مرات كثيرة قبلها: خميدو لا يكبرني إلاّ بسنوات قليلة فمن أين يجيء بالتدبير؟ لديه جواب لكل سؤال، ورأي في كل مشكلة. والمدهش أنه رأي ليس ككل الآراء: رأيه قاطع كرأي الشيوخ وزعماء القبائل.

اقترح:

ـ إذا كنت صديقاً فاذهبْ إليها رسولاً.

هزّ خميدو عمامته نفياً:

ـ أخشى أني لن أستطيع. لن تنفع الوساطة.

بعد أيام ذهب إليها في المساء.

رفضت اللقاء.

خرجت جدتها وجالسته في العراء طويلاً. يئس وانسحب. لم ييأس تماماً لأنه اختلى بنفسه في المرعى وصنع خطة. بحث في أساطير الجدّة عن الألفاظ، وفتّش في رأسه عن محاورات الباحثين عن «واو» ولغتهم في الطلب والعشق. استعاد مفردات الحب في القصائد القديمة وسطّرها جملاً وسحراً. جرّب وتدرّب ليقول لها «الكلام الحلو». عاد إلى النجع وتسلل إلى مخدعها في ليلة ظلماء وقرأ على رأسها الحماقات. ظلّ كامناً في الزاوية، يستعين بمرفقه الأيمن ليسند جسمه المنطرح بجوارها مثل كوم أسود. لحّن اللفظ، وقوّم المفردات الصحراوية العاصية بالشعر الخفي، وظن أنه يستطيع، بهذه الحيلة الحمقاء، أن ينطق بالكلام العذب، الكذوب، الذي لا تعترف قلوب العذارى بغيره كما أكّد خميدو.

في النهاية، بعد أن انتهى من جمله الملفقة، فوجىء بالكوم الأسود

يتحرّك فظنّ أن قلب تاناد قد رقّ ولان ورضي بكلامه الحلو. تحسّس يدها في الظلمة وانتظر أن تهمس بالغفران، فتلقّى، بدل الغفران، ضربة بالوتد على جبينه. ضربة قوية، قاسية، جعلته ينسى المراسم ويمسك باليد الهوجاء التي تسدد له الضربات. يد خشنة، معروقة، ضامرة مثل الوتد نفسه. يد الجدّة العجوز.

تخلّى عن اليد وانسلّ من الخباء.

طاردته الجدة بالوتد طويلاً في العراء.

ذهب إلى الخلاء خلف التلال. هَجَعَ على الحجارة. تفقّد جبينه وتحسّس الكدمات. أنصت فسمع السكون العظيم الذي سبق الخلق.

ب ـ تاناد الثانية

هام مع الإبل والرعاة في مراعي الشمال. تذكّر خرافة تقول إن الحبّ إذا فشل غيّر حال الرجل وصنع به العجب. انتظر في نفسه المعجزة ولكن التحوّل لم يحدث. لم يلهمه الصدُّ بالكلام الحلو ولم يفجّر فيه ينابيع الشعر. بل شَعَر بالخواء أكثر من أي يوم ونسي حتى الأشعار القديمة. أدهشه أن تعجز أساطير الجدّة في إشعال عقله باللغة العذبة والتخيّل الجميل مثل باقي الشبان. ولكن راعياً حكيماً عزّاه بتفسير قاسٍ:

ـ ينقسم الناس إلى فريقين. فريق وُلد للشعر واللهو، وفريق وُلد للعقل والله. والحكمة يا ولدي هي أن نعرف إلى أي الفريقين ننتمي. فقبل أن تدبَّ في الحياة مغمض العينين جدير بك أن تسأل نفسك: مَنْ أنا؟ هل أنا من فئة الشعر واللهو، أم من فئة مختارة للعقل والله؟.

شاء القدر أن يمضي وقت طويل قبل أن يستعيد آدّه هذا التحذير الغامض، لأن صوت الطيش واللهو، يوم حدَّثه الراعي، كان أقوى من صوت الحكمة والعقل. ولأن مسيرة الحياة هي التي ستعلِّمه التحذير

بالقساوة الضرورية لردع الأولاد الأشقياء. فالعمر الواحد، مهما طالت رحلته، قصير جدّاً إذا أراد الإنسان أن يسخّره ليعرف نفسه.

استدعاه شيخ القبيلة فخاف أن يقرّعه بسبب الإساءة للشعر. وجده يتكىء على وسادة جلدية مرسومة بالنقوش والتعاويذ في ظل العشية. تربّع بجوار عبد من زنوجه يلفُّ رأسه بعمامة سوداء فأصبح من الصعب التمييز بين البشرة والقماش.

كان يخلط الشاي ويبتسم بغموض.

رسم الزعيم خطوطاً خفية على الأرض بعكازه السميك، المصقول، المصنوع من جذع سدرة. قال:

ـ جدتك امرأة فاضلة. فهل تدري أنها تَمُتُّ بقرابة إلى زعيم «إيفوغاس»؟

ـ أعرف.

ـ هل تعرف أن فريقاً من أشقياء تلك القبيلة أغار على مراعينا وسلب إبلنا؟

ـ نعم. أعرف.

ـ وهل تعرف ما يعنيه العدوان على الأنعام ونهب القطعان في شرع الصحراء؟

ـ نعم. إنه الغزو.

ـ وهل تدري ما يعنيه الغزو؟

تنحنح آدّه فأجاب عنه الزعيم:

ـ الغزو يعني الحرب. والحرب نار حطبها الألم والدّم والدموع. والقبائل إذا تحاربت لا تفقد أحسن الرجال فقط، ولا تضاعف من اليتامى والنساء الثكالى فقط ولكنها تورث العداء من جيل إلى جيل.

شطب على رموزه في التراب وواصل بنفس التأنّي:

ـ تربية العداء في الأجيال أسوأ من العدوان ومن الأضرار الناتجة عن غزوة واحدة. لأن ميراثاً كهذا يهدد القبيلتين المتعاديتين بالانقراض. هل تعرف لماذا؟

لم يعلّق الفتى فتطوّع الزعيم:

ـ لأن صحراء واحدة تضيق بقبيلتين متعاديتين مهما بدت قارة كبرى كما يسميها تجار القوافل. والكراهية إذا بدأت فإنها قادرة على أن تحوِّل الدنيا إلى خرم إبرة، فيسهل على جيل ورث عداء عن الأسلاف أن يختلي بجيل القبيلة الأخرى في الرقعة الضيقة حتى يبيد أحدهما الآخر. هل تفهمني؟

هزَّ آدّه رأسه بالإيجاب وتناول كأس الدور الأول من الشاي. رشف الزعيم فقاعات الرغوة من كأسه وعاد يحرث الأرض بالعكاز المصقول:

ـ في مثل هذا الحال فإن الإنصات لصوت العقل أنفع للطرفين. أم أنك تشك؟

ـ أستغفر اللّه.

ـ صوت العقل هو صوت اللّه.

ـ . . .

ـ لن يخيب مَنْ تعلّم الإنصات لهذا الصوت. فهل تشك؟

ـ . . .

ـ أبلغني الأقران والعقلاء أن ذا الجلال لم يبخل عليك بالنعمة. وهبك هذا الصوت.

رفع آدّه رأسه يريد أن يعترض، أن يناقش، و. . لكن ابتسامة الشيخ الجليل جعلته يتراجع.

استمر الزعيم:

ـ وإذا أنعم اللّه على مخلوق بنعمة فما أشقاه إذا بخل ولم يسخّرها للآخرين. هل تفهم؟

ـ . . .

ـ لا شيء مثل رباط الدم يوطِّد الثقة بين القبائل. والعقل، صوت اللّه، يدعونا لضبط النفس الأمّارة بالسوء، السبّاقة للشر، إذا أردنا أن نقطع العداء من مسيرة الأجيال. وقع عليك اختياري لتكون رسولاً إلى زعيم ايفوغاس. ابدأ حوارك برباط الدّم وتوقف عند الكراهية كثيراً حتى تحسَّ أن الصوت البعيد، المقيّد بالأوهام، بدأ يستيقظ، فإذا صحا العقل فسوف ترى بنفسك أن الشيطان الرجيم قد ابتعد. اذهب وعُدْ بالقطيع.

قال الفتى لنفسه وهو ينصرف: «العشق ليس أهم عمل للرجل في الصحراء. إيقاظ اللّه في صدر زعيم ايفوغاس أيضاً عمل جليل».

سرّج مهريه عند الفجر. قرأ تعويذة تعلَّمها من الجدّة قبل الانطلاق. قفز في السرج ومسّد ردف الجمل بالسوط. مرَّ أمام خباء تاناد راكضاً. قبل أن يبلغ التلال الغربية الثلاثة سمع وراء ظهره زغرودة صافية، طويلة، كنداء من ملاك الفردوس. أحسّ بالوجد كما لم يحسّه في أي ميعاد. لم يلتفت أبداً.

في أطراف غدامس نصب له الزعيم قُشعاً خاصّاً. زاره الشباب وسلّوه بالأمسيات. عقدوا حلقة سمر عندما سطع البدر واجتمع بـ «تاناد» الثانية في ميعاد سبق الميعاد مع الزعيم.

وتاناد الثانية فرعاء كجذع مقطوع من نخلة هيفاء. وهي قامة لم تدهش آدّه الذي سمع الأساطير عن جمال نساء هذه القبيلة، وشهرتهن في طول القدّ وسموق القامة. كما أسرته العينان السوداوان الغامضتان اللتان تشبهان عينَيْ غزالة ذكية، مسكونة بأهل الخفاء. الثغر رشيق، يكشف عن صفين دقيقين ناصعين من الأسنان كلما تبسَّم. ولكن العذوبة التي لم يعهدها في صبايا قبيلته هي التي أخذته في الحسناء الفوغاسيّة الفرعاء. العذوبة

المدهشة، البكر، التي يروق للشعراء أن يسمّوها «الجاذبية»، ويحذّر من سحرها الفقهاء ويقولون إن حواء اتخذتها سلاحاً لإغواء آدم فتسببت في طرده من الجنّة، وكتبت عليه الشقاء الأبدي.

وكلما سأل نفسه ما الذي يأخذه في تاناد الفوغاسية: أهو القدّ الممدود؟ أم غموض العينين السوداوين؟ أم نصاعة الأسنان ودقة تصفيفها؟ تضاعفت دهشته وعجز عن التحديد. فمن أين يأتي شبابه اليافع بخبرة تخبره بأن الجاذبية هي سحر إلّهي لا ينطق به عضو أنثوي بمعزل عن العضو الآخر، ولكن الآلهة أنزلته في الروح ليتوزّع ويسري مثل دفقة ضوء، من هذا المقام الجليل، فينعكس ضوؤه في ومضة العين، أو بسمة الثغر، أو امتداد القدّ، أو طريقة النطق، أو رمية الجدائل على الجيد، أو أي حركة تلقائية أُخرى من أي عضو أنثوي؟ فهل جمال الجاذبية في التناغم والانسجام؟ نعم. الحياة ستجعل الفتى العاشق يفهم بعد سنوات طويلة، قاسية، أن جمال الجاذبية ليس كامناً في العضو المعزول بجموده، ولكن هذا الثراء.. هذا السحر الخفيّ.. ينطق ويأخذ، ويأسر، في تناسقه وانسجامه مع باقي أعضاء الأنثى أثناء حركتها العفوية. هذا الدبيب المتردد، هذه الحيوية المتوجِّسة التي تقدم رجلاً وتؤخر أُخرى، هذا الإيحاء المبهم، وكأنه الشقاوة، المستعار من قيعان المجهول، من الروح الجليل، هو المبدأ، الخيط، الذي يقود، في النهاية، إلى الجاذبية ويصنع السلطان الذي يلوي أعناق أقوى الرجال ويقودهم بسلسلة خرافية طولها سبعون ذراعاً.

حاورها في حلقات الغناء، وسمعها تعزف على وتر السَحَرَة ألحان الجن وأنغام الفراديس الضائعة. دامت اللقاءات لياليَ متوالية سطع فيها بدر الصيف. ولم يعرف كيف استطاع العصفور أن يفلت من القفص ويقع في أسر الجاذبية المفروش في البسمة كنسيج العنكبوت. استجاب وترنّح مع الإيقاع، وفي الصباح التالي ذهب إلى مجلس الشيوخ ليبلِّغ الرسالة ويوقظ صوت اللّه في قلب الزعيم الفوغاسي.

تربّع بينهم على الكليم المخطط. تابع خطوط الزينة كي يغلب حياء

الشباب وتكلّم. حاذر أن يلتفت إلى العمامات الجليلة التي جمعها شيخ القبيلة كأنه تعمّد أن يرهبه بها، وغاب في المنحنيات والتقاطعات والمثلثات والمربعات والسلاسل التي خطتها أنامل تواتية عاشقة صانعةً أدغالاً مجهولة لتهديها لمعشوقها المهاجر برفقة قافلة تجار إلى تينبكتو. صنع من أدغال التواتية العاشقة حجاباً أخفاه عن عيون شددت حوله الحصار.

بدأ من المنفى الأوّل وتحدّث طويلاً عن تعاسة الصحراوي. استعاد خرافات الجدّة عن «واو» فأفرد لها مقطعاً شيّقاً من خطابه. ثم قال إن الحياة في الصحراء رحلة أقصر مما يتوقع جلالة الزعيم: يقضي المخلوق شقها الأول في العراك مع الجديان والجدب والظمأ، وينفق الشق الثاني في رحلة تجارية إلى تينبكتو أو أغاديس أو تامنغست. ويبدأ العدّ التنازلي قبل أن يحقق أنبل مشروع يعتقد الفتى الصحراوي أنه لم يخلق لسواه: العشق!

يجذب في حفلات الميعاد ويحطم رأسه على الحجارة كي يتوِّج المعشوقة بالشعر، وقد يطيّر الوجد عقله فيقرر أن يلتحق بالغزو ليأتي لها بالسبايا؛ وعندما يفيق يكتشف أن الحياة تحالفت مع الصحراء، وقامتا معاً بتدبير المكيدة الخالدة. يجد نفسه يتوكأ على عكاز السدر، أو يستعين بعصا الطلح. يجلس في ظل العشية كل يوم، يحتسي الشاي الأخضر و.. يتسلّى بالإصغاء للسكون. نعم. الإنصات للغة اللّه في السكون العظيم هو كل ما كسبه من الرحلة الخاطفة التي لا يدري الآن، في غيبوبة الشيخوخة، عمّا إذا كانت حقيقة أم وهماً. فهل يظن العقلاء أن تسميم هذا الحلم الصحراوي القصير بالنزاع والعنف والصراع القبلي عمل العقل أم جنون آخر؟.

بعدها حدثت المعجزة التي لم يصدقها آدّه إلاّ بعد مرور زمن طويل. وربما صدّقها، فقط، لأنها ترددت في القبيلة، بل وتناقلتها قبائل الصحراء كلها، وضربت بها المثال لعبقرية العقل وغباء الحمق.

قفز الزعيم الجليل من عرشه في القشع وطوّقه بيديه النحيلتين.

عانقه وسط وجوم الشيوخ. دام العناق طويلاً، وعندما حرر الشيخ عنقه وجد آدّه نفسه يرتجف، والعرق يتدفق تحت لباسه الاحتفالي المنفوش.

هيمن الصمت. . .

في الخباء المجاور زغردت امرأة بالبشارة التي جرحت السكون في القشع فتناطح الشيوخ بالعمامات وتبادلوا الهمهمات والتعليقات. وعرف آدّه أن ما أثارهم ليس قفزة زعيمهم ولا الإعجاب بابن الأغراب، الذي عبَّر عنه بالعناق الحارّ، ولكن التخلّي المفاجىء عن الوقار القديم وإلغاء الاستعلاء التقليدي الذي يتحلّى به الكبار نحو الفتيان ليصل حدّ الاحتقار، هو ما صنع إعجازاً استحقّ زغاريد النساء وخروج الشيوخ من حرم الصمت.

أجلسه الزعيم إلى جواره وظلّ يمسك بيده. عاد الصمت يسود بين الرجال. أخيراً تكلّم الشيخ:

ـ لا يضير الحكيم أن يعترف بالحق حتى لو كان كبير القبيلة. عندما جئتنا مُرْسَلاً من زعيكم وَسْوَسَ في صدري الذي يوسوس في صدور النّاس: هل بلغ الكبرياء بشيخ أمنغساتن حدّاً ينسيه عرف الأسلاف فيبعث بالفتى اليافع ليتوسَّط في نزاع القبيلتين؟ ودعاني الوسواس أيضاً أن أقرأ الإشارة الخفية التي أراد الزعيم أن يومىء إليها بهذا الاستفزاز فقال لي بالحرف الواضح: «إنه يريد الحرب. إذا حجب كبير القبيلة العقلاء ومنعهم من القيام بدور الوسيط فاحذر وتحقق من نواياه، لأنه يدّعي طلب السّلم في الظاهر في حين يعدّ للحرب في الخفاء».

وقد صدّقت الوسواس الخبيث فتركتك شهراً في القشع. بعثت سرّاً برجالي للتأكد من صدق نوايا زعيمكم ومعرفة عما إذا كان لا يستخف بي لكسب الوقت في حين يعدّ للحرب. وأدهشني أن يعود رجالي بما يفيد أن ظنّي لم يكن سوى إثم. ولكن ماذا تظن يا ولدي: هل كان البرهان كافياً كي يقنع الوسواس ويجعله يتراجع ويكفّ عن الوسوسة في صدري؟ اعلم أن هذا الداهية إذا عرف الطريق إلى قلب الإنسان مرة فإنه يتشبث به

كما يتشبث القراد بجلد الجمل. أعترف الآن أمام الجَمْع بأنه هو الذي اقترح أن أدعو الشيوخ للاجتماع كي يقرأوا معي نوايا قبيلتكم في لهجتك وحركتك وعينيك. همس الملعون في أذني بالقول: «إذا أردت أن تقرأ نوايا الأب فخذها باستدراج الابن». وهي استعارة مُعدَّلة من «آنهي»؛ حيث ورد في الكتاب الضائع أن العجوز يستطيع أن يرى وهو هاجع ما لا يستطيع أن يراه الفتى وهو واقف على رابية. وعندما تكلمت عن آلامنا في الصحراء أحييت في صدري الصوت الآخر فاستيقظ الضمير وتكلم العقل، وعرفت لماذا اختارك الزعيم رسولاً للوفاق وحقن النزيف. غداً سأعيد الإبل إلى نجوعكم وسأعلّم المكابر «بابا» كيف يقلع عن عادته الحمقاء في الاستيلاء على قطعان القبائل في المراعي لأنها عادة تصنع الفتن وتهدد الدم والحياة التي وصفتها في خطابك بأنها تبدو، في صحرائنا الواسعة، خاطفة كالوهم، أو فلنقل، كالبرق. غداً ستأخذ الإبل، وستأخذ معها «بابا» مقيّداً بحبال المسَد لتسلّمه إلى شيخكم. وأخبره بأننا نبارك سلفاً الجزاء الذي سينزله بولدنا الطائش. قلْ له أيضاً إني كنت أودّ أن أقوم بنفسي بردِّ القطيع ولكن ما منعني للقيام بهذا الواجب ليس هموم القبيلة أو مشاغل الدنيا وإنما هو شيء أقوى، وسوف يجد لي العذر عندما يعلم أنه: العجز. فقد مضت سنوات طويلة عندما التقينا آخر مرة في «تامنغست»، وبرغم أني أتخيل ذلك كأنه حدث البارحة فقط إلاّ أن مكيدة الصحراء، التي تحدثت عنها منذ قليل، قضت لي بضعف البصر وآلام المفاصل ووضعت في يدي قوس السدر ليساعدني في تقويم قوس الظهر. ولا تنس أن تبلغه بأننا فخورون بانتساب فتى مثلك إلى قبيلتنا، وعندما نشجّع التزاوج بين قبائل الصحراء فإننا نتبع طريقاً رسمه الأسلاف ووجدناه مسجّلاً في «آنهي». وأنا على يقين أنه لو احتكمت كل القبائل إلى سلطان العقل كما فعل زعيمكم لما نزفت قطرة دم واحدة في طول الدنيا الصحراوية.

لم يكن صعباً على الفتى آدّه أن يلحظ في وجوم الشيوخ الشعور بالحياء الذي بعثه فيهم معاملة الزعيم له كندٍّ. وهو إحساس لم يكونوا ليغفروه

لأنفسهم لولا ثقتهم الروحية العمياء في حكمة الشيخ ويقينهم المبهم بتنزيهه عن الخطأ.

عاد إلى القشع وتربَّع في المدخل. راقب الخلاء بسكون مَنْ يؤدي شعائر المجذوبين. في المساء زاره الأقران للتهنئة، وتقرَّب منه الكثيرون وابتدعوا أواصر الدّم التي زعموا أنها تربط جدّاتهم بجدته. جاءته الصبايا أيضاً ليعزفن أوجاعهن الصحراوية بالقوس المشدود على الوتر الوحيد دوماً، الحزين دوماً. جاءت معهن تاناد وحدَّثته عن رقصتها في الليلة الأخيرة. قالت:

ـ وجدت نفسي في قلب العجاجة. هل تعرف العجاجة السوداء، الدوّارة، التي تقول العجائز إنها تخطف الأولاد المعاندين؟ ماذا تسمونها في قبيلتكم؟ نحن نسميها «مطية الجن». أخذتني فأحسست أن جسمي قشة تبن. طرت في الفضاء كذرّة وشعرت أن بدني خفيف مثل الشعرة. هل هذا ما يسميه الدراويش بنشوة الوجد؟.

ثم عرَّجت على الشعر فاضطر أن يقاطعها:

ـ أنا لا أقول الشعر. أنا لا أحسن الكلام الحلو. أنا. . شقي.

سكتت لحظة. رمقته في ضياء القمر. تمتمت وهي تنكس رأسها:

ـ أنت تحسن ما هو أعذب من الشعر وما هو أجمل من الكلام الحلو. لولا عقلك لوقع الالتحام، ولنزف الدّم. .

ـ هل تظنين ذلك حقّاً؟ لم أظن أنه يوجد في الصحراء شيء يمكن أن يفوق عذوبة الشعر والكلام الحلو في أُذن المرأة.

وهبته ثقة لم ينلها من امرأة. وقرأ في لغتها، وفي عينيها، وعداً لم تقطعه له امرأة. أبرم معها ميثاقاً صامتاً، وتعاهدا، باللغة السماوية أيضاً، أن يخوضا في تفاصيل لقائهما الأبدي عندما يعود من مهمته. و. . اكتشف عندما عاد، بعد غيبة شهور، أنها تزوجت مطلقاً من قبيلة «اوراغن» قيل إنه أثرى فجأة بعد أن اكتشف كنزاً من الذهب باعه في غدامس لتجار اليهود، فطلّق زوجته الأولى، ليدخل على. . الحسناء، تاناد الفوغاسيّة.

جـ ـ تاناد الثالثة:

في ذلك العام هطلت أمطار مبكرة شمال الحمادة.

عاد فرسان الاستطلاع من المرتفعات وأقسموا أنهم ذاقوا ثمار الترفاس بأنواعه الثلاثة.

سافر آدّه مع خميدو، يصاحبهما عدد من الرعاة، لتجميع الإبل والخروج بها إلى صحراء الشمال. بدأ الربيع قبل نهاية الشتاء. نما النبات واخضرّ الفصيص(*) مبكراً. في بعض المساحات المستديرة، التي انحبست فيها المياه كجداول، تشققت الأرض وأومأ قُلَاع الطين(**) بميلاد الترفاس. في الشِّعب المنحدرة من المرتفعات نبتت الأعشاب المغذية كالحميضة الحمراء و«أكرفال». في السهول ارتفعت «تاناكفايت» والشيح وبعض الزهور البرية المبكرة. أما الوديان ففاحت بأريج الرَّتم مبكراً أيضاً. تنادت الطيور في كل الصحراء وعادت الأنواع التي هاجرت إلى الجنوب. في اليوم الأول لوصولهم إلى الفردوس رأى آدّه ثلاثة غرانيق. تسكع اثنان منهما عبر العراء المكسو بالعشب. كان سعيهما جليلاً وهما يتنقلان بسيقانهما الطويلة، الرفيعة، الممشوقة، بحثاً عن الدود والغراد(***). أمّا الثالث فاعتلى قمة شجرة ميتة وراقب قوس الأفق حيث تدفق سراب لعوب. راقبهم آدّه خفية عن رفيقه الذي انشغل مع الرعاة في اعتراض جمل هائج وإعادته إلى القطيع في بطن الوادي.

في الليالي، حول مواقد النيران، حامت الذئاب وعوّت ببكائيات تبدو كالنّواح، ولكن الرعاة الحكماء قالوا إنها تخفي الفرح، وتتوقع موسماً بهيجاً غنيّاً بالضحايا. أمّا الزواحف الحكيمة، وخاصة الحيّات، فاستمرّت تعتصم بجحورها، لأن النجوم حذّرتها أن تصدّق المزاج المتقلب لمناخ هذا العام، فآثرت الاختباء حتى تتلقى الإشارة السماوية الأخيرة بخروج الشتاء وحلول الدفء والربيع.

(*) الفصيص: شجيرة مثل العشبة ينبت الكمأ في أصلها.

(**) القُلاع: قشر الأرض الدّال على الكمأة.

(***) الغراد: صغار الكمأ.

هذا موسم الفردوس: نعيم آدّه. واحته الضائعة. واوه المفقودة. كنزه الأبدي. هذه هي الحمادة في مواسم الأمطار. المساحة البكر. الأرض الأولى التي خصّها ذو الجلال لحلوله فيها منذ زمن لا يعرف حتى الأسلاف الأوائل متى بدأ. ولكن آدّه يؤمن، بل يحس بالحَدْس، أن جلالته حلّ في المساحة المدهشة، المرفوعة نحو السماء بقرون جبل نفوسة من الشمال، المشيّعة، من جهة الجنوب، بالجبال الأخرى الملفوفة بالعمامات الزرقاء. بسطها وفضّأها من الكائنات ولم يترك سوى الشجر والحجر والنبات. ثم رقّ قلبه واستجاب للتوسلات فسمح لأول حيوان بالدخول في الحرم. كان غزالاً بريئاً تغنّى الفصيص بجماله واستمدّ الرّتم من دمه المعطر بالمسك أريجاً لزهوره. شمّه الإنس الرجيم فصعد إلى الحمادة السماوية من صحاري الجنوب. طارد الحيوان الرشيق ليصطاده في الأرض الحرام. سفك دمه فمسخ ذو الجلال المعتدي فتحوّل ذلك الإنسان الذي دخل جنّته لأول مرة إلى مخلوق عجيب: نصفه السفلي غزال، ورأسه رأس إنسان. ولكن ذلك لم يهدىء من سَوْرة الغضب التي أثارها عدوان الإنسان في نفس الخالق. فلعنه وهجر البقعة المصطفاة ولم يترك وراءه سوى أنفاسه الجليلة تتردد في سكون الحمادة الأبدي.

ويتناقل الصحراويون رواية تقول إن الأسلاف الأوائل رأوا جدّهم الآثم برأس إنسان وجسم غزال وتعرّفوا عليه من خلال أحجبته وتمائمه الجلدية التي بقيت معلقة في رقبته وتتدلّى حتى تلامس الأرض.

كلما نالت الحمادة أمطاراً في الخريف، وأُخرى في الشتاء، بكّر الربيع بالحضور وأحسّ آدّه، في هذه البقعة الإلّهية، أنه قريب من باب السماء و. . . يستطيع أن يقول ما عجز أن يقوله دائماً: الشعر!

الشعر هاجسه، حاجته منذ الولادة، وغايته إلى يوم الممات. ولكنه، كأي صحراوي بائس، يحسّه ولا يقدر أن يصوغه برموز اللغة. يدركه ويعجز أن يصنعه في الكلمات. غصّة تختنق بها الروح، وتأبى أن تتزحزح مثل عظمة شرسة تتوقف في الحلق وتسدّ الأنفاس. وهو يحس أن حاجته

إلى الشعر ليست وليدة رغبته في التباهي به على طريقة الأقران، أو امتشاقه كالسلاح لخطف قلوب العذارى. ولكنه يريد الشعر كي يغزو به العراء ويعرف ما تخفيه الصحراء. يبحث به عن اللّه وعن واحته المفقودة «واو». فكان على يقين دائماً أن هذه الرموز الغامضة التي لا يبوح بها إلّا الشعر سوف تكشف له الحجاب ليرى سرّ المطر الذي يحوّل الأرض القاسية، العارية، الطينية، المفروشة ببساط من الحصى أو الحجارة، إلى جنة خضراء في أيام. يريد أن يتغنّى بجمال الغزال، ومعجزة الكمأ، وفردوس السكون فلا يسعفه النطق ويأبى الشعر أن يأتي. تخنقه الغصّة فيختنق ويبكي ويتلوّى على الحجارة الحزّاء حتى ينزف جسمه بالدّم ويتجرّد من عمامته فيكتشف أنه يسير حاسر الرأس. ولولا حرصه أن يستسلم لآلامه في الخلوة لظنّه النّاس درويشاً أو أحد المعتوهين البلهاء. إنه في موقف الخصيان الذين ظنّوا أنهم تخلّصوا من الشهوة ولكنهم وجدوا أن الشهوة تحرق أجسادهم بسياط الرغبة ولا تجد لها متنفساً لأنهم فقدوا الأداة. نعم. الشعر هو الأداة التي ستكشف له الستار ليجد المتنفس للإحساس.

سكتت الذئاب الضاحكة عن النواح فراقب النجوم. عناقيد النجوم أيضاً أنصتت دون أن تتوقف عن مشاهدة الصحراء العظمى. لم تنسَ مهمتها الأبدية في إنقاذ الضائعين الظامئين وتقديم الآبار هدية لمَنْ يستحق. قال آدّه.

- لا تسيء بي الظن. لا أُريد أن أقول الشعر كي أفوز بالصبايا. أُريد الشعر لحاجة بعيدة في نفسي.

. علّق خميدو ببرود:

- أصدقك.

- لا أرى أن باستطاعة أي قوة أن تمزّق الحجاب الذي يلف الصحراء غير الشعر.

- أصدقك. حاولت مثلك وفشلت.

ـ حقّاً؟ هل تحس أنك ولدت شاعراً ثم كمّم الشيطان فمك؟.

ـ أنا لا أحس أن شيطاناً كمّم فمي. لا يكمم الفم إلاّ اللّه.

ـ اللّه لا يمكن أن يكمم فم مَنْ أراد أن يعرفه.

ـ ما يدريك؟ كمم فمك عن قول الشعر، وأعطاك شيئاً آخر أهم من الشعر: العقل.

ـ مَنْ قال إن العقل أهم من الشعر. أنا أختنق فلا ينقذني العقل.

ـ العقلاء قالوا. وأنت لم تبلغ حكمتهم لأن شيطان الصبا ما زال يجري في دمك. ها. . ها. .

ـ العقل صخرة والشعر فراشة، عصفور يخرق الفضاء. العقل يدبّ على الأرض ولا يرى أبعد من أنفه، أمّا الشعر فيحلّق بعيداً في الفضاء.

ـ ومَنْ قال لك أن اللّه يريدك أن تحلّق بعيداً. لو أراد ذلك لخلقك طيراً.

ـ ولكنّي أحسّ أني لن أعرف شيئاً إذا لم أحلّق بعيداً.

ـ هذا هو الوسواس.

هيمن السكون. تصنّتا للاستمتاع بأنفاس ذي الجلال. أنصتت النجوم أيضاً. كانا يستلقيان على ظهريهما فوق الرابية. في الوادي السفلي انتشرت أشباح الإبل. بعضها برك وانهمك يجترّ، وفريق آخر سعى بين الأشجار وواصل التزود بالغذاء لتخزينه لزمن المحنة، كأنه أدرك سرّ الصحراء التي تخفي الجفاف وتتوعد بالقحط إذا جادت بربيع وفير قبل الأوان.

قال آدّه:

ـ لا أعرف كيف يولد الفتى صحراوياً ولا يبحث عن سرّ الصحراء. تبدو مكشوفة، عارية، حاسرة الرأس والبدن، ولكنها تخفي دنيا لا تخفيها الأدغال أو المدن. وأنا لا أظن أن شيئاً يمكن أن يذيب حجابها المصنوع

من الصخر أو الحديد غير الشعر. فماذا تظن؟

ـ السرّ يكمن في أنها سرّ. وما تتحدث عنه طبيعة كل سرّ.

ـ إنها كالسراب.

ـ لون الماء من لـون الإناء. من أين جـاء السراب؟ إنـه ظلّها، لعبتهـا. ابنها الشرعي.

ـ أُراهن أنك حاولت أيضاً أن تقول الشعر؟.

ـ ها. . ها. . ومَنْ منّا لم يحاول أن يفعل؟ كل صحراوي يولـد من بطن أمّـه ظامئاً للشعر. ولكن المصيـر تقـرره الأرض. الصحـراء. تهب الشعـر للبعض، وتهب العقل للفئة الأُخرى.

ـ تهب الشعر للمكابرين كي يقتنصوا به قلوب الصبايـا، وتترك مَنْ يـريد أن يكشف سرّها للشقاء.

ـ تتركك لهـذا السبب. لأنها تعـرف أنك لا تـريد أن تلهـو به مثـل باقي البلهاء، لأنها تعرف نواياك. مَنْ قال لك أنها تريد أن تعرف سرّها؟.

سكت آدّه طويلاً. راقب النجـوم حتى سمع أنفـاس خميدو تنتـظم. ظنّ أنه نعس. انتصف الليل. سأل آدّه:

ـ هل نمت؟.

تمتم خميدو بصوت مَنْ يحلم:

ـ لا.

ـ الحق أني أردت أن أُحـدثك عن شيء آخـر. لم أشـأ أن أتحـدث عن الشعر.

ـ أعرف أنك كنت تريد أن تتحدث عن شيء آخر.

ـ أنت تعرف كل شيء. . .

- . . . . .

- هل تذكر ما قلته لي عن عبادة المرأة للكذب؟.

- . . . . .

- لقد عرفت سرّاً آخر. إنها لا تحتاج من الرجل إلى الكذب وحده وإنّما إلى الذهب أيضاً.

- وما هو الذهب إنْ لم يكن أكبر كذبة في تاريخ الصحراء؟ يلمع كالسراب ولا يجلب سوى النحس.

- تاناد تنازلت عنّي مقابل حفنة من تراب التبر. هل تصدّق؟

- ولماذا عليَّ ألاّ أُصدّق؟ وضع الشيطان التّبر في يد الرجال كي يخطفوا به قلوب النساء. الذهب، مثل الكذب، ابتدع خصيصاً كي يشبع شهوتهن.

رفع رأسه مسنداً ظهره على مرفقيه، تفقّد الفراغ الليلي المرصع بعناقيد النجوم ثم عاد واستلقى وتابع:

- لا أستثني في هذا حتى نساء قبيلتنا. يتزيَّن بالمعدن المقطوع من وجه القمر في حين أودعن قلوبهن في المعدن الآخر. معدن الكذب والسراب والغواية. لا تصدّق أنهن سلمن في التبر لمجرد أن عهداً قطعه الأسلاف قضى بتحريم التعامل به بين الأحفاد. أنا لن أُصدّق..

- ما يحيّرني أنك تعرف كل شيء، حتى ما يدور في النفوس.

ولكن خميدو مضى يقرأ الرؤيا في النجوم:

- .. ولولا خوفهن من أشباح الأسلاف (الخوف من أرواح الأموات وليس من الجن ولا من زعيم القبيلة) لقمن بمقايضة أولادهن مقابل الحصول على قطعة واحدة من معدن السراب.

- يا حفيظ!.

- .. برغم التحريم أعرف نساء كثيرات في قبيلتنا قمن بجهد مشبوه للحصول عليه سرّاً.

تـذكَّر آدّه جـدّته التي دفعت حيـاتها ثمنـاً لخطأ الخلط بين لـون الذهب وحلقة النحاس. تابع نجماً هوى غرباً فقرأ تعويذة قديمة.

تمتم كأنه يذيع سرّاً عزيزاً:

ـ سمعت جدتي تقول، نقلاً عن آنهي، ان المجوسي ليس مَنْ عبـد اللّه في الحجر ولكن مَنْ أشرك في حبّه الذهب.

ـ آنهي كشف كل شيء، وقد ضعنا يوم ضاع.

ـ ما زلنا نستنير بما بقي منه في صدور المعمِّرين.

بثَّ خميدو شكواه للنجوم:

ـ لـو لم يضع لهـدانا إلى النعيم مثـل أسلافنـا القدمـاء. ولكن يُقـال إن عداوته لمعدن إبليس كانت لعنة عليه. اشتبـه على الدهمـاء وظنّوه «كتـاب الكنوز». تخاطفوه فمزّقوه كما تُمزِّق الوحوش الجائعة ضحية طـائشة. قيـل إن النهم بلغ ببعضهم حـداً ابتـلع فيه الصفحـات المختطفـة ظنّـاً منـه أنـه يستطيع أن يتقيأها عندما يختلي بنفسه لينال بهـا حصته من كنـوز الصحراء. الذهب أعماهم فقضى جشعهم على كتاب الصراط.

ـ ولكني سمعت رواية تقول إن سيلاً مارداً قد غدر به وجرفه.

ـ لا تسمع المبررات. هذه روايات يرددها أحفاد مَنْ في نفـوسهم حنين إلى المعدن المشئوم.

ـ هل تريد أن ترجع سبب شقاء الصحراوي إلى ضياع الكتاب وحده؟

ـ الحق أنـه السبب الثاني. السبب الأول يـرجع إلى لقمـة الحـرام التي أجبرت السلطان أن يطرد جدنا القديم من «واو». كما ترى فإن الشقاء عائـد إلى سببين مختلفين ولكنهمـا يتـوحَّـدان في الضيـاع: ضيـاعنـا من «واو»، وضياع كتاب الهداية من أيـدينا. والنتيجـة تنتهي في اتجاهين مختلفين تشبـه انقطاع حبل بإنسان يهبط في هاوية بـلا قاع: ضعنـا في الماضي، وأضعنـا

المستقبل. كالمسافر الصحراوي تماماً الذي أضاع الصراط ووجد نفسه في المتاهة الخالدة. تستوي السماء والأرض وتلتقيان في الأُفق، وليس هناك أي إشارة إلى بداية أو إلى نهاية. هذا حالنا. نحن مسافرون، كلنا مسافرون، أضعنا الطريق إلى الواحة التي جئنا منها، وفقدنا، بسبب حمقنا وجشعنا، الطريق إلى الواحة التي نسعى إليها. هذا قدر الصحراوي.

هوى نجم آخر. ولكن آدّه انشغل بمتابعة المتاهة القاسية التي رسمها خميدو فنسي أن يقرأ التعويذة القديمة. تمتم كالطفل:

ـ هذا ما كنت أُريد أن أصل إليه بالشعر. السبيل الذي لا يبدأ ولا ينتهي. وضع المخلوق الذي يتشبث بحبل مقطوع، يهوي في ظلمة بئر بلا قاع. ماذا يمكن أن يحسّ هذا الإنسان غير الضياع؟ عبثاً تهوي النجوم لتدلنا على الطريق، أو لتحفر لنا بئراً، لأن ذلك لا يكفي لينقذنا من الضياع الخالد. ما أقسى ألاّ تعرف، يا خميدو، من أين جئت وإلى أين تذهب؟! هل تظن باللّه أن الشعر سوف يعجز عن كسر هذا الباب البشع؟.

ـ لا أظن أنه يستطيع أن يفعل شيئاً. فليس كل الفتيان الذين يقولون الشعر عابثين أو مستهترين بحيث يسخّرونه لغزل البنات وتحطيم قلوب العذراوات، ولكني سمعت أن الكثيرين حاولوا أن يصنعوا منه بلطة أقبح لكسر الباب البشع، فماذا كانت النتيجة؟ أحدهم شنق نفسه في نخلة، وآخر كلّف عبده فخنقه، وثالث جنّ وتاه في الخلاء مكشوف الرأس وقد ترك لعابه يتدلى من شفتيه، وزمالته من رقبته. نصيحتي أن تترك هذا الباب موصداً ولا تقترب منه أبداً لا بالشعر ولا بأي حماقة أُخرى.

أنصتا للصمت والصحراء فأنصت لهما الصمت وانضمت إليه الصحراء. علّق آدّه:

ـ تفعل ذلك مع الزهّاد وحدهم لأنهم يعرفون كيف يتحلون بالتأني والصبر، أما الطمّاع فإنها تعده بكل شيء ولا ينال في النهاية شيئاً. يا ربي كم تكره الصحراء كل إنسي طمّاع اندلق السراب تحت قدميه وتغمز له

بالعين اللعوب وتقول: تقدّم إذا أردت أن ترتوي من الظمأ! ترسم له في الأفق نهاية المطاف وتغمز بعينها وتقول: تقدّم إذا أردت أن تبلغ الواحة قبل حلول المغيب! تنثر الغبار في الفضاء وتخرقه بسهام من شعاع مسعور وتغمز بعين الدهاء وتقول للطمّاع: تقدم إذا أردت أن تنال التبر! ها.. ها... يتقدّم ليرتوي فيبتعد السراب. يجري ليبلغ الواحة قبل حلول المغيب فيركض الأفق إلى مالا نهاية. يقفز في الهواء ليحصل على التبر فيمسك بالهواء الفارغ وذرات الرمل!.

أكمل آدّه كأنه يرتل نشيداً من آنهي المفقود:

ـ ... وتحنو على زاهد لا يبغي من الدنيا إلّا العبور. إذا نال شيئاً باليد اليمنى أعطاه باليسرى. إذا بلغ واحة عبرها إلى الناحية الأخرى. إذا وجد نبعاً اكتفى بالارتواء ولم يتزوّد منه حتى بقربة ماء. يقود جملاً ضامراً من رسن ويمشي مترجلاً وقد نسي أن يتخذه مطية. ولكن العابر ينهار أمام كنز آخر تحسده فيه الملائكة. فإذا نزل وادياً أزهر فيه الرَّتم أناخ جمله وركع أمام شجرة الفردوس. يراقب البرعم الصغير، مثل حبة قمح، الناصع مثل الفقع و.. يبكي.. يبكي لأنه أحس بالوجد ووجد الجنة. يرحل ويعتلي الحمادة ليجد كنزاً آخر: ترفاسة كامنة، خفية، وقد شقت الأرض الطينية بقلاعها. فإذا كانت جبأة فإن رائحتها وحدها تعيده خلف الأسوار، في النقطة التي ابتدأ بها الماضي، في أصل الصراط الأول، وتقوده إلى الأمام، عبر سحب الغيب، ليرى، في ومضة أقصر من وميض برق، نهاية المطاف في المجهول. ولأن الكشف كله لا يدوم سوى لحظة كالوهم فلا بدّ أن يفيض الحنين في قلب العابر. يسقط على الأرض ويتلوّى طويلاً. يبكي طويلاً، ولكن إيماءة البراءة، إشارة البكارة، وميض الحقيقة، يفلت كالضياء، كالروح عندما تتحرر من البدن، لتطير، في رحلة العودة إلى الأصل. فهل تشك، يا خميدو، أن العابر يمكن أن يطلب شيئاً أكثر من تلك اللحظة السماوية؟

لم يجب خميدو. انتظمت أنفاسه مرة أُخرى. ولكن آدّه لم يكرر السؤال.

مضت سنوات أُخرى، فوجد آدّه نفسه يمثل في حضرة الزعيم من جديد، ليجد له قرابة بزعيم «اوراغن» هذه المرة. إذ تقاتل حماة القوافل من القبيلتين، وتبارز اثنان منهما بالسيوف وأُصيبا بجراح. توترت العلاقة بين القبيلتين وجاء دور صوت اللّه في صدور الزعماء والعقلاء. حالفه الحظ أن يوقف النزيف مرات كثيرة، ووفقه اللّه في نهاية المطاف ففاز بفتاة رضيت به زوجاً دون أن يدفع قصائد الشعر مهراً لها. تخلّى عن سذاجة الفتيان ودرّب نفسه، بالطبع، فلفّق في أُذنيها ما هو أفظع من قصائد الشعر الحمقاء. قال لها أشياء كثيرة، خيالية، منها، على سبيل المثال، أنه سيغزو الأدغال ويقتل الكهنة والمجوس ليعود لها بقافلة من السبايا والعبيد ليقوموا على خدمتها، وسيسافر إلى «تينبكتو» ويشتري لها شوالاً من المصوغات الذهبية والفضية. بإمكانها أن تلبس حلي الفضة لتتباهى أمام الصبايا، أما الذهب فسوف تخفيه في صندوقها الخشبي المخبأ في الهودج، عند زاوية الخباء، لتتفاخر به أمام الجنيات في الليالي الظلماء. والنوق.. سطّر أساطير عن النوق مستعيراً أُسلوب جدّته، ومنافساً الشعراء في نظم قصائد الشعر.

ادّعى أن جدّه أورثه وادياً في تاسيلي يجري فيه الماء بلا توقف، وهناك، على ضفتي هذا الوادي العجيب ترعى مائة ناقة يشرف عليها ستة وخمسون عبداً، ولم يعرف بنفسه لماذا اختار هذا الرقم الميت الخالي من السحر. قال خرافات كثيرة، و.. اكتشف لدهشته الشديدة، أن الفتاة كانت قد صدقت كل حرف نطق به، فهامت، طارت في السماوات، وهوت في العشق. وجد نفسه يكذب، ووجد أن حبال الكذب تلتف حول رقبة الصبية لتصرعها أرضاً.

تزوّج فجاء الضجر بعد زمن قصير. افترسه الخواء القاتل الذي ذاق مرارته كل مَنْ بحث عن الأشياء الحقيقية في الصحراء: «واو، آنهي، و..

الله». الخواء الفظيع الذي ينجم عن معاشرة المرأة بالذات.

وبرغم ما يقوله المعمَّرون دائماً من وجوب تشبث الشباب بتلك الأشياء التي ستنهبها منهم الشيخوخة يوماً، وبرغم يقينه بأنهم يوحون عن تجاربهم، إلاّ أنه أدرك أن الرجل الحقيقي لا بدَّ أن يفرغ، يوماً، من النساء. من أسطورة النساء. وإذا لم يفعل طائعاً اليوم، فإن الشيخوخة، الوحش القادم، سوف تجبره أن يسلِّم أسلحته. وأنْ يسلِّم أسلحته طائعاً الآن، أهون من أن يسلمها، مجبوراً، في الغد البائس.

ثم إنَّ عقيدة خفيَّة بدأت تتكوَّن فيه خلال تلك الأيام. عقيدة سمّاها فيما بعد بـ «التخلّي» و«العبور»، فاستوحى منها أن التخلّي عن الأشياء الحميمة، كالمرأة، في الصبا أحكم وأخف وقعاً من فقدانها، غصباً، بالطبيعة، بغول الشيخوخة. هيأ نفسه للمصير وقرر أن يبدأ في قطع الحبل الذي يمنعه من التخلّي والعبور. دخل عليها ونفى لها كل الأكاذيب التي لفّقها. انتظر أن تثور وتبكي وتلعن، ولكنه فوجىء بأنها تعرف الكذبة من أساسها.

قالت ساخرة:

ـ هل ظننت أنّي طفلة؟ إننا أول ما نتعلم من أُمهاتنا أن نصدّق كذب الرجال. لأن الرجل بلا كذب كبيض مسلوق بلا ملح. إننا نحاكي الحياة، وهي كذبة أكبر من أكاذيب كل رجال الصحراء.

غمره عرق الحياء. تسلل من الخباء ولم يرها، بعد ذلك، أبداً.

تخلّى عن المرأة لأنه خاف أن يأخذها منه غول الشيخوخة بالقوّة.

(٥)

.. فهل يستطيع رجل صحراوي تجرّد طائعاً من حمّى الشهوة في تلك السنّ المبكرة، ودرّبه جلالة الزعيم نفسه على إيقاظ الضمائر في صدور شيوخ القبائل المتخاصمة، أن ينجو من منصب الزعامة بهذه السهولة؟

عندما توفي الزعيم القديم عن عمر تجاوز المائة بسنوات (البعض حدده بسبع سنوات بعد المائة، في حين اتهم بعض العقلاء هذا الفريق بالتساهل في الرقم الحقيقي بسبب الولع بالأرقام السحرية ونفوا، وهم يضربون كفّاً بكف، أن يستطيع أحد ممَّنْ هم على قيد الحياة أن يعطي الرقم الصحيح لأن الزعيم المتوفي تجاوز المائة والسبع سنوات بكثير) كان آدّه يسرح في الحمادة، معتزلاً لا يخالط سوى الإبل والجن ودواب البرية. يصوم عن الطعام أسابيع ليفطر على الأعشاب الصحراوية وثمار الشجر البري. يسكت عن الكلام شهوراً ولا يفتح فمه للنطق إلاّ إشارة لنهر جمل هائج أثار النزاع وأراد أن يفتك بأقرانه الضعفاء غيرةً على الناقة الهيفاء. أما قراءة التعاويذ والآيات فلم تدخل يوماً في حساب الكلام. جاء دوره فأصيب بحمّى الحنين إلى «واو».

استعاد أساطير الجدة حول الواحة المفقودة. راقب الأشباح وأنصت لهمهمات عتاة الجن في كهوف الجبال المعممة بالأقنعة الزرقاء. تذكر أيضاً المطاردة المحمومة وراء قطعة النحس ونهاية الجدّة الفاجعة، و. . راقب السراب وهو يشعل ناراً فضية فوق الرابية قبل أن يحترق في ألسنتها رجال الوفد الذين أرسلهم إليه مجلس الشيوخ. أخبروا أن غياب وريث شرعي أدّى إلى خلاف في اختيار خليفة للزعيم المرحوم.

وقالوا: «أنت فزت بثقة من الزعيم حجبها حتى عن أعوانه. كلَّفك بفضٍّ الخصومات لما تتمتع به من عقل وتدبير، وقبولك للمنصب سيدفن خصومات أسوأ داخل القبيلة الواحدة».

قال: «ومتى كان عرف الصحراء يسمح بأن يقرع طبلَ الزعامة رجلٌ في سنّي؟». أجابوا: «أنت فزت بثقة المرحوم وهذه تزكية تكفي». فاضطر أن يستخدم لغة الدراويش: «وهل يصلح للزعامة مَنْ أصيب بمرض الحنين؟».

مضى في طريقه بحثاً عن «واو»، وتعاركت عشائر القبيلة حول خليفة للزعيم طوال شهور. انتهوا إلى القبول برجل شهواني في عصمته أربع

زوجات وعدد من الخليلات السبايا اللاتي يترددن على خيمته في الظلمات بمجرد أن يسمعن أن خلافاً نشب بينه وبين إحدى الزوجات. فرضته عشيرته بالتحالف مع عشيرة أُخرى. ولم يمض على توليه تسعة أشهر حتى وصل إلى آدّه خبر يقول إنه وُجد ميتاً في خيمته. قيل إن إحدى الخليلات دست له السمّ في الطعام، وفي قول آخر إن ذلك حدث بمكيدة من الزوجات. ولكن لم يفت الحكماء أن يبرئوا ساحة المحظيات وكذلك الزوجات ويعيدوا الأسباب إلى أصلها.

بعثوا في أثره خميدو فعرف كيف يهتدي إليه في الجزء الشمالي المقطوع من صحراء الحمادة. كان يفكر جديّاً في العبور إلى واحات جبل نفوسة لتلقي أُصول الدّين على أيدي شيوخ الطرق الصوفية ظنّاً منه أن ذلك سيكسر الباب الحجري الذي ظن، في الماضي، أنه يستطيع أن يكسره بالشعر. ولكن الثعلب خميدو عرف كيف يجرّه إلى ربوع القبيلة مرة أُخرى لإنقاذها من الشتات. بدأ من النهاية فقال:

ـ انقسمت العشائر إلى ثلاثة أطراف. إذا لم تقبل القيادة فإن الأمر لن ينتهي بها إلى القطيعة فقط وإنما إلى العداوة.

اضطر أن يركع. وعرف، فيما بعد، أن النّبل هو أن تتخلّى عن السعادة وترجع حتى عن الطريق إلى «واو»، استجابة لنداء سماوي آخر اسمه: الواجب.

وجد نفسه، مجبوراً، في موقف مَنْ يقايض الدَّيْن بالدِّين.

(٦)

المسيرة الطويلة تجبر الإنسان أن يتنازل عن طموحات كثيرة وينسى غايات أُخرى، ولا يبقى سوى الإشارات، الإيماءات، العلامات الأولى. الحنين لتلقي أصول الدِّين، بقي، كما بقِي الموقف من الذهب زمن الطفولة. فجيعة الجدّة ارتبطت بشيطان التبر، والطريق إلى «واو» ارتبط

بالأمل الفاشل في تلقي علوم الدِّين على يد دراويش جبل نفوسة. وهذا الحنين القديم هو الذي شجعه على إقناع شيخ الطريقة القادرية في البقاء وتنوير عقل القبيلة بشعاع الإيمان الصحيح في زمان عانت فيه الصحراء الكبرى كلها من الدراويش المزيفين والفقهاء المرتزقة على حساب الدِّين إلى حدٍّ فقدت فيه قبائل كثيرة الهوية وانحرفت عن الصراط وأصبح الإسلام مهدداً بأن يعود غريباً كما تنبأ له الرسول ذات يوم.

ولولا الردَّة التي بدأت في تينبكتو وتحريف التعاليم الذي تعرّض له الإسلام بتأثير المجوس وأذنابهم ممَّنْ اتخذ من التِّبر إلَهاً جديداً لما تجرأ هؤلاء اللصوص بالدخول إلى الصحراء تحت ستار الفقه حيناً، وبذريعة التحريض، الواجب على كل مسلم، للعودة للأصول والاحتكام إلى المنبع القرآني حيناً آخر. استمر هبوب ريح التحريف من الجنوب مع حركة التجارة وتحرك القبلي، فتضاءل حَفَظَةَ النصوص القرآنية فتدهور الحَكَمْ الديني في حياة النَّاس. استغلَّ الحواة والمرتزقة الفرصة فاتخذوه وسيلة للتعيش والكسب وغش الصحراويين الباحثين عن الحقيقة. حقيقة الصحراء والحياة والواحة الضائعة. توغّلوا في القارة العارية مرافقين لقوافل الجمال، وجاءوا فرادى أيضاً على ظهور الحمير والبغال، بل إن الميسورين منهم وصلوا يمتطون صهوات الخيول، في حين بلغ الفقراء، الذين قرروا الانخراط في الارتزاق تواً، منتجعات القبائل مشياً على أقدام حافية، دامية، سلختها حجارة الطريق الطويل. أقبلوا من الجهات الأربع: من فاس ومراكش والقيروان. من زليطن وتوات وبلاد شنقيط. وكذلك من الصحراء الشرقية، عبر زويلة ومرزق. يضربون دفوف الحضرة، يحرقون البخور، يزأرون كسباع الغابات، يطعنون بعضهم بالسكاكين ويبصقون في أفواه البسطاء ليملأوا أرواحهم بالطهر والبركة دون أن يخطر ببال البلهاء أن الضجة كلها مجرد حيلة للفوز في آخر الليل بوليمة فاخرة تحضرها القبيلة على شرف الأولياء. في الصباح يكشف اللصوص عن الوجه البشع ليبدأوا النهب العلني. يأخذون النوق والجديان والزكاة وحلي النساء الفضية وحتى

لباس النبلاء وأدوات الحروب. كل ذلك يحدث باسم الرسول والصحابة وسيدي عبد القادر الجيلاني، مقابل دعاء أو حجاب مزيف مدوّن في وريقة صفراء متآكلة الأطراف، يدسها الصحراويون في جلد غزال كي يحموها من التلف، ولا يخطر ببال أحد أن فعالية التعويذة مستمدّة من غلاف الجلد وليس من الوريقة الصفراء.

أخطر فئات اللصوص في تاريخ الصحراء جاءت متخفية في ثياب الزهّاد الذين جاؤوا من مراكش وفاس ومكناس. يرتدون الجبب الصوفية الخشنة التي تشابه الغرائر في قسوتها وسمكها وخشونتها. يحملون خرائط سرية مختومة على جلود حيوانات مختلفة: ودّان، غزلان، جمال، جاموس بري، و... حتى الحيّات والثعابين. يأتون بخبرة مدهشة بنفوس أهل الصحراء. يرفضون الولائم، ولا يأكلون اللحم، ويكتفون بالعيش على خبز الشعير المحمص في الرمل. يقرأون القرآن طوال الليل ويتطوعون في الصباح لتعليم الكبار فروض الصلاة. يكسبون ثقة الأهالي فينصبون لهم خباء خاصّاً لتعليم الصبيان، وحتى الصبايا أحياناً، القرآن وأصول الدّين دون أن يخطر ببال أحد أن أولئك الدهاة إنما جاؤوا ليبحثوا عن مواقع الكنوز بالخرائط المدسوسة في أحزمتهم، وتطوعوا لتعليم الصغار ليبحثوا في عيونهم البريئة عن تلك النقطة الساحرة التي يرى فيها هؤلاء الوحوش إشارة إلّهية، أو إيماءة طبعها الجان، تفكّ الطلسم وتحمي الكنز من التفسخ إذا استطاعوا أن يقدموا الولد قرباناً لحماة الكنز. وقد اختفى أولاد كثيرون، واختفت معهم كنوز كثيرة. وكان بالإمكان أن يرجع أهل الصحراء أمر اختفاء الأولاد إلى جيرانهم الجن كما تعودوا أن يفعلوا عبر آلاف السنين، وكان بالإمكان أن تظل عملية نهب الكنوز سرّاً أبدياً خاصة وأنهم يهربون من بقايا الأسلاف ورماد الأقدمين كما يهربون من الوباء، ولكن اختفاء الزهّاد هو الذي أثار شكوكهم. ولم يكن صعباً أن يكتشفوا آثار القرابين ورمم العظام ليعرفوا أن النسّاك الثقاة ما هم إلّا أبالسة جاؤوا من جهنم نفسها متنكرين في ثياب الدروشة والزهد.

أمّا الأحجبة فقد حصل آدّه مرة على ورقة مطوية من فقيه عابر مقابل جدع من سلالة بلقاء. صحيح أن الحيوان الصغير لم يرث اللون المبقّع الآسر من السلالة ولكن انتماءه لهذا الأصل النبيل وحده يكفي كي يرفع من شأنه ليس بين الرعاة والخبراء والأقران وإنما بين صبايا النجوع والقبائل الأخرى أيضاً. جاء الفقيه ووضع اقتناءه شرطاً للتعويذة فاضطر آدّه أن يتنازل عنه. فتح الورقة المطوية فوجد بداخلها خطوطاً مشبوهة لا تشبه الكتابة العربية. حروفها أقرب إلى رموز «تيفيناغ» من آيات القرآن المسطرة في المصاحف. شك في الأمر وعرضها على شيخ يعرفه في واحة «آدرار». فتح الشيخ الطيّة وبسط القرطاس وغرق في الضحك. ضحك هستيري لا يليق بشيخ وقور مثله. ضحك طويلاً حتى دمعت عيناه. اعتدل في جلسته واستغفر اللّه ولعن شياطين الإنس والجان وقال: «هذه ليست تعويذة ولا كتابة. فقيهك يجهل الكتابة».

منذ ذلك اليوم عرف آدّه أن الغش لا يقتصر على الكيل والميزان فقط ولكنه يتجاوز أبعد الحدود ليتطاول على الدّين نفسه. تحصّن بالحذر في معاملة الفقهاء وشيوخ الطرق طوال السنوات الأولى لتوليه أمر القبيلة ولكن شيخ الطريقة القادرية استطاع أن يخدعه بسلاح بسيط هو: الحرية! ويبدو أنه مكث دهراً وهو يقرأ في نفوس الصحراويين ليصل إلى نقطة الضعف الخفيَّة، ليكتشف الكنز البعيد الذي يفوق كل كنوز الصحراء بعداً: عشق الحرية. ويبدو أنه رَصَدَ، في جولاته، أن الحنين المَرَضي إلى «واو» ما هو إلّا مظهر آخر، باطني، من مظاهر العشق، فقرر أن يسدد ضربته، ويبدأ من هذه النقطة.

نادى بهذه الفلسفة منذ الأيام الأولى لوصوله وركّز على العشق الإلّهي كنهج وحيد للخلاص. ولم يجد صعوبة في إقناع الناس ليس بسبب ما يتمتع به مواهب في التنكر. ولكن لأن العشق هو حجر الزاوية في كل الطرق الصوفية التي دخلت الصحراء. كما لم يجد صعوبة أيضاً في إرجاع كل الصراعات الروحية والأمراض الوجدانية التي عانى منها الصحراويون على مرِّ التاريخ (كالحنين إلى «واو»، وحالات الاعتزال والصيام الطويل،

والجذب الناجم عن جمال الغناء أو الوجد الناتج عن الوله، وحتى عادة الإنصات للسكون) إلى مبدأ العشق.

من هنا بدأ حربه على البدع بالأوراد والمدائح النبوية. حرَّم إرواء المجذوب الولهان بغناء المعشوقة الأرضية واستبدله بترانيم العشق السماوي. منع علاج الوجد بالشعر الملحون والرقص ووصف هذه الطريقة بأنها رِجْس من عمل الشياطين ومجوس الأدغال السوداء. وابتكر العلاج بآيات الله المرتلة. وكان أوّل من نبَّه إلى أن الفردوس المفقود ليس في «واو» ولكنه في قلب المؤمن. باختصار فإن ذلك الرجل الوقور، ذو اللحية الكثيفة البيضاء الموسومة بشعيرات رقيقة صفراء، بدا للشيخ آدّه ولغيره من العقلاء، مصلحاً دينياً حقيقياً يمكن الاعتماد عليه في تحصين الدين وحماية القبيلة من زحف دين المجوس. وباختصار أيضاً كان يتقن عمله، ويتمتع ببراعة تنافس ثعالب الأساطير. ولا يستطيع الزعيم حتى اليوم مقاومة إحساس خفي يوسوس له بصدق نواياه، ويمضي الوسواس إلى حد يحدد فيه الحقيقة المؤلمة التي حاول الشيخ أن يتجاهلها دائماً وتقول: «ليس الإنسان الذي يصل إلى زعامة القبيلة فاسداً في أصله، ولكن الفساد يكمن في الكرسي المشيَّد من تراب، في المكان الذي يجلس عليه». يحاول أن يطرد الهاجس الخفي لأن صوتاً آخر يرتفع قائلاً إنه يحاول، بهذه الحكمة، أن يجد مبرراً لشيخ الطريقة لاحُبّاً للحقيقة ولكن لتبرير الهزيمة التي مُني بها على يديه. وما زال هذان الصوتان المتنافران يتقاتلان في قلبه حتى اليوم.

ولكن انسحابه في تلك السنوات لم يكن هزيمة. ولا يدري أحد أن ذلك الانسحاب كان أمرّ من أقسى الهزائم. لماذا؟ لأنه رأى أن الخيانة لم تكن خيانة شيخ الطريقة، وإنما خيانة النّاس الذين أحبهم وضحّى في سبيلهم بعزلته في الحَمَادة الشمالية ونيته في تعلّم الحقيقة وأصول الدين. ومضى زمن، بالطّبع، قبل أن يعرف أن الناس مجرد قطيع من الأغنام البائسة تمشي خلف الراعي الذي يستدرجها بحزمة عشب، ولا تكلّف

نفسها عادة عناء التساؤل عن نوايا هـذا الراعي، ولا تعـرف أنه لن يقـودها، يقيناً، إلى مراعي الكلأ ما دام يتحـايل عليهـا بربـطة عشب. الراعي الـذي يغـوي القطيـع بهذه الحيلة يقـوده، عادة، إلى المـذبـح. ولكن هيهـات أن تفهم الأغنام المسكينة قبـل أن ترى السكين. وقـد قام شيـخ القادريـة بدور هذا الراعي، ربما من حيث لا يدري. لأنه لا يستطيـع أن يتهمه بسـوء النية طـالما كـان الفساد كـامناً في خبـاء المشيخة نفسـه كما يـروق للوسواس أن يحـدِّثه سـاعات الخلوة في ظـل العشية. بـل إن هذه الغفلة، هـذا الفسـاد المزروع في «المكان»، هو أسوأ مـا في الأمر كله. خـوفه من هـذا الشبح، هذا الغول، غول الفساد المدسوس في بيت الزعامة، هو الذي فرض عليـه أن يبحث عن النجاة في الإمساك بالعصا من الوسط، ظانّـاً أن العقل وحـده يستطيع أن يقهر الطبيعة الخبيثة التي تتخبَّأ في الحكم.

(٧)

المنفى هو ما لم يغفره لشيخ الطريقة القادرية. رغم أنـه انسحب طائعـاً إلاّ أن الـوضـع الاستفـزازي الـذي خلقــه الشيـخ في القبيلة فـرض عليـه الانسحاب ليس لحفظ ماء الوجه، كمـا ادّعت ألسنة السـوء، وإنما ليعـطي للنـاس حقهم الكامـل في ممارسـة الاختيـار، رغم معـارضـة العقـلاء، من جهــة، ولكي يتمكَّن من أن يخلو إلى نفســه بعيــداً، في الحَمَــادة، ليتمتـع بالاعتزال والسكون، من جهة أخرى. وأغرب مـا في الأمر أنـه لم يفكر في عبـور الحمادة إلى الجبـل كي يحيي الحلم القديم ويستعيـد طلب الحقيقة في تلقي علوم الدّين. ربما لأن سدّة الحكم حفرت في نفسـه اخدوداً محـا كل أثر للجموح المبكِّر الذي ميَّز كل صحراوي يافع.

صحيح أن عبئاً أزيح، وسلاسل تحطمت، ولكن هـل يستطيـع أن يتمتع بـالحريـة مخلوق تخلّى عن الأصفاد ليـراها تـطوق أعناق الغيـر؟ ليس الغير وإنما قبيلته، أهله؟

فكَّر طويلاً في هذا اللغز القَدَري عنـدما رحـل من النجع، يـرافقه أحـد

الأتباع وثلاثة من العبيد. وحتى عندما اقترح عليه بوبو، رفيقه من قبيلة الأتباع، أن ينتهز الفرصة ويجمّع إبله المشتتة في شتى البقاع، ورأى أن يمرّوا على «دنبابة» ليتفقدوا قطيعاً من الجمال أخبر عابرون أنهم شاهدوه هناك، طار فكر الشيخ إلى القيد، إلى المُلْكية، إلى المتاع والأوزار. وقال له الوحي الخفي أن القيد شيطاني بطبيعته، يروق له أن يتسلل من عقال ناقة، ويدخل في عبِّ المتاع ليصبح وتداً، وكلما تجمّع وتكاثر توطّد الوتد وازداد غوصاً في الأرض. الوحي الغامض استعار دور جنّ سليمان الحكيم فرسم له القيّامة في رمشة: سيعرِّج على «دنبابة»، وقد يعبر إلى الرملة، لأن الإبل التي شوهدت في موقع منذ شهر سوف تُشَاهد في موقع آخر يبعد مسافة شهر دون أن يستطيع أي عابر سبيل أن يحدد الوجهة إلى حيث ستتجه الدّابة حتى لو كان خبيراً بسلوك الحيوان. ثم يتجه غرباً، أو شرقاً، للحاق بقطيع آخر شوهد في تلك النواحي، ثمَّ يضطر لأن يقسّم الأدوار. فيكلّف اثنين من العبيد بالتوجه إلى صحاري «مساك» في الجنوب، في حين يتولى هو، مع بوبو وأحد العبيد، تفقّد الإبل المشتتة في الحمادة والصحراء الغربية المتاخمة لـ «غدامس». يبدأ استنطاق الرعاة والرّحل والعابرين عن جمال تائهة، مهملة، طليقة، تحمل سيماء القبيلة، الإشارة السحرية القديمة المستوحاة من نصوص الكهنة المحفورة على الصخور [+]. تبدأ الرحلة، رحلة البحث والشقاء.

ولكن الرحلة لا تنتهي عند حدّ العثور على كامل القطيع. بعد العثور يبدأ الجرد، ثم الاعتناء بالرؤوس التي أصابها الجرب. يبدأ بحث آخر عن المراهم وخبراء داء الحيوان، وتبدأ، أيضاً، عناية من نوع آخر. العناية برؤوس أخرى بخلت عليها المراعي بالعشب. فيضطر أن ينزل إلى أقرب الواحات. إلى غدامس، أو آدرار، كي يقايض بعددٍ من الجمال أحزمة البرسيم المجفف، أو أكياس التبن، ليقيم بها أود الحيوانات المشرفة على الهلاك، حتى يرحم الله وينزل المطر. سينسى نفسه. سيفقد السكينة. وسيجد نفسه في هرجة أكبر من هرجة شيخ الطريقة وهو يتهيّأ لاقتناص

الحرية الموعودة ليقدمها قرباناً للأهالي وفاء بالوعد الذي قطعه على نفسه.
و.. سيعاني من الصداع والشقاء!.

هكذا تحدث وسواس الوحي.

سدّ أُذنيه بلثامه كي لا يسمع اقتراح بوبو، وصام عن الكلام حتى عبروا الشريط الرملي وتراءت قمم الجبال الملفوفة في العمامات الزرقاء.

(٨)

المنفى...

استمرّ شهوراً على ظنّه الطفولي بأنه هجر النَجْعَ طوعاً، حتى كشف له حديث عارض حقيقة الأمر. فبرغم عشقه القديم للحمادة واعتقاده السرّي، الذي أخفاه حتى عن خميدو، أنها هي الأرض البكر الأولى التي فازت ببركته تعالى، ففضأها واختلى فيها ليعجن من طينها قوام السلف الأوّل، إلاّ أن حنينه لأرض الكهوف والجدران الصخرية الموسومة بأساطير الأولين استيقظ وطغى. قاومه فاشتدّ، خنقه فاستبدّ. ولم يكن صعباً على مرافقيه أن يفهموا سرّ صمته الطويل وامتناعه عن تناول خبز الملاّل المصنوع من الشعير، وأرقه في الليالي. كما لم يكن صعباً على بوبو أن يفهم السرّ قبلهم. لأنه تعوّد أن يقرأ لغة الحنين إلى الأرض وميضاً غامضاً في العيون يفوق الحزن المعروف كثيراً. كما زوَّدته الخبرة الطويلة بهذا الصنف البائس من الناس في قبيلته المتنقلة بحيث يمكنه أن يقرأ الحنين أيضاً في تفاصيل أُخرى تبدو تافهة، كتقلب المزاج، والميل إلى العدوان، وتصرفات أُخرى تطرأ على سلوك المصاب بهذا المرض النبيل.

الحنين قدر الصحراوي الأوّل. والانتماء المزدوج هو الذي خلق منه قَدَراً. فيوم انفصل عن أمه الأرض بقوة الروح السماوية، الإلّهية، التي نفخت من نَفَسِها في كتلة الطين، كان عليه أن يعاني غربة مزدوجة. فهو نُفي من الفردوس السماوي وانفصل عن اللّه. نزل إلى الأرض ولكنه لم

يتحد بالصحراء، لم يفز بامتدادها وعرائها وحريتها. حلَّ في حفنة الطين قبل أن يبلغ الأصل الآخر، الأكبر، الأرحم، والأعظم: الصحراء. فظلّ المخلوق كائناً معلقاً بين السماء والأرض. البدن يسعى للعودة إلى وطنه الصحراء، والروح تحنُّ عشقاً لأن تتحرر من الحَبْس الأرضي وتطير إلى أصلها السماوي.

هنا قام مأزق الصحراوي. مأزق النزاع ببين السماوي، في كيانه، والأرضي. إذا استقرّ بعراء عدة أيام هتف به النداء الغامض لأن يطوي خيمته ويحمل أثقاله ويبدأ الرحيل. الرحيل الطويل إليه، إلى الأصل السماوي، إلى اللّه. فإذا طال السفر، وطارت الروح في الريح، احتجّ الجسد ونزف القلب حنيناً إلى الوطن، إلى الأم، إلى الأرض. يبدأ نداء الأرض، وتصرُّ الأم أن تأخذ حصتها من وليدها الضال. وحياة الصحراوي كلها هي نزاع بين الأرض والسماء، بين الأم والأب. كلاهما يدّعي لنفسه حقاً أكبر في الابن المشترك. الأم تقول إنها أعطت البدن، الوعاء، ولولاه لما استطاع آدم أن يكون. والأب يحاجج بأن الجزء الآخر، الباطني، الروحي، هو الذي وهب كوز التراب القدرة وبثَّ في النطفة الحياة، ولولاها لظلَّ كَوْماً بائساً من طين. فبدأ الشقاء من النزاع، من هذا الازدواج في الانتماء الذي لم يشارك المخلوق في صنعه. تتجاذبه القوتان فيتمزّق إلى نصفين، ويتألم ولا يملك الحق في أن يحتجَّ أو يلعن قساوة القدر. والصحراوي أكثر أبناء آدم إحساساً بقساوة هذا الازدواج في الخلق. فعبوره، وتجواله الخالد هو رحلة أبدية للبحث عن الحرية، والعودة إلى اللّه. والحنين المَرَضي، الذي يحاول أن يخفف من جذوته بأغاني «أساهغ» الشجنية، هو سعي للوطن الضائع، استغفار خجول بين يدي أمّ أضاعته لمجرد أنها ولدته في العراء، في الصحراء. هو، بعبارة شجاعة، حنين إلى الاستقرار. والاستقرار هو الكفن، الممهِّد الطبيعي للموت.

وبوبو يرصد الزعيم في تجواله ليرى في عينيه وميض الحنين إلى القبيلة، إلى الوطن المزعوم، إلى أرض الإلهات الحجرية وجبال

الأسـلاف، لا لأن الشيخ قـد تعب، ولكن لأن الإنسان لا بـدَّ أن يلبّي نداء الأرض يوماً ما حتى لو كان صحراوياً عابـراً يرفض البقـاء في أي أرض أكثر من أربعين يوماً. فتولَّد عن النزاع القديم بين الأب والأم، السماء والأرض، المصطلح القاسي، الجديد، المسمّى: المنفى.

ظلّ مثل السّوس ينخر في عظم الزعيم حتى قال في جلسة العشيّة تحت حماية السَدْرة:

ـ إذا كان عليّ أن أُجمِّع إبلي فعليَّ أن أبـدأ بتلك الهوامـل التائهـة التي شوهدت في «مساك ملّت».

رمقه بوبو، وصاح أكبر العبيد سنّاً:

ـ مساك ملت؟ ما أبعدها!.

قال بوجاهة غامضة:

ـ علَّمتنـا الصحـراء أن نبـدأ بـالهـدف الأبعـد إذا شئنـا أن نحقق الحـدّ الأدنى.

رشف جرعة الشاي إلى آخرها. والتفت إلى بوبو ليتفقّد ردّة الفعل. قال بوبو ببرود:

ـ رأيي من رأيـك الأوّل. لا أرى ضرورة لتجميـع القطيـع. مـا نفـع أن تصدِّع رأسك بمشكلة أُخرى في هذا الزمن الصعب؟

راقب السـراب وهو يتـراجع مـع انكسار الشمس متكئـاً على وسـادة من الحصى المخلوط بالتراب وحبّات الجلّ.

سكت فعلّق بوبو مستعيراً لغة القادرية:

ـ لا شيء في الحياة أثمن من السكينة وهدوء البال يا شيخنا.

أيَّده الزنجي العجوز بتنهيدة عَدَمية طويلة، وتمايل بعمامته الرمادية وهو يخلط الشاي.

أقلع الشيخ عن الهمِّ الدنيوي ثلاثة شهور أُخرى. خلالها لاحظ بوبو غياب عينيه في المحجرين، وبروز الوجنتين وشحوباً في الأجزاء المكشوفة من اللثام خاصة الوجنتين. كما ازداد اعتزالاً وصمتاً وكآبة على غير عادته في الأيام الأولى. فبرغم أن الخروج للحمادة كان جنازة من أساسه إلّا أنه لم يسمح للحزن أن يحرمه من مرحه النبيل وروح السخرية خاصة في الأمسيات التي يكتمل فيها البدر وتهبُّ النسمات الشمالية المشحونة برطوبة البحر. وسمح لنفسه في بعض الليالي بقهقهات عالية. فأرجع بوبو هذه الأريحية إلى رغبته في التحلّي بالشجاعة أمام هزيمة سلمية جاءته من حيث لا يدري.

وتذكَّر، مراراً، ما روي في «آنهي» أن الهزيمة الأقسى هي تلك التي تتخفّى في ثياب ورطة لا تملك حيلة لتفاديها، وهي حيلة داهية تدبِّرها الأقدار لكسر سيف المحارب الشجاع.

في ذلك اليوم، بعد انقضاء ثلاثة شهور تقريباً، أعلن عن قراره قبل الشروق، عندما تجمعوا، منذ الفجر، حول نار الشاي في وادي الرَّتم. قال بقطعية مفاجئة:

ـ احزموا الأمتعة. سنسافر إلى مساك.

فرّك بوبو يديه وعرضهما لدفء اللهب الصباحي. كان فصل الشتاء يحتضر ولكن البرد في الحَمَادة يتمادى في هذا الموسم، وخاصة في آخر الليل والساعات الأولى من الفجر. زقزقت العصافير في أحراش الرَّتم ورسم الفجر قبسه البكر في الأفق العاري. علّق بوبو ببرود:

ـ يدهشني أن تفعل ذلك يا شيخنا. ظننت أنك لن تفعل ذلك أبداً.

رمقه الشيخ بدهشة. تبادل العبيد النظرات في العتمة. مضى بوبو في وقاحته:

ـ أقترح أن تتخذ قراراً شجاعاً وتتراجع. لا أنصح أبداً بالرحيل إلى مساك في هذه الظروف.

هيمن صمت. ظلّ الزعيم مشدوهاً لحظات. ثم ابتسم فجأة وسأل:

ـ ما الذي حدث؟

ـ أنت تعرف أن شيخ القادرية يُعِدُّ لتأديب بني آوى هذه الأيام، وطريقه يمرّ من مساك. إنها مليئة برجاله، برجال القبيلة، وسوف تُفسَّر رحلتك إلى هناك بتحريض الأتباع على التمرّد، والعودة لحكم القبيلة.

ـ خرجت من «تارجا»(*) طائعاً، وقبلها جاء الشيخ إلى السهل واستقرّ بدعوة منّي، بتدبيري، ولست نادماً على ما فعل لأنه خلّصني من وِزْرٍ أجبِرت على حمله منذ زمن طويل حماية لهذه القبيلة الشقية من التشتت والتقاتل.

ـ هذا ما تقوله أنت، ولكن النّاس تقول شيئاً آخر يا شيخنا.

ـ سبحان اللّه. وماذا يمكن أن يقوله الناس الحمقى؟ الحق حقّ.

ـ الحق ليس حقّاً في نظر الناس حتى لو جاءهم يدبُّ على قدمين.

ـ سبحان اللّه. وماذا ترى؟

ـ أرى أن ترجىء الرحلة إلى وقت آخر، مناسب.

ـ سبحان اللّه.

تفحصه الشيخ بفضول وهو يفرّك يديه في فم اللهب محاولاً أن يخفي عينيه.

جاء العابرون بأخبار انتهاء الحملة. عاد الزعيم يفصح عن نيته في السفر إلى مساك.

في ليلة أضاءها بدر وهّاج قال بوبو باستفزاز.

(*) تارجا: منطقة فزان، أو الصحراء الكبرى الوسطى.

ـ لم أعهد فيك الحرص على مال الدنيا.

دافع الزعيم عن نيته بحرارة مَنْ يدافع عن شرفه:

ـ مـال الدنيـا؟ عجب. هل أتـرك إبلي تضيع لمجـرد وجود افتـراض. شيخ القادرية أو بطانته من أمثالك قد يسيئون بي الظنون؟

تجاهل بوبو الإهانة وعقَّب بنفس البرود:

ـ الجري وراء الإبل وثيق الصلة بطمع التجار وفئة الفلاحين.

ـ سبحـان اللّه. اسمعوه يـا جماعـة. وكـأنـه فضيلة الشيـخ عبـد القادر الجيلاني نفسه(*). ها أنت تتفوّق على معلمك في الطريقة. ها.. ها

الضحكة عصبية، متوترة. التقط بـوبو النغمـة فاحتـرس لغضبة أشبه. قال الزعيم:

ـ تعلَّمت أن أدرِّب نفسي على الاستمـاع حتى للصغـار، وحتى منهم أسمـع هذه اللغـة. أعرف أنـك انتميت للطريقة في سـردلس قبل وصول الشيخ نفسه، ولكن الصحراويين زهّاد بالفطرة، فكيف تسمح لنفسك أن تعطيني درساً في الزهد؟.

استنجد بالزنجي العجوز بنـظرة غاضبـة، فهزَّ الـرجل عمـامته ببؤس بجوابه التقليدي:

ـ لا يـا سيـدي. نحن عبيـد. في رؤوسنـا تبن. لا نفكـر. لا نرى لا نسمع. مهمتنا أن نعتني بجمالك وبـبدنك حين تمـرض. هيء.. هيء هيء...

الضحكـة المخنوقـة أيضاً تقليـدية، تعـوَّد العجوز أن يـذيِّل بهـا جوابه التقليدي.

قـال بوبـو دون أن يـرفـع رأسـه عن خـطوط يحـرثهـا على الأرض بعود حطب:

(*) عبد القادر الجيلاني. علامة إسلامي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي. مؤسس الطريقة الصوفية التي عُرِفت بالقادرية.

ـ أستغفر اللّه أن أدّعي قدرة على تلقين الدروس. ولكن الطريقة علّمتني أن لا حياء في الدّين. وما قلته الآن تحذير أملاه واجبي كرفيق.

ـ سنذهب إلى مساك. حضِّر المتاع غداً يا بركة.

قالها باستفزاز، فعلَّق بوبو بلين:

ـ اشتهرت بالتسامح والحلم. تذكَّر سمعتك التي قطعت كل الصحراء في الإمساك بالعصا من الوسط.

ـ وهل يستطيع مخلوق أن يلتزم الوسط بينكم؟

ـ مهما حدث فلا يليق أن تتخذ قراراً في لحظة غضب.

لعن الزعيم الشيطان الوسواس سرّاً وعاد يقول في العلن:

ـ ولكن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً. سنسافر إلى مساك. سنزور الكهوف ونتفرَّج على وصايا الأجداد في النقوش. سنفكُّ رموز «تيفيناغ»، و. .

مسح بوبو خطوطه براحة يده وقال بصوت غريب:

ـ اقتلني أولاً!.

هيمن صمت. تنقل الزعيم ببصره بينهم فلاحظ كيف أشاح الزنوج بوجوههم. أصغرهم سنّاً نهض وذهب ناحية الوادي حيث ترعى الجمال ليداري الحرج هناك. اقتنص الزعيم، بحس الحكيم، رائحة مكيدة. فهم في تلك اللحظة معنى كل المناورات السابقة. سأل بلهفة:

ـ ماذا قلت؟

ردّد بوبو ببرود:

ـ اقتلني أولاً!.

ـ هل تريد أن تقول إن الشيخ أوكل لك مهمة منعي من. .

لم يكمل الجملة فأوضح رجل الأتباع بلهجة قاطعة تفوح منها رائحة التطرف الذي اشتهر به المريدون:

ـ نعم. لن أدعك تذهب إلى مساك ولا إلى أي منطقة في صحراء الجنوب.

حدَّق فيه الزعيم طويلاً، في حين استمرَّ بوبو يداعب التراب البارد براحة يده. عمَّ الصمت. أصغوا جميعهم للسكون الجليل. قال الزعيم:

ـ ظننت أنك من المؤيدين فحسب. وما دمت مريداً يحرص على تنفيذ التعاليم فسوف نتبارز غداً. هل ستبارزني؟

همهم بوبو بصوت مخنوق:

ـ يحزنني ذلك. ولكن ستجدني رهن مشيئتك.

ضحك الزعيم بسخرية ونهض للنوم.

(٩)

في الصباح بدأت مبارزة السيوف التي استمرّت ثلاثة أيام.

في عيني الزعيم لمع بريق الحنين إلى الوطن، وفي عيني بوبو توهَّج تعصّب المريدين. راقبهما الزنوج الثلاثة بعيون حمراء أرهقها السّهر.

في اليوم الأوّل لم يتكلّم سوى السيوف.

بدأ الصّدام بعد الإفطار. تناول كلّ منهما كأس شاي أخضر من الدّور الأول. لم يتبادلا كلمة مع العبيد الثلاثة، كما لم يتخاطبا حتى بتحية الصباح. جلسا متقابلين، متربعين، حول موقد النّار. تجرَّدا منذ البارحة من اللباس الفضفاض. اكتفى كل منهما بثوب الكتّان الداخلي، مشدوداً بحزام من قماش الكتّان أيضاً، فبدت بطونهما الصحراوية الضامرة، الخاوية من الأطعمة والدهون أكثر ضموراً. نقل العبيد فيما بعد أنهما ظلّا يحدجان بعضهما، في ذلك الصباح الربيعي البارد، بنظرات تفيض بالتصميم

والحزن. في النهاية أشاح بوبو بوجهه وتظاهر بتزويد النار بالحطب، فقام الشيخ، بحركة طفولية طبيعية، يحرث الموقد بالمسعر ليؤجِّج جذوتها.

شقّ شعاع الشمس الأوّل الأُفق فبدا كخيط من نار. نهض الشيخ أولاً وأمسك سيفه الطويل من مقبضه الموشوم بالتعاويذ والرقي. سيف بوبو من نفس الطراز ولكن مقبضه لا يحفل بالنقوش الخرافية مثل سيف الشيخ. تقدّم بركة ووقف بينهما. قال بعينين دامعتين:

- ماذا يحدث لو أنكما لعنتما الشيطان؟ ربما..

أسدل لثامه الرمادي على وجهه فستر عينيه. التفت نحو بوبو وأكمل بصوت راجف:

- كيف تجرؤ على مبارزة الزعيم؟ البارحة ظننت أنك تمزح..

نهره الشيخ آدّه بنظرة قاسية فتنحّى جانباً. لمع السيفان في الموجة البكر من شعاعات الصباح، والتقيا في أول عناق. تقاطعا في صدمة جرحت سكون الصبح. التقت نظراتهما فتمكّن كل منهما أن يقرأ التصميم في عيني الآخر. انتهى عناق السيفين فتواصل صليل لسانين شرهين من النحاس. تقاتلا في العراء. صعدا الروابي المجاورة. نزلا إلى الوديان. أفزعا الجمال الوديعة فجفلت وراقبت النِزَال بعيون حزينة، دامعة، مزعوجة. تصاعد من أقدامهما الغبار، وأصابت ضرباتهما الطائشة الشجر البري المسكين. أسقطا أعراف السدر في الأرض المرتفعة، وفي الوديان السفلية أطاحا بأغصان الرَّتم الرقيق، المغطى بعقود من براعم الزهور المهيأة لأن تتفتّح تلبية لنداء الربيع. سلخت المساحات الصحراوية المكسوّة بالحجارة الحزّازة أقدامهما فنزفت دماً ابتلعته الأرض الظمأى في رمش العين، وداوت الجروح بطبقة من حبيبات الرمل والطين والملح. وكلما تقدّم النهار واشتدّ الحرّ، ازدادت وحشيتهما وتصميم أحدهما على إبادة الآخر. يدفع أحدهما الحنين المجنون لتلبية نداء الوطن، ويدفع الثاني تطرّف المجذوبين في تنفيذ تعاليم شيخ الطريقة. وروى كبير الزنوج، فيما بعد، أنهما لم يتوقفا حتى انتصف النهار. وبرغم أنهما استطاعا أن يدوسا، في حمّى جنونهما،

المساحات الخضراء واليابسة، وأطاحا بأشجار السهول والوديان، إلّا أنّ أيّاً منهما لم يتمكن من إصابة خصمه حتى بخدش. وأضاف الراوي بانحياز: «ولولا فارق السنّ لقضى سيّدي يومها على المريد المجنون». الشيخ تخطّى، وقتها، عتبة الستين. وبوبو في العقد الخامس. وعلى عادة الأتباع الأشقياء فإنه لم يفصح يوماً عن عمره الحقيقي خوفاً من مفعول السحر. إذْ يروِّج عتاة هذه الحرفة الخبيثة القادمين من تينبكتو وكانو، أن العمر مفتاح الطلسم والشياطين تكره الدخول في ظلمات الأبدان التي تجهل تاريخ ميلادها.

روى بركة أيضاً أن التعب هو الحَكَمُ الذي فصل بينهما. توقفا يلهثان تحت السدرة نفسها التي انطلقا منها في الصباح. العرق يغسل وجهيهما وكامل الجسدين. انحسر اللثامان فانكشف الوجهان المجهدان. الشفاه تغطيها طبقة من الزّبد الناصع تشبه تلك التي تنزُّ من شفاه الجمال الهائجة. بديا، في موقفهما وهما يتواجهان متقابلين يسندان جسديهما المنهكين بالسيفين المغروسين في التراب، بظهرين مقوسين إلى الأمام، مثل ذئبين شرسين فشلا في اقتسام فريسة.

تقدّم بركة ورشّ وجه الزعيم بقطرات من ماء القربة البارد. كما تقدّم أحد الزنوج من بوبو ونثر في وجهه الماء أيضاً. تركوهما حتى بردا ثم قدّما لهما شراب الحياة الأوّل: الماء. استلقى الشيخ في الظلّ وهَجَعَ على ظهره. في حين تربّع بوبو قرب النّار وراقب بركة وهو يعدّ الشاي وخبز الرملة.

أنصتا لأنفاس ذي الجلال في السكون.

لم ينطق أحد بكلمة حتى بدأ الشوط الثاني في العشية.

(١٠)

في اشتباك العشية، قبيل حلول الغسق، أُصيب الزعيم بجرح في

المعصم الأيسر. استسلم لبركة حتى أحكم الرباط حول الجرح. علّق قبل أن يعود للقتال:

ـ لولا الغَسَقُ، لولا وقت النحس لما أصبتني أبداً.

تذكّر الشيخ آدّه أن عرّافاً عجوزاً من كانو أخبره مرة أَنْ يَحْذَر الغَسَق، وقال له إنه الوقت الذي ينزل فيه الجن ليسكن الأشياء في الصحراء. ونبّهه ألاّ يصطاد الغزلان في هذا الوقت، ويبتعد عن المنازعات، والأفضل أن يبتعد عن الناس ويكثر من قراءة التعاويذ. ومما زاده يقيناً أنه لاحظ كيف يحاول بوبو أن يصدَّ الضربات متخذاً موقف الدفاع، فمن أين جاءت الضربة إنْ لم تكن من شيطان من أهل الخفاء؟

في الليل امتنع الشيخ عن الطعام مرة أُخرى. وكانت هيئته البائسة في النهار، أثناء المبارزة، قد أزعجت بركة وأحس نحو سيّده بقلق شديد. إذْ شاهد بعينه كيف التهم صيام الشهور الماضية لحمه حتى بقي جلداً على هيكل عظم. أعدَّ على العشاء فطائر مدهونة بالسّمن خصيصاً كي يمدّ الشيخ بقوة لمعركة الصبح ولكن الزعيم رفض أن يمسَّها. اقترح بركة أن يؤجِّل الصدام حتى يلتئم الجرح كما تقضي قوانين المبارزات فقبل بوبو بسرور ورفض الزعيم بشدة.

ليلتها خرج بوبو إلى العراء لقضاء الحاجة. مكث هناك زمناً وعندما عاد هجع بعيداً عن موقد النار وتغطّى بالبطانية، مخفياً وجهه، حتى الصباح. نهض بعينين حمراوين وجفنين متورمين.

أفاد أحد الزنوج أنه بكى في خروجه إلى العراء، كما سمعه يبكي تحت البطانية في آخر الليل.

(١١)

في اليوم التالي اضطّر الشيخ، تحت تأثير نبوءة العرّاف القديم، أن يلغي الغَسَقَ من الوقت المخصص للصدام فوافق بوبو بدون شروط. في اليوم

الثاني أيضاً فقد بركة صوابه وانهار تحت قدمي الزعيم. بكى وناح وتوسّل:

ـ لا تبارزه، رحمة بنفسك وبنا أن تتوقف. إنه جنّي محصّن ضد الحديد. لقد رأيت مرّات كثيرة كيف يصيب سيفك لحمه دون أن يصيبه خدش. تحت معصمه حرز. . .

قاطعه الزعيم بتصميم:

ـ ابتعد يا بركة ولا تكنْ طفلاً. سأحاربه حتى لو كان ملك الجن نفسه. ابتعد!

رفع سيفه ودخل الحرب.

في اليوم الثالث جاء دور الزنجي العجوز كي يتهمهما معاً بالطفولة والصَّبْيَنَة. فخلال الأيام الثلاثة التي لم يتوقف فيها النزال، باستثناء ساعات الليل وقيلولة النهار، تعوّد الجماعة على المعزوفة ونسوا، إلى الأبد، أن في حدّ السيف يكمن الموت. وبرغم أن بوبو يحاول أن يلتزم جانب الدفاع عن النفس واتقاء الضربات إلّا أن الزنوج أجمعوا أن الزعيم لن يفوِّت فرصة طعن خصمه إذا أُتيحت له. فكيف نسوا شبح الموت مع إحساسهم بهذا التصميم؟ ربما فقدوا الإحساس بالخطر بفضل وباء كريه اسمه: العادة. تعوّدت آذانهم على عزف السيفين فظنوا أنهما من خشب وأن الوحشين اللذين يتقاتلان أمامهما هما مجرد طفلين صغيرين يتسليان ويلعبان. ويبدو أن هذا الشعور تمكّن حتى من المقاتلين فبدا لهما العراك، في اليوم الثالث، كأنه مزاح ثقيل. العجوز بركة الذي حرص أن يتابع وقائع المعركة خطوة خطوة ضرب كفّاً بكف وصاح ضاحكاً معلّقاً على حركة بهلوانية بارعة من الشيخ:

ـ ممتع. أقسم باللّه أن هذا ممتع. أنتما طفلان صغيران. أنتما الطفلان ولست أنا.

وأعقب التعليق الجريء بقهقهة عالية لم يكن سيّده ليغفرها له لولا انشغاله، جادّاً، بإزاحة العقبة التي تعترض طريق عودته إلى الجنوب.

حلَّ الليل فتجمَّعوا حول موقد النَّار. بدا مزاج الزعيم رائعاً، برغم التعب، حتى أنه عقَّب على تعليق بركة حول اللعب والطفولة قائلاً:

ـ وهل كنت تتوقع شيئاً آخر؟ الرجل الحقيقي يقترب من الطفولة كلَّما تقدَّم في العمر. والألعاب الطفولية أخطر الألعاب. الموت فيها أقرب من حبل الوريد. يُحْسَن بعجوز مثلك ألاّ ينسى هذا.

(١٢)

في اشتباك اليوم الرابع انتقلا إلى نوع آخر من المباريات دون أن يعرف أحد كيف حدث ذلك. فما أن تقابلا في الصباح لمواصلة المواجهة بالسيوف حتى تفقَّد آدّه العراء. من الجهات الأربع امتدَّت الصحراء بقسوة. نَكَسَ بصره ممسكاً بمقبض السيف لحظات. تابع بوبو وجومه في جلال. و. . فجأة طعن الأرض بالسيف وتركه مغروساً في بطنها وانطلق يجري. اتجه إلى الجنوب، حيث يحجب الأفق الجبال الملثمة بالعمائم الزرقاء التي تفصل صحراء الجنوب عن الحمادة الحمراء. صعد أول رابية فوجد بوبو نفسه يلقي بسيفه أيضاً وينطلق خلفه في أطرف مطاردة شهدتها الصحراء. دُهِش الزنوج وكذلك الجمال. وقفوا طويلاً يرقبونهما وهما يتحولان إلى شبحين تلعب بهما أمواج السراب الذي تدفق في الخلاء منذ الصباح الباكر. ثم أفاق بركة وهرول وهو يتمتم «لم أقسم حانثاً عندما أقسمت أمس أن ما يحدث هنا هو لعب أطفال». انحرف بوبو يميناً ودار حول الرابية ذات القمة المربعة ثم انعطف يساراً ليقطع الطريق على خصمه. تعثّر بأحجار حزّازة، شرسة، وانقطع خيط الجلد الذي يشدّ مداسه في طوق حول الرسغ، ولكنه واصل يعدو بنعل واحد، حتى وجد نفسه بين أحضان الشيخ المنهك، المغسول بالعرق. ظلاّ متعانقين، يلهثان، تحت أشعة الشمس الصباحية. تمتم بوبو مستمرّاً في تطويق آدّه بذراعيه:

ـ ماذا يفيدك أن تقطع الحمادة جرياً إذا كنت ستموت ظمأ قبل أن تبلغ

الجبل الأزرق؟ أرى أن تلتفت إلى «آنهي» عسى تجد في لسان الأجداد حكمة تلهمك الرجولة والصبر.

همهم الزعيم بصوت متعب، مخنوق:

ـ ما عدت أستطيع. النداء غلبني. النداء حار كالنار. لماذا لم تقتلني بالأمس؟ أنا أعرف أن الفرص قد واتتك أكثر من مرّة، فلماذا أهنتني؟ لماذا عاملتني كطفل؟

ـ لأنك طفل الآن يا سيدنا الشيخ. طفل حقيقي. لأني على قناعة أن الأطفال الحقيقيين هم رجال حقيقيون. وهذا المرض لا يصيب إلّا الرجال الحقيقيين.

ـ ولكنك تعرف أني لن أتراجع عن قتلك إذا ساعدني القدر ومكّنني منك.

ـ أعرف.

ـ لماذا ترفض أن تعاملني بالمثل؟

ـ لأني جئت كي أمنعك من العودة إلى القبيلة لا لكي أقتلك.

ـ ولماذا تخافون من عودتي إلى القبيلة؟ خبِّرني باللّه.

ـ لأننا نعرف، والكل يعرف، أن الطريقة لن تستقيم، ولن يذهب النَّاس وراء المذهب ما دمت تدبُّ في السهل. حاولت أن تربي النَّاس على الحرية طوال السنوات الماضية ونجحت في ذلك.

ـ ولماذا تريدون أن ترجعوهم عن صراط الحرية؟

ـ لأننا نرى كم هم أشقياء في هذا الطريق.

ـ مَنْ قال إنهم أشقياء؟ هذا وَهْم في رؤوسكم.

ـ لا. ليس وهماً. لا يقدر كل الناس أن يحملوا هذا الوزر. إنهم بؤساء.

ـ البؤس في رؤوسكم. في مذهبكم.

ـ . . . . .

ـ ولكنّي سأعود. سأقتلك وأعود.

ـ أنا أعرفك. لن تستطيع أن تقتلني إلاّ بالغدر. ولن تغدر لأنه عمل يخالف طبيعتك. يخالف مبدأ النبل.

ـ سأقتلك بالسلاح. بالسيف أو الرمح.

ـ لن تستطيع. لم تتقن يوماً فنون الحرب كما لم تتقن فنون الحب وإطراء النساء.

ـ هيّا نتصارع. لماذا لا نجرِّب المصارعة؟

جرى الحوار كله أثناء العناق. راقبهما بركة من المرتفع وهما يتمايلان ويتهامسان، فاستمرَّ يضرب كفاً بكف ويردد: «أطفال. أقسم بأمناي أنهم أطفال». وفي كل مرة تلا النطق بالقسم، يسارع لوضع يده الخشنة على فمه خوفاً من أن يصل القسم بإلّه المجوس إلى الآذان.

مسح كل منهما الدموع خفية عن الآخر، ثم. . اشتبكا في المصارعة.

(١٣)

استغرقت المصارعة الأولى النصف الأوّل من النّهار. وفي اليوم الثاني استمرّت النهار كاملاً بنصفيه مع التزام بالقيلولة وراحة قصيرة تناولا فيها غداءً خفيفاً صنعه بركة من حساء الشعير، لتتواصل المشادّة مع العشية. لا يعرف الزنوج، ولا بوبو نفسه، من أين كان الزعيم الذي تجاوز الستين، يستمد قوّة تمكّنه من المقاومة وهو الذي يصوم عن الطعام ولا يكاد يقتات شيئاً. كان يطوّق خصمه بيديه الهزيلتين ويطوِّح به يميناً ثم شمالاً، ثم يرفعه عن الأرض ويلقي به عالياً في الهواء معزياً نفسه بصيحات بطولية تشجيعية. ولكن بوبو كان يعود إلى الأرض واقفاً على قدميه في كل مرة مثل

هرّة. ومع نهاية كل شوط ينفّس الشيخ عن نفسه بالشتائم، فيقول غاضباً:

ـ أنت جنّي يا بوبو. جنّي من الأتباع. أهلكك اللّه!.

وعبارة «أهلكك اللّه» شائعة بين سادة القبيلة وموروثة عن الأسلاف الذين تعودوا أن يداعبوا بها أبناء الأتباع. وانتشرت في الصحراء الوسطى شريعة ضمنية تجيز استعمال هذه اللعنة ضد كل مَنْ ينتمي إلى قبائل مثل «كيل اوللي» أو «ايمقيرغسن» أو «إيمغاد» وما شابه هذه القبائل. وكان الثعلب بوبو يحس، بحَذَق الأتباع وفراستهم، أن قلب الشيخ يزداد ليناً كلما روّح عن نفسه باللعنة التقليدية فيبتهج ويفرح ويداعب الزعيم:

ـ قلت لك لن تغلبني. لا أنكر أني رضعت حليب الجنيّات في الكهوف ولكن سرّ قوتي ليس هنا.

يرمق الشيخ بخبث ويغمز بركة موضحاً:

ـ السرّ في أمرين: أولهما أني لم أرفض الامتناع عن طعام شهي أبداً، وثانيهما أني البّي دعوات الحسان وقد تزوّجت حتى الآن ثلاث عشرة امرأة!

ـ أهلكك اللّه!.

ـ هيء... هيء... شرطان تعجيزيان كما ترى، لن تستطيع تلبيتهما.

ـ أهلكك اللّه!

أصبحت الأيام التالية مسرحاً للدعابات وتبادل النكات برغم استمرار المصارعة. ولكن بوبو اطمأن إلى انحسار موجة الحنين في قلب الشيخ. حاول أن يلهيه لكي ينسيه ويجعله يسلّم بقدره. ولمّا كان «آنهي» قد نبّه إلى قدرة اللسان على الانطلاق إذا تعطل الإنسان وأجهد الجسد فقد قرر بوبو أن يستعمل هذه الحكمة الذهبية في علاقته بالشيخ.

وحتى بعد انقضاء شهور، في ذلك الزمن الذي شهدت فيه صحة الزعيم تحسناً روحياً ملحوظاً، فإنه لم يتوقف عن تكرار لعنته: «أهلكك اللّه»

ويعقبها بجملة دموية كأن يقول: «سأقتلك يوماً ما. ستموت على يدي. سوف ترى. إذا عجزت عن ذلك بالقوة فسوف أتركك تنام ثم اذبحك أو أسلّط عليك بركة كي يخنقك بيديه الخشنتين، وأنت تعرف أنه لا يجيد إلاّ الخنق!». فيرد بوبو على الدعابة بعبارته القاسية: «هذا اسمه غدر في شرع الصحراء، وأنت لن تستطيع أن تغدر قبل أن تتجرَّد من النبل». يستسلم آدّه ويكلّم نفسه بحزن:

«نعم. النبل قاتل. قتلني. النبل سمّ السادة».

في إحدى الأُمسيات الرائعة التي يتكامل فيها البدر ويهب النسيم البحري من الشمال البعيد سأل الزعيم وهو يستلقي في العراء ويراقب القمر والنجوم:

ـ إلى أين تنوون أن تقودوا القبيلة بطريقتكم؟

أجاب بوبو بلا تردد:

ـ إلى اللّه.

ـ ولكن الطريق إلى اللّه يمر من باب الحرية.

ـ أنا أتحدّث عن خاتمة المطاف وليس عن الخلاص الدنيوي. الخلاص الدنيوي، أو ما تسميه الحرية، ما هو إلاّ حلقة في الطريق.

ـ وهل يتحمَّل الناس مشقة الطريق وأنتم تشفقون عليهم من وِزْرٍ أراه أخف عبئاً وهو الحرية؟

ـ الناس أغلبهم دَهْماء، غوغاء، لا يرون أبعد من أُنوفهم، ولن تصل بهم إلى أي مكان إذا ظللت تستشيرهم وتحاول أن تعاملهم كعقلاء. عندها يغترّون، ويعطون لأنفسهم حجماً أكبر من حجمهم الحقيقي فيتحاجّون، ويتبجحون، ويتطاولون ويعتدي بعضهم على بعض وعلى حامل لواء المسيرة نفسه قبل أن يبلغوا منتصف الطريق. وحتى لا يضيّعوا أنفسهم

وجب الإبقاء على السرّ سرّاً والتخفيف عنهم بأرغفة خبز الشعير قبيل بلوغ واو الميعاد.

ـ هل تعدونهم، في الطريقة، أيضاً بـ «واو»؟.

سكت بوبو لحظة قبل أن يجيب:

ـ وما هي «واو» إذا لم تكن رحاب اللّه تعالى؟ لقد رأيتها في الوجد دائماً.

ـ حقّاً؟ هل تظن أن هذا الصراط سيفضي إلى «واو» حَقّاً؟.

ـ «واو» ليست في السماء يا شيخنا، وليست في الأرض أيضاً. إنها هنا في هذا القفص البائس. أنت لا تستطيع أن تتخيّل كم في هذا القفص من كنوز.

ـ أرى أنّك تعلّمت أشياء كثيرة في سردلس.

ـ تعلمت من الصحراء أكثر مما تعلمته من سردلس.

سكت؛ فهَيْمَن صمت. عاد بوبو:

ـ أردت أن أسألك: ألم يصرعك الغناء أبداً؟ أقصد ألم تقع في الوجد؟

ـ كنت أستطيع أن أدَّعي الحالة كما يفعل أكثر الحمقى في الصحراء ولكني لم أفعل خجلاً.

ـ أنا لا أعني الوجد المزيف. أنا أعني الوجد الحقيقي، وجد المجانين والدراويش والمعتزلة.

ـ لا أخفي عليك. اللّه حَرَمَني من الكَشْف كما حرمني من قول الشعر. رأسي بارد مثل حجر الكهوف.

ـ حرمت شيئاً لن يعوضه العقل البارد. لن تعوّضه الحكمة. حرمت قبس السعادة.

- هزَّتني أُغنية آيريَّة مرة وأحسست بقلبي يحترق ورأسي يفور. نزفت عرقاً كثيراً ولكني لم أقع...

- لو وقعت. لو تركت جسدك يسبح لطرت في السماء ورأيت «واو» في القفص.

- هل رأيت اللّه أيضاً؟

سكت بوبو، التفت نحوه الشيخ استعداداً لتلقي الإجابة فرأى كيف لمعت الدموع في عينيه تحت ضياء القمر. تمتم بتعويذة غامضة. تعويذة الطريقة:

- مَنْ أذاع سرّه عوقب بالخسران، ووجد نفسه في الجبّ. كنت أتحدّث عن «واو».

- وكيف هي؟

- وكيف تكون أرض ذي الجلال؟ ليست بستاناً فقط وليس الصمت لغتها الوحيدة، كما أن الذهب ليس كنزها الوحيد. هذه «واو» الغوغاء.

- حدِّثني عنها.

- يعجز البيان عن الوصف. كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة(*).

- هل كنت سعيداً؟

- إلى حد أني تمنيت ألَّا أعود أبداً.

- تمنيت أن تحطم القفص؟

- نعم. تمنيت أن تتكسّر قضبان القفص ليتحرر طائر النور ويعود إلى أصله.

تنفّس بعمق وقال ببطء:

- ها أنت تتكلّم لغتنا. العقل أيضاً بحر كبير.

(*) كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة: موضوعة محمد النَّفّري الشهيرة.

ـ ولكنـه أبرد من حجـارة الحمادة في ليـالي الشتاء. وعلينـا ألاَّ ننسى أن قوته في بروده.

هيمن الصمت. أنصتا للسكون الجليل. نام الزنوج وتوقفت الجمال عن الاجترار. ولكن الرفيقين استمرّا يراقبان زحف القمر وحركة النجوم.

(١٤)

استسلم الزعيم للأسر كما سلَّم قبلها بالمنفى. داوم بـوبو على مـلاطفته وتسليته وإلهائـه بالمـداعبات كي ينسى، ولكن الحنين ظـلّ ناراً حيّـة تحت جثمـان الرّمـاد. يشتدّ حينـاً فيعتزل في خـلاء مقطوع ويصـوم عن الـطعـام والكلام، ويخبو حيناً آخر فيعود إلى مرحه ومشاكساته لبوبو مردّداً: «أهلكك اللّه». توقفا، في ذلـك الأوان، عن التلاحم والاشتبـاك الجسدي، واقتصـر الخلاف على لغة الكلام. وذهبا في إحدى المرات إلى «دنبابة» حيث تبـدأ حدود المتاهة الرملية التي تقع القبيلة على حـدِّها في الـطرف الآخر. ورأى الزنوج في بـادرة بوبـو مرونـة وليناً عن المـوقف القديم حتى أنـه داعبه ذات مساء:

ـ أنفاس القبلي التي تزفر بها الصحـراء تكفي لامتصاص آخـر قطرة مـاء من جسم كـل كـائن حي يـدبُّ على قـدمين كمـا تكفي لإبـادة كـل نبـات الأرض، فلمـاذا، يـا شيخنـا، تنـوي، بـل تصـرُّ، على العـودة إلى منـابـع الصّهد؟ تجد نفسك في الحمادة مـرفوعـاً إلى السماوات بـأعمدة الجبـال، تهبّ عليك أنفاس البحري وتأكـل الترفـاس والجرجيـر والحميضة وتستنشق زهـور الرَّتم، تهجـع في ظلال السـدر وتعيش السكينة وتمـد يـدك لتقـطف النجوم التي تتكاثر في غيبة القمر في الأمسيات. وبعد كل هذا تلوي العصا في يد ذي الجلال وتبارزني لأنك تريد أن تيمم شطر جهنّم. فلماذا، باللّه، تُقاد إلى الجنّة بالسلاسل؟ لماذا يُقاد الناس إلى الجنّات بالسـلاسل؟ لمـاذا يقاتل الإنسان للهروب من الفردوس إذا كان عليه أن يشقى، بعـد الخروج، ويملأ الدنيا عويلاً ونواحاً كي يفتحوا له الباب؟

أجاب الشيخ:

ـ في البداية أراد الخروج من باب الفضول. صَعُبَ عليه أن يعيش معصوب العينين غافلاً عمّا يدور خارج الأسوار. واستغلّ الوسواس الرجيم هذا الضعف فهمس له، عن طريق امرأته، بأن الجنة معتقل، و«واو» سجن كبير لن يفوز بالسعادة إلاّ إذا خرج وتحرر منه. لقد خرج جدّنا الأوّل من «واو» الفردوس سعياً وراء الحرية. وعندما خرج وعرف وضاع ووجد نفسه في الصحراء القاسية عاد على عقبيه ودقّ على بوابة السور، ولكن الباب كان قد أغلق في وجهه إلى الأبد.

هبّ بوبو واقفاً:

ـ ياربي؟ هل تظن حقّاً أنه خرج بحثاً عن الحرية؟

ـ نعم.

ـ ولماذا اعتبره السلطان الأكبر عصياناً إذا اتفقنا أن الحرية هدف نبيل؟

ـ وماذا يمكن أن تسميه؟ إنه تمرّد على الإرادة السامية التي شاءت أن تحبسه في صَدَفة سماوية بلا هموم، ولكنه أراد أن يكسر الصدفة وينفذ إلى الخارج، إلى العراء الأرضي، ليعرف ويرى ويجرّب ويأخذ الأمر على عاتقه، فكان العصيان، وكانت، هنا، الخطيئة الأولى. وعرف ذلك عندما أراد أن يعود إلى البيت من رحلته الاستطلاعية. غضب ربّ البيت وأقفل الباب في وجهه، فعاش ضائعاً، باحثاً، شقيّاً، ممزَّقاً بين السماء والأرض، بين البدن والروح، بين الصحراء و«واو».

ابتهج بوبو وقال مأخوذاً:

ـ إذا كان الأمر كذلك فإن الخروج ليس لعنة. إذا خرج بحثاً عن الحرية فلا بدّ أن يكون هناك خطأ مّا. لا بدّ أن يكون خروجاً نبيلاً وشجاعاً. أليس كذلك يا شيخنا؟.

أجاب الشيخ بخيبة:

ـ ولكن لا تنس أنه عصيان. تمرّد على إرادة ربّ البيت. هذا سبب ازدواج الحنين. وهذا سبب تزايد أولئك الذين يُقادون إلى الجنّات بالسلاسل. إذا دخلوا الجحيم ركضوا إلى الخارج وبحثوا عن الفردوس. وإذا دخلوا إلى الفردوس حنّوا إلى الخروج من القوقعة والعبور إلى العراء الفسيح.

تمتم بوبو بدهشة طفولية:

ـ سبحان اللّه. هل الجحيم ضروري إلى هذا الحدّ؟

ـ أليس هو الصحراء؟ كيف تتصوّر الحياة بدون صحراء؟ هل كنت تستطيع أن تتنفس إذا حبسوك وحجبوك عن الصحراء؟ أنا لا أستطيع.

همس بوبو لنفسه بعد لحظة تأمل:

ـ أنا أيضاً. أعترف أني لا أستطيع.

سكت زمناً ثم رفع رأسه بسؤال شرس:

ـ هل الحرية هي الجحيم؟

أجاب الشيخ بلا تردد:

ـ نعم. مَنْ أراد أن يعيش حرّاً عليه أن يقبل بالحياة في الجحم، في الصحراء. الصحراء جحيم جميل لأنه جحيم الحرية. فهنا فقط عليك أن تدفع ثمن الحرية القاسي: عليك أن تتحمّل المسؤولية كلّها وتتولّى الأمر بنفسك. تواجه الموت في كل لحظة لأنك لا تنتظر إحساناً من أحد. تنتقل لوحدك، وتتقاتل مع الوحوش لتطعم نفسك، وتدافع عن نفسك بنفسك، وتواجه الخطر لوحدك، و.. تموت لوحدك. كل هذا لأنك اخترت الصراط الصعب الذي يهرب منه كل النّاس. صراط العزلة والحرية!

ـ هل تشتاق للسهل وتتوثّب للعودة إلى الصحراء الوسطى لهذا السبب؟

ـ نعم. لا أنكر أن الحَمَادة نعيم، ولكن نداء الصحراء الحقيقية أقوى

لأنه نداء الحرية، والحنين هو الذي يحوِّل هذا الجحيم إلى نعيم، لأن حريتك تتضاعف كلما توغَّلت في الصحراء.

ردّد بوبو بروح مأخوذة:

ـ أقسم أن الخروج لن يكون كفراً إذا كان في سبيل الحرية. الجدّ أراد أن يعرف فوجد نفسه في الصحراء.

ـ إننا ندفع ثمن الضياع. ثمن التمزّق القديم. الاغتراب الأوّل.

في «دنبابة» زَفَر الجحيم، وتحرَّكت الرملة بأنفاس القِبْلي.

(١٥)

وطَّدت روح التسامح علاقتهما فجاءت أنباء المذبحة في «تيمنوكالين».

في ذلك العام لَقي بركة حتفه متأثراً بلدغة أفعى، واختفى من الصحراء، كما اختفى قبله خميدو في أدغال «كانو» واضعاً خاتمة غامضة لرحلاته التجارية إلى بلاد السَحَرَة.

بعد أيام من توغل أخبار المذبحة في الحمادة اختفى بوبو أيضاً.

التجار أول مَنْ جاء بالخبر. قالوا إنه هلك مع جيشه هلاكاً خفياً، على يد قوى مجهولة.

وطبيعي أن أحداً لم يصدِّق هذه الرواية الأسطورية. ثمَّ أقبلت قافلة أخرى وقال التجّار إن أولاد آوى الأشقياء ركبوا عجاجة ماردة وحاصروه في «تيمنوكالين» انتقاماً للفظائع القديمة التي أنزلها في قبيلتهم. ولكن الرعاة الحكماء قالوا شيئاً آخر. وبدأوا رواياتهم الشيقة من «صندوق النحس» وأكَّدوا أن الجن وراء الغارة. ورووا كيف أن الناس كانوا ينتظرون أن يحدث شيء شبيه بما حدث، وإنْ قَصُر خيالهم عن تصوّره بهذه البشاعة، منذ حصل شيخ الطريقة على الصندوق كهدية من أحد التجار. وذكروا ما يُقال من أن العرّافة «تيميط» وراء الهديّة الخفية. ولا يُستبعَد أن يكون التّبر

تعويذة سحرية. وقال الرعاة إن الدُهَاة يقولـون إن العرّافـة ليست في حاجـة لأن تنفخ فيه من روح السحر والشياطين لأن التِّبر، حسب الميثاق القـديم، حَكْـرٌ على أهـل الخفـاء. ويبـدو أن العقـلاء تعمَّـدوا أن يخفـوا السـرّ عن الشيـخ، فوجـد الجن أنفسهم مجبرين أن يتـولّوا الأمـر وينتقموا منـه جـزاء استيلائه على حفنة الغبار المسكون وخيانة العهد.

بعد ثرثرة الرعاة خرج بوبو إلى العراء لاستنشاق زهور الرَّتم وترك الزعيم يستجوب كبيرهم عن مأساة القبيلة وحال الشيوخ.

خرج قبيل المغيب وعاد مع حلول هـزيع الليـل الأوسط. أنصت لأنفاس الشيخ فعرف أنه يرصد النجوم في الظلمة. ذهب إلى الموقد وأشعـل النّار. تـربّع وأخـرج الترفـاسة. كـانت من نوع الجبء الأحمـر. قلّبهـا في ضـوء اللهب وتفحصها طويلاً. أزاح لثامـه عن أنفه واستنشق الكمـأة. سحب من عطرها الخرافي نفساً عميقاً، طويلاً، متواصلاً، مسبلاً جفنيه. ثم عاد يقلبها في ضوء النّار. قال كأنه يواصل حديثاً لم ينقطع:

ـ عثرت على جوهرة من كنز كدنا نيأس من العثور عليه هذا العام.

تابعه الشيخ من تحت لثامه ولكنه لم يتحرّك ولم يجب.

اقترح بوبو دون أن يتوقف عن فحص الجبأة:

ـ سأعدّ الشاي. أردتك أن تشاركني الاحتفال. عثرتُ على ترفـاسة قبـل نهاية الربيع.

تقلّب الزعيم في العراء واستمر بوبو:

ـ لا يطمع الصحـراويون بـأكل التـرفاس في ربيـع لم تسبقه الأمـطار في فصل الخريف. والعثور على الترفـاس في موسم لم تسبقـه أمطار الخـريف كالحصول على كنز دون فكّ الطلسم.

نهض الشيخ. عدَّل من وضع لثامـه حول وجهـه وزحف نحو النّـار. مدّ يده وتناول الترفاسة من بوبو. تفحصها بين يديه. متـوسطة الحجم. حمـراء

تميل إلى اللون الرمادي. موشومة بخطوط غامضة تضاعف من سحرها وجمالها. في قعرها نتوء تعلوه حبيبات من رمل وطين. قرَّبها الشيخ من أنفه واستنشق العبير. أغمض عينيه وردد كالمجذوب:

ـ اللّه! اللّه!.

قال مغمضاً عينيه، رافعاً رأسه نحو السماء:

ـ سحابة عابرة مرَّت من هنا في الخريف الماضي. سحابة عابرة خصَّتك بالجوهرة.

وضع بوبو وعاء الشاي فوق النّار. قال فجأة:

ـ الآن لن يوقفك أحد. تستطيع أن تفوز بالجحيم متى شئت.

تبادلا نظرة سريعة. الزعيم لم يرد. استمرّ يتمتع بالثمرة الخفيّة مثل طفل حصل على لعبة مثيرة.

استفزَّه بوبو:

ـ تستطيع أن تنتقل حراً في الجحيم.

ثم اقترب من الشيخ حتى عجز الزعيم أن يتحاشى نظرته المجهولة. قال بوبو بصوت راجف:

ـ أول ما تعلّمناه من الطريقة هو قراءة لغة الإشارة. هل تدري ما معنى الحصول على ترفاسة وحيدة في موسم لا يجود بالترفاس؟

مال برأسه أكثر حتى تلامست العمامتان. همس:

ـ هذه إشارة الخلاص. الخلاص على طريقتنا نحن الدراويش. أنت تراه في حياة داخل الجحيم الصحراوي، ونحن. . .

ابتعد بوجهه قبل أن يكمل جملته.

في الصباح اختفى.

(١٦)

في طريق العودة مرّ على «سردلس». هناك أخبره شيخ الواحة كيف قام بوبو بتحرير الروح من المعتقل في حفلة ذكر تبارز فيها سكارى الوجد بالسكاكين وتراهن المريدون والمجذوبون في تسديد الطعنات إلى القلب لتحريره من الأسر. في تلك الجولة كان بوبو الفائز الوحيد. وروى الشيخ أنه تمكّن، بضربة واحدة، أن يخرج قلبه من صدره دون أن تقطر منه نقطة دم واحدة ويريه لسكارى الوجد في ضوء النّار.

رافقه شيخ الواحة إلى الزاوية القادرية. في الواجهة شاهد آدّه الراية، شعار الزاوية القادرية، منكسة فلم يعرف عمّا إذا كان ذلك حزناً على المريد بوبو أم على فقيد الطريقة الأكبر.

خرج شيخ الزاوية لاستقبالهما في ساحة فسيحة مظلّلة بثلاث نخلات ذات سيقان حليقة، رشيقة، باسقة. دعاهما شيخ الزاوية للجلوس في الظلّ وجاء أحد المريدين بمنقل النّار وعدّة الشاي. تحدّث شيخ الزاوية طويلاً عن التجارة والمجاعة والقبلي وغدر بني آوى والمحبة وعقائد المجوس والمنفى و. . اللّه. ولكنه لم يأت على سيرة المجزرة وتعمَّد أن يغفل الموت. وعندما همَّ آدّه بالانصراف استأذن شيخ الزاوية لأخذه على انفراد. انكسر سلطان الجلّاد الأبدي وبدأ قرص جهنم يحتضر ليأوي إلى مثواه اليومي. سارا في الخلاء المفروش بسجادة من الحصى، ممتدّاً نحو سلسلة الجبال. قال شيخ الزاوية:

ـ لا يفوز بشعلة النّار ويكسب المشوار إلّا مَنْ صبر على الجمرة في حجره.

ردّ آدّه بعد صمت:

ـ لا أفهم.

فعلّق شيخ الزاوية كأنه انتظر الرّد على أحجيته الغامضة:

- لم أستخدم توريات الدراويش وألغازهم في لغتي. صدّقني. أردت أن أقول إنك صبرت على البلاء فردّ لك اللّه قبيلتك..

- ردّها.. شتات وخراب، أرامل وأيتام.

- أستغفر اللّه. في كل مصاب حكمة. في الضرّ نفع، وفي المكروه خير وسرّ.

- ولكن.. انتظر. أراك لا تشارك شيخكم الأكبر الرأي برغم أنك شيخ زاوية قادرية.

ابتسم الشيخ قبل أن يرد:

- في كل طريقة نقيض. والحياة هي التي علّمتنا أن لا شيء يستقيم دون وجود الضدّ. اللّه أوجد الحياة بقانون النقائض، بالذكر والأنثى. وطريقتنا أيضاً تتمتّع بالعافية لأن فيها أضداداً.

- الحق أني كفرت بالقادرية عندما رأيت الشيخ الأكبر الذي عاهدنا على صراط الحرية ووعدنا بأن يعيدنا إلى منابع الدّين ينقلب إلى سلطان دنيوي مثل سلاطين بني عثمان. فهل الفساد، يا ربّي، في النّاس أو في المنصب؟.

- في كليهما. في النّفس وفي المكان. وخلافي مع الشيخ الأكبر ليس في تعاليمه ولكن في نفسه الأمّارة بالسوء. إعلمْ، يا شيخ آدّه، أن المصلح والحاكم لا يجتمعان في قلب واحد. لأن كفّة الحكم أرجح وأقوى. أمام المصلح الحقيقي طريق واحد: المغارة. الصحراء. العزلة. فإذا انقاد للوسواس مرة، وخرج من صحرائه، إلى الناس، فإنه يضيع، لأن الشيطان سيستولي على المبادرة ويتولّى الأمر.

- هل تريد أن تقول إن إبليس هو الذي قاد شيخ الطريقة؟

- ومَنْ غيره؟

أفلتت ضحكة مريرة من آدّه. همهم في دهشة:

ـ أقسم أنك أكثر تطرفاً مما ظننت. أنت أكثر تطرفاً منّي.

ـ أنت تتواضع يا شيخ آدّه. سرّ قوتك في هذا التواضع. أنت تعلم أنك لم تكن متطرفاً في يوم من الأيام. ولو حَرَمَك اللّه من عبقرية الاعتدال لقبضت الريح، كما قبضه كل المتطرفين، ولما حققت ذرّة من نبالة أو صيت ممّا تتغنى به اليوم حتى الصبايا في الصحراء. ولكن دعنا من هذا. فقد دعوتك في أمر آخر.

توقفا. انتظر الزعيم. تبادلا نظرة خاطفة. بدأ شيخ الزاوية:

ـ لماذا تكابر وتخفي فضولك؟ لم تسألني كيف تحرر القادري الحقيقي من سجن البدن والأرض والناس.

ـ بوبو؟

ـ نعم. القادري الحقيقي.

ـ تقول عنه حقيقي وهو من أكبر المؤمنين بالشيخ الأكبر؟

ـ بل هو حقيقي لهذا السبب. حقيقي هنا معناه: بكر، بتول، طفل. ولذلك آمن بالشيخ الأكبر بعماء. وعندما اكتشف أن إبليس هو الذي يقود تصرفات الشيخ كان قد توغّل بعيداً ووجد أن التوبة مستحيلة. هل تعرف لماذا؟ لأنه ارتكب إثماً لم يقدر أن يغفره لنفسه.

توقّف شيخ الزاوية عن المشي، وواجه آدّه بعينين كئيبتين، زحف عليهما البياض بسبب الزهد والاعتزال الطويل.

قال بحرارة مفاجئة:

ـ الإثم ارتكبه في حقك أنت.

نكس الزعيم رأسه. نزلت غلالة على رؤوس الجبال فأعارت للسهل العتمة.

قال شيخ الزاوية:

ـ لم يغفر لنفسه أنه حرمك من الدخول إلى الصحراء الوسطى والعودة للقبيلة طوال هذه السنوات، ولكنه اعترف لي أنه حَرَمَك من العودة للحرية. وليس من سبيل في الدنيا لإصلاح هذا الخطأ.

ـ إنه يبالغ. بَالَغَ رحمه اللّه. صدّقني.

ـ لم يسدد الطعنة للقلب إكراماً لك، وإنما أراد الخلاص هَرَباً من بدن ملوّث بالإثم. حدَّثني كيف رفع في وجهك السيف حتى لا يدعك تعبر الجبال الزرق. ثم. . قرأ العلامة في الترفاسة.

ـ الترفاسة؟

ـ قال إنه عثر على الترفاسة عقب مصرع الشيخ الأكبر بأيام. ورأى أنه إذْنٌ إلهيٌّ بالخلاص.

ـ لا حول اللّه.

ـ أخبرني أيضاً عن رأيك في الحرية. وقال إنكما اتفقتما أنها لا تتمّ إلاّ في الجحيم.

ـ الجحيم؟

ـ أقصد في الصحراء. وما هي الصحراء إنْ لم تكن جحيماً؟ هل تستطيع الصحراء أن تؤوي الزهّاد وتصبح واحة المعتزلة لو كانت بستاناً أخضر؟ عندها ستصبح جنّة الدَهْمَاء وفردوس المجوس.

وافقه الزعيم بهزّة من رأسه وأنصت للسكون.

٢ ـ الشّكوة

«عجن الإلّه جسد الإنسان من الطين وصعد إلى السماء كي يعود له بالرّوح لإحيائه، تاركاً خلفه الكلب لحراسة البدن أثناء غيابه. في هذا الوقت جاء إبليس ونفخ في الكلب ريحاً باردة فخدّرته. دثّره بغطاء من فرو حتى يضعف يقظته، ثم بصق على بدن الإنسان وغمره بالقاذورات إلى حد جعل الإلّه يشعر باليأس لاستحالة تطهير الجسد من العفن الشيطاني. من هنا قرر الإلّه أن يقلب جلد الإنسان ويجعل ظاهره في باطنه. هذا هو سبب عفونة باطن الإنسان».

من أساطير الهنود الحمر
نقلاً عن جيمس فريزر. «الغصن الذهبي»
«الفلكلور في التّوراة»
المجلد الأوّل من الموسوعة الثالثة

(١)

لم يزره الشيوخ لأنهم رأوا أن مرضه ليس ككل الأمراض. الدّاء معيب ولا يُعتَرف به في شريعة النبلاء. ما أعجب هذا التناقض في سلوك الشيوخ النبلاء! لا يعترفون بالرجل ولا يسلِّمون بنبالة الفارس إلاّ إذا وقع في العشق وعبد النساء، فإذا صرعه العشق، وسقط مريضاً احتقروه وسخروا من آلامه. فالفارس ليس فارساً إذا لم يعشق، وهو يكفُّ عن أن يكون فارساً أيضاً إذا غَلَبَهُ العشق. العشق ساحة أهل الصحراء لاختبار الفرسان: مَنْ صمد فيها نجا وفاز بالمجد، ومَنْ خَرَّ وركع نال الاحتقار وقصائد العار.

عرف أنهم يتسقّطون أخبار حالته، بل إنه لاحظ كيف حام بعضهم حول الخباء في الليالي الظلماء.

في الأيام الأولى للحمّى بعثوا له بالشاعرة فعزفت له ألحاناً شجنيّة فزادت الحمّى واشتعل جسمه بالنّار أكثر مما سبق. جاءت فرقة الصبايا وقمن بعزف الألحان المخصصة لإرواء أهل الوجد والجذب والواقعين في قبضة الجنّ. نام ليلتها بعد انسحاب الصبايا ولكن لونه ازداد شحوباً وذبولاً في الصباح. عادت الصبايا مع المغيب فقام آخماد وطردهن من الخباء.

ساعتها رأى العقلاء أن يرسلوا الإمام.

أقبل في أُمسية عتماء، يدحرج الحجارة بنعله القديم، ويحاول، طوال

الوقت، أن يثبّت لثامه الأبيض على أرنبة أنفه المعقوف. الشّاش ينزلق من الأرنبة حتى يستقرّ على الشفتين في كل مرة. ولكن الإمام لا يكفُّ عن المحاولة، فيعاود شدّ الطرف إلى الأنف. انتهر جَمْعَ الشبان الذين تحلّقوا في مدخل الخباء، وأشار لآخماد أنه يريد أن يتحدّث إلى المريض على انفراد. جلس فوق رأس «أوخا» بجوار الركيزة وتمتم بآيات القرآن. تسلّى بحبّات المسبحة حتى ابتعد الشبّان عن الخباء. قال في الظلمة:

ـ يؤلمني أن أخبرك بأن الشيوخ مستاؤون ويرون أن هذا لا يليق.

سكت أوخا طويلاً قبل أن يعلّق بصوت نال منه الجوع:

ـ وهل يملك العبد اعتراضاً أمام مصاب اللّه؟ المرض هو المرض. رسول ربّي.

ـ مرضك ليس ككل الأمراض.

ـ مرضي أسوأ الأمراض!.

ـ أين أوخا؟ أين إرادته التي نالت من مجوس الأدغال؟ أين يمينه التي كسرت شوكة بني آوى؟ أين أوخا الفارس؟

ـ إرادة الفارس تنفع مع مجوس الأدغال وبني آوى ولكن هل تصلح، يا سيدنا الفقيه، مع أميرة آير؟

ـ أنت سبب كل ما حدث. ظللت تراوغ وتحوم حولها حتى لعب برأسها ولد الأتباع وخطف قلبها من بين يديك، فحدث معك كما حدث مع الهرة التي اصطادت فأراً.

تنحنح وسعل واستمرّ:

ـ في أحراش عيون «آدرار» رأيت كيف اصطادت هرّة صغيرة سوداء فأراً شقيَّة. وبدل أن تفترسها وتمزّقها بمخالبها راقبتها من أعواد الدّيس كيف بدأت القطة الخبيثة تتسلّى بضحيتها وتقلبها بمخالبها على بطنها، ثم تتركها

تفلت وتقطع مسافة فتلحقها وتمسك بها مرة أخرى. واستمرت الهرّة «تلعب» بالفأرة المسكينة طويلاً، وفي لحظة قرر القدر أن يقتصّ من الهرّة فقفزت الفأرة واختبأت في جحر. هل تدري ماذا حصل مع الهرّة؟ نزلت الظلمة فقضيت ليلتي هناك، في أطراف الواحة، لأبكّر في الغد إلى السوق. ولكن الهرّة البلهاء لم تتركني أنام تلك الليلة. ظلّت تموء وتبكي وتحوم حول الحفرة حتى الصباح، غير مصدّقة أن الفأرة يمكن أن تنجو منها بهذه السهولة. ولكن الفأرة نجت بسبب استهتار الهرّة نفسها. هل فهمت؟

- . . . .

- المرأة كالفأرة، إذا وقعت بين يديك فانجُ بها، لأنك إنْ لم تفعل فستفلت حالاً، لأن ثمة رجلاً دائماً سيسبقك إليها، إذا لم تبادر في الوقت المناسب، ويخطفها من بين يديك.

- الحقّ أني انتظرت معونتك بحرزٍ وها أنت تزيد من آلامي!

- المصاب الوحيد الذي لا يفيد فيه حرز. لم يعتدِ عليك جنّ ولا خرج لإفزاعك شبح. ولا حيلة للفقهاء في مَرَدَة الأفئدة. بيننا وبينها حجاب كثيف يا ولدي. ولكن قلْ لي: أَلَمْ تجرّب طريقة لإبعاد ولد الأتباع عن طريقها؟

- كيف؟

- اطلبه للمبارزة. لن يلومك أحد إذا قطعت رأسه في مبارزة.

- بل سيعيبون عليَّ مبارزة ابن قبائل الأتباع. الفارس لا يبارز إلّا الفارس.

سكت الإمام. تحرَّك القِبْلي فرمى في وجهه زوبعة مفاجئة من غبار. همهم بآيات أُخرى لتطهير مركبات الريح من فرسان الجنّ، ونطق بآخر اقتراح:

- إذنْ لم يبق أمامك إلّا الرهان.

- الرهان؟

ـ نعم. أقـدم قـاضٍ في الصحـراء. ولكن انتـظر: مـاذا ستعـطيني إذ نجحت خطتي؟

نهض أوخا من الفراش. مـدّه الأمل بـالحياة وشـعّ في عينيه بـريق. قال بصوت راجف:

ـ أعطيك. أعطيك ما شئت. اطلب!

ـ ثلاث من النوق البيض ومهري و«إيلشّان»(*) جديدة.

ـ توقعتك أن تطلب أكثر.

ـ أنا رجل قنوع.

ـ والآن حدثني عن الرهان. هل هو من اقتراح الشيوخ؟

كوَّر الإمام المسبحة في يده وقال بعد صمت:

ـ راهنه أن يصعد قمة «ايدينان».

هيمن صمت. سمع الإمام أنفاس أوخا المتتابعة، المتوترة. زفـر الريـح فخنق الأنفاس. قال أوخا أخيراً:

ـ ولكنه شيطان الجبال. أنت تعرف أن أوداد(**) كنيته وليس اسمه. سمّوه أوداد بسبب براعته في تسلّق الجبال. في هذا الرهان مخاطرة.

ـ هذا ليس شأنك.

ـ كيف؟

ـ في الأمر سرّ.

ـ سرّ؟

ـ هذا ليس شأنك. ألا تثق بي؟

(*) إيلشّان: طقم الثياب الزرقاء الاحتفالية.

(**) أوداد: الودّان.

ـ وإذا صعد؟

ـ لن يصعد.

ـ إنه ودّان يا سيدنا الفقيه. أنت لم تره وهو يصعد الجبل جرياً.

ـ لست في حاجة لأن أراه. أنا أثق باللّه وبالسرّ.

ـ السرّ؟

ـ نعم.

ـ وما هو؟

ـ لن يبقى السرّ سرّاً إذا انكشف لاثنين. السرّ سرّ ما ظلّ في رأس مخلوق لوحده.

صمت العاشق. تكلّم بعد زفرات:

ـ أخشى أن أخسر الرهان. سأفقد الأميرة.

قال الإمام بيقين:

ـ إذا كنت لا تريد أن تثق بي فثق بالسرّ. مَنْ لا يثق بالسرّ لا يثق باللّه.

ـ أستغفر اللّه.

(٢)

ولكن قلب العاشق لم يطمئن. إذا خسر الرّهان وتمكّن الجني أوداد من صعود اللّوح الحجري فإنه سيفقد معشوقته إلى الأبد. هكذا حدّثه الوسواس في ظلمات تلك الليلة. تثاءب واسترخى حتى ظنّ أنه أغفى، ولكن الوسواس عاد وقال له قبيل الفجر همساً: «الحياة نفسها قمار. لا يفوز بها إلاّ مَنْ وجد في نفسه الشجاعة أن يقامر بكل شيء. حتى برأسه. لا ينقذ رأسه إلاّ مَنْ راهن برأسه».

تحيَّر العاشق وتردد بين الوسـواسين. الأوّل يحذّر وينـذر والثاني يشجّع ويدفع.

زاره آخماد فوجـده في أسوأ حـال. التذبـذب في اتخاذ قـرار والتردد في حسم أمر مَـرَضٍ أسوأ من العشق.

تقـدَّم وكوَّم الحـطب في الأرة. أشعل النّـار في المـدخـل وجـاء بـأواني الشاي من زاوية الخباء. قال:

ـ ظننت أن سلاح الفقيه أقـوى من معاقـل الجنّ، ولكني أرى أن زيارته لم تحسّن الحال.

ـ قال إن العشق مارد في الفؤاد ولا صلة تربطه بالجن وباقي المخلوقات الصحراوية الضارّة.

ـ ألم يكتب حجـابـاً؟

ـ رفض واقترح الرهان.

ـ الرهان؟

ـ قال لم يبقَ لي إلاّ دعوة أوداد لقبول رهان غامض: وضع قمة «ايدينان» قـاضياً بيننـا. إنْ صعدهـا تخليت له عن المـرأة وإنْ فشـل انسحب هـو من الساحة.

قفز آخماد. هتف:

ـ هذا جنون. اوداد جنّي يستطيع أن يتسلّق السماء نفسها بدون رهان.

ـ الوسواس قال ذلك أيضاً.

ـ الوسواس؟

ـ النذير الخفي حدثني بأشياء كثيرة البارحة.

ـ على ذكر النذير. أقترح أن تنتـظر وترى بمـاذا سيشير. لا أعـرف لماذا أشعر بميل إليه أكثر من ميلي إلى الفقيه.

سكت أوخا. أرهقته المحاورة فسحب نفساً عميقاً، ثم سأل:

ـ النذير؟

ـ وافق مجلس الشيوخ على تدخله البارحة.

ـ وهل تستدعي زيارة النذير موافقة الشيوخ أيضاً.

ـ لأنه لن يأتي في زيارة للاطمئنان أو المواساة وإنما للفحص والعلاج.

ـ وهل يستطيع النذير أن يجد لغة مع مارد الفؤاد؟ هل ينجح حيث فشل الفقيه؟

ـ ولِمَ لا؟ كل إنسان معقل فريد. النّفس كنز، وفي قلب كل إنسان ينام سرّ كبير.

أسند «أوخا» رأسه بيديه النحيلتين، ومدَّ جسده الذابل حتى ركائز الزاوية فتقلَّص قلب آخماد من الشفقة. كان جسمه هيكلاً من العظام. تلألأت دموع في مقلتيه الغائرتين في محجرين عميقين وردّد لنفسه:

ـ آه يا آخماد. أنت لا تعرف كم افتقدت الزعيم. لو كان الشيخ آدّه بيننا...

ولكنه لم يكمل. أسدل طرف العمامة العلوي على عينيه وسكت.

(٣)

طلب النذير أيضاً الاختلاء بالمريض.

أقبل مع الغسق وحيداً. بدون عكّاز. يقوده قلبه كما يروق له أن يقول. يجرّ الرّفيغت(*) على الأرض، ويبدو في ثناياه الفضفاضة أكثر نحافة ونحولاً. تربّع في المدخل. أخرج تبغاً مطحوناً مدسوساً في صرّة صغيرة

(*) الرّفيغت: الجلباب الفضفاض الأبيض الذي يُلبَس في الأيام العادية.

من الجلد. تناول حفنة برؤوس أصابعه ودسَّها تحت لسـانه. طلب صـرف الفضوليين وانتظر.

انتهى آخماد من إبعاد الشبّان وعاد يتقرفص في المدخـل. راقب النذير وهـو يتسلّى ويلوك التبغ ويحـدّق بعينيه الفـارغتين في حمـرة الشفق. طـال وجوم النذير ففهم آخماد. قام وانسحب.

ابتعد آخماد فسمع أوخا صوت النذير:

ـ يقتات ابن آدم أنبل الطعام وأنقاه، وتقتات البهائم أرذل الأطعمة وأسوأ الأعلاف، ومع ذلك فالغـذاء النبيل يتحـوّل في جوف الإنسـان إلى فضلات أكثر عفونة من روث البهائم. فهل تعرف لماذا؟

صوته نقي. فيه نبل وجـلال ونبرة أخـرى خفية. لم يخـطىء الزعيم في اختيـاره نذيـراً للقبيلة وحامـلاً للبشارة. تلذّذ أوخـا بنغم الصوت كمـا يتمتع بالغناء فغفل عن المعنى فلم يفهم. قال:

ـ لا أفهم.

ـ الإثم. الإثم هـو الـذي حـوّل فضـلات الإنسـان إلى سمـوم وعفـونـة وديـدان. الإثم هـو الـذي سمّم البـدن. فـاعلم أن المخلوق الآدمي كـائن مشطور إلى جرابين، إلى قربتين، أو فلنقل شكوتين. أُفضِّل الشكوة. البدن هو شكوة العفن والشهوات. وفي الرّوح شكوة الإثم والخطيئة.

ـ يا حفيظ!

ـ فماذا استهواك في الطفلة الآيرية: شكوة العفن أم شكوة الخطيئة؟

انتفض أوخا. عصرت قلبه يد جنيّـة حتى نَزَف دمـاً. نزَّ جسمـه بالعـرق وطفق يـرتجف. حاول أن يتكلّم، أن يحتـجّ، أن يستنكر، ولكنـه عجز عن النطق.

نادى الصوت الجميل، كأنه ملاك من السماء أو رسول من اللّه:

ـ نعم. أنت لا تعشق حسناء من آير. أميرة فاتنة من أم خلاسية حبشية.

أنت وقعت في غـرام كتلة من اللحم والدّم والشحـوم والفضلات والسـوائل الكريهة التي تثير الاشمئزاز. شكوة كبيرة من العفن. ها.. ها..

زلزل رأس أوخا الصداع. انكفأ بجوار الركيزة وبدأ يتقيأ أمعاءه الخاوية. ولكن الصوت الغنائي، الصافي، الجليل، لم يرحمه:

ـ ستتحايل وستقول لنفسك: «أنـا لا أعشق الجسد. أنـا أعشق الجوهـر النقي. أعشق الـرّوح». هذه خـدعة أُخـرى. هذه أُكـذوبة أكبـر. فالشكـوة الأخرى المخفيّة في شكـوة العفن هي أقبح وأبشـع. هي أصل البـلاء التي أمـرت جدّنـا الأوّل بـالسـوء فـذهب وذاق الحـرام. هي سبب ضيـاعنـا في الصحـراء وغربتنـا الأبديّـة. حسناً. ألم تغـوك بنت آير وتستهـويك قبـل أن تهواها؟ والآن: مَنْ أشاح عنك بوجهه من أجـل ذلك الشبح الأخضر الذي يسكن شقوق الجبال؟ إن فتاتك الشيـطانية تتلقى الـوحي من شكوة الغـواية والخطيئة.

صرخ أوخا بوحشيّة غريبة:

ـ اسكتْ. ابتعدْ. مَنْ أنت؟ هل أنت وسواس رجيم؟

قفز إلى العراء. انحلّت عقدة عمامته فتهاوَت إلى الأرض فجرَّها وهرول في الخـلاء. ثم انتبه إلى العمـامة فتـوقف فزعـاً. غلبه التعب والهمُّ فـانهار وركع على ركبتيه محـاولاً أن يلفَّ اللثام حـول رأسه. أدركـه النذيـر. وقف فوق رأسه وقرأ نبوءته القاسية كأنه يقرأ تميمة مجوسيّة:

ـ تهرب من الحقيقة فهل تستطيع أن تخرج من نفسـك؟ تتعلّق بالأوهـام وتريد أن تبرأ من الدّاء. تريد الخـلاص بلا ثمن كـأي عبد. أنت عبـد. إذا أردت أن تشفى من السّقم، إذا أردت أن تستعيد النبل الضائع فـاذهب الآن إلى تينيـري وقلْ لهـا: «أنت دم. أنت بول. أنت مخـاط. أنت قيـح. أنت دود. أنت فضلة أعفن من روث البهـائم!». أعِدْ الآن وكـرِّر ورائي إنْ كنت حرّاً...

إنكفأ العاشق وعاد يتقيأ أمعاءه. توسَّل:

ـ لا أستطيع. هذا بشع. هذا رجس. ابتعدْ. إمشِ من هنا!.

ـ لن أمشي حتى تصير رجلاً. العشق كالخمر، وهْمٌ وكذب. إذهبْ وقلْ لها: «أنتِ عفن يا تينيري فكيف أُحبّك؟». فإنْ عجزت فاعلم أنك لا تريد أن تفيق من خمر العشق، من الوهم والكذب، وإلاّ أي حرّ يستطيع أن يعشق شكوة من الفضلات، وشكوة أخرى داخلها من الآثام؟ كَرِّرْ هذا في نفسك عشر مرّات ثم اذهبْ وقُلْه في وجهها.

زحف أُوخا على الحجارة مستعيناً بيديه. حاول أن ينهض على قدميه ولكن الوهن أعاده إلى الأرض فخرّ من جديد. تلعثم بلسان متعثر:

ـ ما أحلى صوتك وما أبشع كلامك!

عاد النذير يلاحقه بالنبوءة السماوية:

ـ بل كلامي أحلى من الصّوت. أنت لا تريد أن تعرف مرضك فكيف تطمع في الشفاء؟ إذا لم تجرِّب وتعيد: «أنتِ شكوة عفنٍ وشكوة إثم يا تينيري فكيف أحبّك؟» عشر مرّات لن تفوز بالشفاء. ستظلّ عبداً لامرأة، ظلاّ لشكوة عفن. لن تتحرر ولن تعود نبيلاً.

ـ أنت أعمى! أنت تقول هذا لأنك أعمى!

ـ لو لم أكن أعمى لما رأيت الشكوة. رأيتها أنا بالبصيرة وعجزت أنت أن تراها بالبصر. فمَنْ منّا الأعمى: أنا أم أنت؟

توجّع أوخا بأنين فاجع ولكن النبوءة القاسية بقيت معلقة فوق رأسه كالقدر.

(٤)

بعد الطعام صام عن الكلام.

لم يتبادل مع آخماد كلمة واحدة طوال ثلاثة أيام. وفي اليوم الرّابع تحامل وحاول أن يسرج المهري بنفسه. هَرَع إليه آخماد وعدد من الرفاق

ولكنه قال إنه قرر أن يخرج للمراعي للاستشفاء. اقترح آخماد أن يرافقه ولكنه رفض.

جلس على السرج ابتلع جسمه النحيل. راقبوه، مع الضّحى، وهو يتوجّه عبر طريق الشرق الذي يمر بين الجبلين القرينين ويعبر إلى تادرارت. بدا، من بعيد، مثل شبح بائس.

في تادرارت تسكّع على السفوح. تنقّل بين قبور الأسلاف المستديرة. رآه الرعاة يزيح الصخور عن عظام الموتى ويقف هناك طويلاً خاشعاً. وفي بعض الأحيان يختار صخرة مناسبة للجلوس، ويظلّ يحدِّق، كالمعتوه، في فوهة القبر. لم يفت الرعاة الفضوليون أن يتسللوا وراءه ليعرفوا ماذا يراقب هناك. ووجدوا أنه يخرج جمجمة أو عظمة رجل الميت أو معصمه من حفرة القبر ويتركها تلمع أمامه تحت الشمس. يراقبها في جلسات طويلة تستمر، أحياناً، من الصباح حتى المساء. وروى أحد هؤلاء الرعاة أنه زاره في ليلة ضحياء سَطَعَ فيها البدر حاملاً رغيف الشعير وفخذة مشوية من لحم الودّان فوجده يقلّب جمجمة مخيفة بين يديه. وعندما أفاق من خشوعه ارتبك ودسّ الجمجمة في كمّ جلبابه الواسع وزمّ شفتيه ولم يبادل الزائر كلمة واحدة طوال الجلسة.

روى رعاة آخرون خرافات أبشع عن سلوكه هناك. أقسموا أنهم رأوه يحمل الجيف وجثث الحيوانات العفنة على ظهره ويكدِّسها أمام كهفه في الجبل ليراقب كيف تتحلل وتتعفن وتدبّ عليها الديدان والحشرات. وقالوا إن رائحة العفن أصبحت لا تُطاق خصوصاً إذا هبّت الريح من جهة الغرب. وقيل إنه كان يتسلّق القمم ويصطاد الودّان لا ليأكله وإنما ليتركه ينتن ويتعفن أمام كهفه. فوجد الرعاة أنفسهم مضطرين أن يتركوا له تادرارت كلها ويرحلوا إلى وديان متخندوش ومساك ملّت.

ولكن ما رواه الدرويش كان أقبح من كل الروايات.

قال إن راعياً حكيماً أخبره بسرٍّ شفاء أوخا. وأقسم بتانس وامناي وسيدي

ـد القادر الجيلاني أنه رأى بعينيه، اللتين سيأكلهما الدّود، أوخا المكابر
ـركع على جيفة زرقاء تتراكض فوقها الديدان، وتعافها حتى الغربان،
ـقتطع منها لحمة بالسكين ويأكلها مهمهماً لنفسه بكلام مبهم كأنه تعاويذ
مجوس.

وقال الدرويش إن الرّاعي تقيّأ أمامه طويلاً بعد روايته البشعة. تقيأ
ـدرويش أيضاً، كما تقيأ واستنكر واستبشع كل مَنْ سمع بهذه الرواية
وحشية.

(٥)

ولكن شفاء أوخا وعودته إلى النجع بعد عودة العافية إليه جعلت الكثيرين
ـؤمنون بالرواية الوحشية ويصدّقون السرّ الذي أذاعه الدرويش.

عاد أوخا بمزاج جديد حقّاً. داعب آخماد وتبادل مع الرفاق والأتباع
لنّكات والضحكات عند وصوله. أكل الشواء بشهيّة من الذبيحة التي نَحَرَها
على شرفه الشبّان، وشرب قدحاً كبيراً من اللبن، وفي الليل رفع صوته
ـأغنية شجنية من ألحان: «هلي ـ هلي» دون أن يحزن أو يبدو عليه ما
ـومىء إلى الانفعال الوجدي. في تلك الأمسية أيضاً اقترح المباراة
الشعرية. وقد تابعه آخماد والشبان بدهشة طوال الوقت. وسألوا بعضهم
بعضاً بالنظرات عن المعجزة التي نزلت على رأسه في المراعي وأحدثت
فيه هذا التحوّل. غادرهم شبحاً من دنيا الموتى وعاد لهم إنساناً نبيلاً يجري
الدم في وجنتيه وتتألق البهجة والحياة في عينيه. يداعب الأصحاب
بالفكاهة ويغني مواويل الفرح في الليلة الضحياء. ذهب صائماً يمتنع حتى
عن شرب الحليب وعاد أكولاً مفتوح الشهيّة يتمتّع بشواء الذبائح.

تهامسوا كثيراً وتساءلوا عن السبب، وانتهوا جميعاً إلى أن في الأمر سرّاً.
لم تقنعهم خرافات الرعاة، كما استبعدوا قصة الدرويش الوحشية عن أكل
الجيفة. توقفوا عند زيارة النذير طويلاً، واستعادوا سلوك المريض عقب
الزيارة، حيث امتنع عن التعليق وصام عن الكلام، وأجمعوا، في النهاية،
على أن السرَّ في الزيارة.

بعد يومين شوهد أوخا يتسلل إلى خباء النذير في عتمة الغروب فأيقن الأصحاب أنهم كانوا على حق.

(٦)

لا أحد عرف ما دار بينهما. ولكن القبيلة كلها تحدَّثت بما دار بينه وبين الإمام عندما التقيا في العراء عقب خروج أوخا من خباء النذير.

بادره الإمام حانقاً:

ـ أراك تترك شرع السماء وتحتكم إلى نذير السوء والمجوس.

ـ أستغفر اللّه. لم يكن نذير سوء يوماً، كما لم يعرفه أحد مجوسياً.

ـ لم يبشّر النذير بنبأ الفرح من يوم دخل القبيلة.

ـ أعترف أن صوته جليل وسماوي!

ـ الخزي! صوت إبليس أيضاً جميل ولكنه يستدرج إلى جهنّم.

ـ لماذا يتحامل الفقهاء على المساكين؟ الكل يعرف أنك لا تطيق الأولياء: لا هو ولا الدرويش.

ـ الخزي! لم نتقاسم ورثة حتى نختلف كما لم أتداين لا معه ولا مع الدرويش فمَنْ يروِّج لهذا الكذب؟ مَنْ لقَّنك ضدّي؟.

ـ ليس عندي سبب واحد يقلب صداقتنا إلى عداوة.

سكت الإمام. تمشيا في الخلاء. اجتازا البيوت واتجها إلى الفضاء المؤدي للجبل. عاد الإمام يقول:

ـ رحم اللّه أباك. كان صديقي حقّاً. ولكنك أثبتّ أنك أقل منه نبلاً بكثير.

ـ . . . .

ـ الخوف ليس من طينة البنلاء.

ـ الخوف؟

ـ نعم. أنت لم تراهن بسبب الخوف من الخسران فقط وإنما بسبب لبخل أيضاً.

ـ البخل؟ لغتك، يا سيدنا الفقيه، لغة رجل يريد أن يستفزَّ رجلاً كي يدعوه إلى المبارزة. هل يسمح لي العرف أن أبارز الإمام؟

مضى الإمام في الاستفزاز:

ـ أنت خفت أن تكسب الرهان وتدفع لي الكراء الذي طلبته مقابل السرّ.

ـ وهل يملك الكراء وزناً لفارس كسب الحسناء؟ متى كان النبيل يحسب مالاً مقابل الفوز بمعشوقته؟ قلْ إنك تريد أن تطلبني للمبارزة.

ـ ها.. ها.. تهرب من الكراء وتحتمي بتعاويذ المجوس. ثم تعود لتحدثني عن النبالة وقلوب المعشوقات والحسان. ها.. ها.. فضّلت تمائم المجوس لأنك لا تنفق ثمناً لها إلاّ أن تنبش قبور أجدادك وتلحس جماجمهم وتقتات الجثث والجيف!. ها.. ها.. ها.. قل لي..

مسح الدموع من عينيه وأكمل:

ـ لا أريد منك اعترافاً ببخلك الآن. ولكن قلْ لي بحق المرحوم أبيك: هل ذُقْت طعم الجيفة والديدان؟ ها.. ها.. بأي حيلة أجبرك الساحر أن تقتات لحم الأموات بحثاً عن الشفاء؟ هيء.. هيء..

ألقى برأسه إلى الوراء وضحك بصوت عالٍ. توقف أوخا وحاول أن يقاوم ناراً اشتعلت في جوفه وصعدت إلى رأسه. كتم غيظه وقال بصوت مخنوق:

ـ يعيب رجلاً فقيهاً وحكيماً وعالماً أن يردد تشنيعات الدرويش.

ـ ولماذا يشنّع عليك الدرويش؟ لقد اعترفت بنفسك منذ قليل أنه وليّ اللّه.

ـ الدرويش لا يحبني. أنت تعرف.

عاد الإمام إلى الاستفزاز:

ـ ليس الدرويش وحده مَنْ يردد ذلك. القبيلة كلّها تعلم. ارتكبت خطأ كبيراً يوم ظننت أن ثمة سرّاً في الدنيا يمكن أن يظلّ سرّاً إلى الأبد. ها أنت ترى أن اللّه بعث لك برسول خفي في صحراء جدباء عارية ليذيع سرّ الجيفة بين النّاس. هيء.. هيء.. هيء.. تخيّل موقف معشوقتك الأميرة وهي تسمع من الخدم والعبيد وهم يتحدّثون بقصة الفارس أوخا وهو يقعي فوق جيفة وينهش لحمها كالكلب! ها.. ها. البخل جعلك تهرب من دفع الكراء وتقتات الجيفة. الشاعرة بدأت في نظم قصيدة ستلحق بك العار إلى الأبد. هيء.. هيء.. أُراهن أن الشاعرة انتهت الآن من القصيدة.

انصرف أوخا. ترك الإمام واقفاً في الظلام، يتلوّى من الضحك.

٣ ـ شرائع الأرض
وشرائع السماء

«الخبث والزيف هو ما تكرهه الآلهة».

برت اميهرو ـ «كتاب الموتى»

(١)

كل القبيلة لاحظت، بدهشة، هذه البهجة.

فيوم خرج النذير ناعياً العرّافة، مردداً، بصوته السماوي النبيل، «تيميط سبقتنا»، كان وجهه يزفُّ بشارة. اللسان ينطق بالنعي والوجه يزف البشارة. لم تكن بينهما عداوة تبرر الشماتة، بل لم تكن له عداوة بمخلوق في الصحراء. فما سرّ البهجة يوم الحداد؟

خرج بالنبأ في الفجر. طاف البيوت، واقتحم «واو»، ودبَّ في العراء المجاور للجبل المسكون. ارتدى لباس الحداد: لثام أسود، وجلباب فضفاض أسود. السروال الواسع أيضاً أسود. أخفى عينيه الفارغتين باللثام ولكن لا شيء يستطيع أن يخفي ابتهاج الإنسان. الفرح يهتّك اللثام عن الوجه ويمزق الطرف من العينين. بهجة السعادة تعرّي القلب وتفضح الصدر. لم يتوقف عن قراءة النداء الجليل: «تيميط سبقتنا»، فاستجابت «واو». خرجت طائفة من النساء تتقدمهن الأميرة. وتبعها رتل من الرجال. تجمّع الرجال في النَجْع ورفع الإمام صوته بالأذان. تمتمت العجائز بآيات حرَّفها نطق العجم وجهل الفقهاء بلغة القرآن. تحرَّكت الجموع إلى بيت المرحومة. وكانت مفاجأة للجميع عندما عرفوا أنها ماتت مقتولة.

(٢)

إذا أُعلنت وفاة مفاجئة في الصحراء فإن الأسباب لا بدَّ أن تكون أحد لاثة: أفعى أو عقرب أو ضربة من جنّ شرير.

ولكن العرّافة سبقت إلى المجهول، مذبوحة، بمديتها السريّة.

جاء القاضي بابا وشقَّ الجموع بمساعدة رجاله. دخل وتفحَّص لضحية: كانت العرّافة تستلقي على ظهرها. ممدّدة على طول قامتها. أسها ملقى في الزاوية، ورجلاها موجّهتان نحو الركيزة. الرأس عارٍ، الخرقة الزرقاء ملقاة بجوارها، ملوّثة بالدّهن ومعفّرة بالتراب. عيناها سبلتان كأنها تغطُّ في نوم عميق. تقاسيم الوجه هادئة، ساكنة، باستثناء وتر في الجفنين وشحوب عند الوجنتين. ضفائر شعرها الأكرت، الموشّاة الشيب، تنسدل وتغطي العين اليمنى، ولكن قصر الضفائر لم يمكّنها من لوغ الرقبة النحاسية المشطورة بقناة الدّم التي حفرتها المدية السريّة. الجيد النحاسي مطوّق بعقد من الخرز المتعدد الألوان، غرق طرفه الأيسر في قناة الدم. ويبدو أنّ الجسد مال إلى الجنب الأيسر لأن نهر الدم سال إلى الجهة اليسرى فغمر طرف الثوب العلوي المنحسر عن الكتف النحيل، وصنع على الرمل بركة صغيرة قاتمة امتصتها الحبيبات الظمأى فتيبّست دماء البركة من أطرافها. أمّا المدية الوحشية فوجدت مغروسة بجوار الأذن اليسرى أعلى البركة، وغاصت في التراب حتى المقبض المحصّن بالرموز والتعاويذ فوق غلاف محكم من الجلد. اليد اليسرى تسترخي فوق الفخذة مفتوحة الأصابع، في حين تتشبّث قرينتها اليمنى بكوم من التراب بعناد يقدّم البرهان على وحشية الموت وحرارة النزع الأخير.

تقدّم القاضي وتناول المدية. تفحَّصها في ضوء المدخل. تشبّثت ذرات الرمل بالنّصل الدامي، وتيبّس التراب على طول الحدّ المسعور الذي جرَّه القاتل على الرقبة وحفر به قناة الدم في الجيد النّحاسي. أشار بابا إلى كبير العسس فتقدّم مارد من الأتباع وألقى بلحاف أسود على الجثمان. أشار

بسبابته إشارة أخرى للعسس فبدأوا يبعدون الفضوليين عن فم الخباء. وصل الإمام وعدد من شيوخ القبيلة. في الخارج تحلّق جيش الفضوليين وضرب حصاراً حول الخباء. ارتفعت الشمس قامة وارتفع معها نداء النذير:

ـ العرّافة سبقتنا.

اختلى الإمام بالقاضي في زاوية الخباء. خرج القاضي بعدها إلى الجموع. بحث عن الأميرة لحظات ثم تقدّم منها وتبادل معها الهمسات. عاد إلى الخباء وأمر كبير العسس ملوِّحاً بيده المبتورة:

ـ اقبضوا على الدرويش!

(٣)

في العشية بدأ الاستجواب.

تربَّع القاضي على فرش مغطى بنطع. جلس على يمينه وشماله عدد من وجهاء «واو». في الساحة الفسيحة تجمهر النَّاس: جاء شيوخ القبيلة وبعض رجالها، كما أقبلت بعض النساء الجسورات يجرجرن أطفالهن. قاد ثلاثة من العسس الدرويش مشدوداً بحبلٍ من مسد. يداه ملويتان بوحشية إلى الوراء ومقيدتان إلى ظهره. مَثَلَ أمامَ القاضي برأس حاسر. لثامه أيضاً ملتف حول رقبته كثعبانِ الأدغال. وجهه معفَّر بالغبار. الشعر الذي يشطر رأسه إلى نصفين وصُفِّف كعرف الديك ملوث أيضاً بالطين والتراب. ازدادت عيناه البائستان غوراً. سال من فمه اللعاب وعلت شفتيه طبقة من الزَّبد. رفع بابا يده المبتورة في وجهه وسأل بوعيد:

ـ لماذا قتلت العرّافة؟

عن يمينه انحنى مساعده ودوَّن كلاماً في قرطاس كبير أصفر اللّون. دوَّن السؤال بقلم أصفر أيضاً مستقطع من عود القصب.

أجاب موسى بكلمة قاطعة:

ـ لم أقتلها.

لوَّح القاضي باليد البتراء مرة أخرى قبل أن يسأل:

ـ ألم تسرق هذه المدية؟

أخرج من كمّه الواسع المدية السرية. لـوَّح بها في وجـه الدرويش بيـده اليسرى.

ارتفعت في الجَمْع همهمة مكتومة. قال موسى :

ـ نعم. لا أنكر أني سرقت المدية.

ـ لأي غرض فعلت ذلك؟

علا الهرج. سكت الدرويش. أعاد القاضي السؤال:

ـ قلْ: لماذا سرقت المدية؟

نزَّ اللعاب من شفتيه. نطقت عينه الحولاء بشقاء. انهار على ركبتيه وقال منكس الرأس:

ـ هذا شأني!

علت أصوات بالاستنكار. انتظر القاضي حتى هدأت مـوجة الاستنكـار، ثم عاد إلى الاستجواب:

ـ هل تنكر أن بينك وبينها عداوة قديمة؟

أجاب موسى فوراً:

ـ لا. لا أنكر.

ـ حسناً. الاعتراف بالذنب فضيلة في شرع القضاء. ولكن الإنكار. .

استعاض عن إكمال الجملة بوعيد من يده المبتورة. التفت إلى الـوجهاء وقال بصوت مسموع:

ـ هـل رأيتم؟ الاعتـراف بـوجـود عـداوة ركن الأسـاس في ارتكـاب أي

جريمة. والدليل. ها هو في يدنا. المدية التي اعترف أيضاً بسرقتها. أمامنا اعترافان: الاستيلاء على سلاح الجرم، والاعتراف بالعداوة القديمة. فهل ما زلنا في حاجة لأن نسمع من القاتل اعترافاً حرفياً بالجرم؟

دوَّن الكاتبُ النصَّ بعود القصب في القرطاس الأصفر. مال شيخ وقور على أذن القاضي وهمس لحظات. عاد بابا يعتدل في جلسته.

هرش مؤخرة عمامته متفكِّراً ثم قال:

ـ الاعتراف الكامل يخفف من العقاب، وقد عوَّدنا الدراويش أن ينطقوا بالصدق. .

قاطعه موسى بحماس مفاجىء:

ـ لم أنطق إلاّ بالصدق. اعترفت بالعداوة القديمة وسرقت المدية لمآرب أُخرى ولكني لم أقتلها. أقسم.

سكت القاضي. عمَّ وجومٌ في الساحة. تشاور بابا مع الشيوخ مرة أخرى قبل أن يسأل:

ـ سنعود بعد قليل لإيضاح الغموض. ولكن أجبني الآن على سؤالي: أين أخفيت الذهب؟

انتفض الدرويش:

ـ الذهب؟

ـ نعم. الجميع يعرف أن المرحومة اكتنزت من الذهب كثيراً. الذهب بنوعيه: التِّبر والمصنَّع في حلي الزينة.

قال موسى ببلاهة؟

ـ وماذا أفعل بالمعدن الحرام؟

ـ أنا هنا مَنْ يسأل ولست أنت. إذا سأل القاضي فلا يجب على المتهم أن يردّ عليه بسؤال. . أجب: أين أخفيت الذهب؟

نـزفت شفتاه زبـداً كثيفـاً. ازدادت العين الحـولاء حـولاً وشقـاء. تمتم بكآبة:

ـ لا يهمني الذهب. أنا أخاف أن ألمس الذهب.

اقترب منه بابا بوجهه وحدَّق في عينيه. غمز بعينه الماكرة وسأل بخبث:

ـ قيل لي أنك وقعت في العشق. قـررت أن تستميل قلب المحبـوبة فلم تجد إلاَّ الذهب وسيلة. أتفقُ معك أن الذهب هـو أفضل سـلاح للاستيـلاء على قلب المعشوقة. وأنا لن ألومك كثيراً إذا اعترفت بالحق.

كتم ضحكة ساخـرة وغمز بعينـه من جديـد. انحنى موسى على الأرض حتى سقط رأسه على صدره.

قال بيأس:

ـ أعرف أن الذهب هـو مصيدة النسـاء. وقد كـرهت النساء أيضـاً لأنهن يعشقن الذهب.

ـ ولكن قيل لي أنك وقعت في العشق! أَلَمْ تقع في العشق؟!

ـ كان ذلك حماقة. حماقة الـدراويش. ولكني وعدت الله أني لن أُكـرر الحماقة إلى يوم القيامة.

اقترب القاضي برأسه من رأس الدرويش. همس:

ـ لماذا؟ ماذا ستفعـل في الصحراء بـدون نساء؟ كيف ستقهـر الوحشـة؟ كيف ستقتل الفراغ؟ النساء مخلوقات سحرية. حيـوانات صغيـرة. ابتدعهـا الله خصيصـاً من ضلوعنا كي نتسلّى بهن ونتمتّع بوجـودهن. فكيف تـطيق حياة صحراوية خالية منهن؟

همس له موسى:

ـ رقيقات حقاً. صغيرات حقّاً. ولكنهن قاسيات كالوحوش. يقدن الرجل إلى جهنّم بسلسلة طـولها سبعـون ذراعاً دون أن يـدري. النسـاء لا يعشقن

الدراويش لأنهن لا يستطعن أن يصنعن منهم عبيداً كبقية الرجال البلهاء..

بلع ريقه بصعوبة ثم أكمل بصوت راجف، باكٍ:

ـ إنهن كالأفاعي: ناعمات، في حين أن لدغتهن قاتلة!

انفجر بابا في ضحكة عاصفة. سقط لثامه المخطط حتى ذقنه ولكنه استمرّ يضرب صدره بيده المقطوعة ويقهقه بوحشية لا تناسب الجِدّاد. تبادل الشيوخ نظرات دهشة. مال عليه أحدهم وهمس في أُذنه باستنكار ولكن القاضي لم يتوقف.

في النهاية توقف. مسح الدموع بظهر يده الأخرى وقال بمرح:

ـ أقسم لكم أنه درويش ظريف. ظريف وحكيم برغم كل شيء!.

سكت ونظر حوله في الساحة. اختفت الشمس خلف الأسوار ولم يبق إلّا فيض أشعتها الأرجوانية. تنقّل ببصره بين الجموع وقال بغموض:

ـ ولكن هذا لن يمنعنا من أن نجرِّب معه إيغايغان(*).

(٤)

لوى العسس حول صدغيه عمودين مصقولين من السدر. عادوا وأحكموا توثيق يديه حول ظهره. وضعوا حول عنقه حبلاً وحشياً من مسد أيضاً. حرص كبير العسس أن يعدّه بنفسه متعمّداً أن يصنعه على شكل الوهق الذي يروِّض به الرعاة الجدعان الباكرة والجمال الهوجاء.

جذبه كبير العسس من حبل المسد فندَّت عنه آهة أليمة. في تلك اللحظة تعلَّقت أبصار الجموع بعصا العذاب التي لوّح بها كبير العسس في الهواء. أحاط رجاله بالسجين من جانبيه. تفقّدوا عمودي السدر المثبّتين على صدغي الدرويش. في الساحة الواسعة، المزحومة بأهل الصحراء

(*) ايغايغان: من أساليب التعذيب عند الطوارق القدماء.

وسكّان «واو»، هيمن صمت الموتى. حتى الأطفال حبسوا الأنفاس، وانتظروا مع ذويهم لحظة نزول عصا الجزاء على العمودين الوحشيين. خلف الدرويش وقف القاضي مع رجاله. رفع يده المبتورة في الهواء فأنزل الجلّاد عصا العذاب على الطرف العلوي من العمود الأيمن. ندّت آهة وجع عميقة، أليمة، من صدور المتجمهرين. بكت نساء القبيلة بأصوات مخنوقة. أشاحت العجائز بالوجوه وزعق الأطفال بعيون مشيّعة، شاكية، إلى السماء. نزلت الصاعقة على عمود شجرة الجنّة. قدحت الشرر وأشعلت النّار في عصب الدرويش. لوّح الجلّاد بعصا الجان في الهواء وأنزلها على الطرف السفلي من العمود الأيسر.

اشتعل رأس الدرويش بالبروق. حرقه المسّ. قفز عالياً. وثب في الهواء. صرخ بصوت غريب لم يسمعه أحد من حنجرة إنسان:

ـ آ. . آ. . آ. . آ. . و. . و. . و. . و. . و. . . .

هوى على الأرض. تناثر الزبد على شفتيه.

في السماء بكت الملائكة.

شقّ المعمِّر «بكّة» جمهرة الفضوليين. مشى بجواره باخي، يسنده بين الحين والآخر. تقدّم العجوز من القاضي. رشق عكازه في الأرض ومال إلى الإمام مستنداً على العكاز. قال بصوت هادىء:

ـ لا خير في أرض يُعذَّب فيها الدرويش. ألا يستطيع القاضي أن يهتدي إلى حيلة أخرى غير إيغايغان لإجباره على الاعتراف المزعوم؟

ـ يؤسفني يا جناب الشيخ أني استنفدت كل الحيل لأحمله على الاعتراف بجرم تشير كل الأدلّة على أنه هو مرتكبه الوحيد.

ـ لا يقطع القاضي في أمر حتى يقيم البرهان الذي لا يأتيه الباطل لا من أمامه ولا من خلفه. هكذا يقول شرع الصحراء وشرع الدّين.

ـ أحكامي أيضاً مستعارة من الصحراء.

بلع ريقه. حاول أن يستر فمه بطرف لثامه وأضاف:

ـ من الصحراء ومن القرآن.

ـ ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء.

ـ الشرع لا يرحم لأنّه دستور أرضي. شريعة الأرض قاسية يا شيخنا.

ـ ابتر يده. العين بالعين. والسنّ بالسنّ. اعترف بسرقة المدية. عاقبه ببتر اليد. وإذا أردت أن تجازيه أيضاً على عداوته القديمة بالمرحومة فأحرق يده الأخرى بالنَّار. ولكن انزع ايغايغان من صدغيه. انـزع النَّار من رأسه. إنه درويش. مرابط. الشفاعة يا رسول اللّه!.

ـ إذا اعترف إنس بوجود عداوة بينه وبين الضحيّة، واعترف أيضاً بأنه استولى على السلاح الوحيد القادر على إزاحة عدوّه من الطريق، فماذا، في رأيك، يمكن أن يعني هذا؟ أليس في هذا نيّة مُبيّتة لاقتراف الجرم؟ أليس من حق القاضي، الذي يريد أن يحكم بالعدل، أن يتخذ التدابير لانتزاع الاعتراف الأخير من المتهم الشقيّ؟

ـ لو كان الفاعل لاعترف. إنه طفل. درويش. لا يعرف الخبث. هل تفهم؟

ـ الحلالُ بيِّنٌ والحرامُ بيِّنٌ.

ـ أنت تبالغ في العقاب تلبية لرغبة الأميرة. نزولاً عند إرادة السلطان. نحن نعرف أن العرَّافة صديقة بيت السلطان كما نعرف أنها تقتني معدن النحس والشياطين.

ـ شيخنا يخطىء التقدير. أنا أحكم بشرع اللّه ولا أُجامل حتى السلطان. ضميري حسيبي. وأنت أول مَنْ يعرف أن القصاص أساس العدل. والعدل عماد المدن الإلّهية. كيف نجعل من «واو» واحة إلّهيَّة بدون عدالة.

ـ ولكن العدالة لا تبيح القساوة. والدراويش أول مَنْ يستأهلون الرأفة.

ـ لا عدالة بدون قسوة. و«واو» لن تقوم بدون عدالة.

ـ لا أقام اللّه قائمة لـ «واو» إذا كان عذاب رجل اللّه ثمناً لها.

ـ يُحْسَن بشيخنا الوقور ألاّ يجدّف في حق «واو».

ـ لن يبارك اللّه أرضاً يُعاقَب فيها الدرويش بإيغايغان.

ـ انتهى اللقاء!.

تحرّك القاضي وأشار إلى الجلاّد. تعاون العسس وأوقفوا السجين على قدميه. ترنّح فأسندوه. سقطت قطعة من الزبد على الأرض. صاح بكّة وراء القاضي:

ـ لو كان الزعيم معنا لما جرؤت على حرق أعصاب الدرويش.

لم يجبه بابا. بدأ المسيرة. تحرّك خلفه أعوانه. خلف الأعوان سار كبير العسس، يجرّ موسى بحبل من مسد. خلف السجين سار العسس. خلف العسس سارت الجموع.

خرجوا من باب السور الغربي. في الأفق لاح طرف خجول، باك، من شمس الغروب. أشاحت بوجهها بعد لحظات وقفزت في هاوية، خلف الأفق.

التفت بابا فجأة وأشار للجلاّد، كبير العسس، بيده المقطوعة. رفع الجلاّد عصاة جهنّم وهوى بها على عمود السدر. قدحت البروق في رأس موسى، فطار في الهواء زاعقاً بصوت أليم:

ـ آ.. آ.. آ.. آ.. ي.. ي.. ي....

هوى على الأرض مثل جسد ميت.

(٥)

في العراء انعطفت المسيرة جنوباً. عند الرابية أدركهم النذير. جاء

مهرولاً، مهدَّل اللثام، يتمتم بالتمائم الخفيّة ويبصق اللّعاب. اجتاز الجَمْع. اعترض المسيرة. سقط على ركبتيه أمام القاضي. توسّل باكيّاً:

ـ فليرحم قاضي شنقيط رجل اللّه. الدرويش لم يقتل. أنا أعرف.

تنقل بابا بين وجوه الأعوان. صاح:

ـ ماذا تعرف؟

ـ أعرف أنه لم يقتل. إنه طاهر كالحليب.

ـ هاتِ الدليل!

ـ سآتيك بالدّليل. أمهلني أربعين يوماً وسترى. إنه طاهر كالحليب.

رفع بابا صوت الغضب:

ـ ماذا؟ أسأل الدرويش: «ماذا فعلت بالمدينة» فيجيب: «هذا سرّي»، وأسأل النذير: «هاتِ دليلك» فيقول: «أمهلني أربعين يوماً»، فهل أنتم مجانين؟ ما هذه الإشارات؟ القاضي يريد حقائق وبراهين لا ألغاز السحرة وإشارات المرابطين. هل تسخرون منّي؟

زحف النذير على ركبتيه واقترب من القاضي. توسَّل بيدين مرفوعتين إلى السماء:

ـ اعملْ لي معروفاً. أربعون يوماً فقط.

فار الغضب في صدر الشنقيطي:

ـ هل أنت مجنون؟ هل ستضمن لي الحياة حتى الغد؟ مَنْ قال إني لن أموت غداً؟ كيف سأقابل ربّي إذا تباطأت في النطق بالحكم؟ اعلم أن آخر ميعاد للنطق بالحكم هو الغد!.

طوّق النذير ساقيه بكلتا يديه. تضرّع:

ـ لا. لا. أنت تصب القسوة على رأسي وليس على رأس الدرويش وحده.

أزاحه القاضي بيده الأخرى وصاح بخشونة:

- ابتعدْ! هذه قبيلة مجانين. أبعدوا نذير السوء!.

تقدّم ثلاثة مردة من العسس وأزاحوا النذير. ألْقَوه جانباً فانكفأ على وجهه.

دسّ رأسه في التراب وأكل الرمل.

هوى الجلّاد بالعصا فأشعل العمود النّار في عصب الدرويش.

(٦)

عند اشتداد العتمة علّقوه من يديه في باب السّور الغربي. انفضّ النّاس وبقي لحراسته عسّاس مخيف مجلل بالسواد بداية بالعمامة ونهاية بالسروال. حول السّور حام شبح امرأة. جاءت من جهة آكوكاس وهامت على رؤوس الروابي الغربية. نزلت المرتفع وعبرت العراء. ثم اختفت فجأة. أيقن العسّاس أنها من بنات الجنّ فقرأ آية الكرسي وتعويذة من معجم المجوس. تسكّع بجوار السّور. تفقّد السجين المعلّق في الباب. الرقبة أكلها حبل المسد الخشن فنزفت بالدّم. استمر الزّبد ينزف من الفم. ولكن السكينة طغت على ملامح الوجه كأنّ البدن فاز بالفردوس بمجرّد أن تخلّص الرأس من عمودي السدر. أنفاسه انتظمت وعلت شفتيه ابتسامة غامضة. أحاطت به الملائمة في فردوس السكينة وسلّته بالدعابات.

ظهرت الجنيّة مرة أخرى.

ظهرت فجأة كما اختفت فجأة. تقهقر العسّاس حتى ردّه جدار السّور. حاول أن يتمتم بالآية ولكن الجنّ طيّرها من رأسه. آه. هذه إشارة الأذى. إذا طار القرآن لحظة خروج الجنّ فهذا يعني أنه ينوي الشرّ. احتكم إلى تعويذة المجوس فماتت على شفتيه أيضاً. اقترب الشبح الأسود خطوات أخرى. بدأ العسّاس يرتجف. قالت الجنيّة بصوت الإنس:

ـ أريد أن أسقيه ماءً!

ارتعش البدن. وقف الشّعر. أحسّ بالدوار. عجز عن الرّد. تركته الجنية وانتقلت إلى السجين. أخرجت من ثيابها الواسعة قفّة من السعف. سمعها تصبُّ الماء في الإناء وتسقي الدرويش. همست في أُذنه بكلمات من لغة الجن وخيّل له أنها ضحكت أو.. ربما انتحبت. أخرجت أيضاً طعاماً. غزت أنفه رائحة الفطائر المدهونة بالسّمن. فطائر شهية. فطائر الجنّ. انهار العسّاس بجوار الجدار وبدأت الجنية تطعم الدرويش.

(٧)

خرج من فردوس السكينة وفتح عينيه على ظلمات الأرض. تراجعت الصاعقة ولكن المسّ ما زال يزلزل رأسه بالصداع. في المرة الأخيرة، عندما نزلت صاعقة الجلّاد على العمود قصف في رأسه رعد. شقّته شحنة من البروق فزلزله الألم. طار الرأس وطار معه الوعي. فيا ليته طار إلى الأبد. بين أعواد «ايغايغان» فقط يصبح الزوال جنّة السجين. يتمنّى أن يتفتت ويطير مع ذرات الغبار. يركب الريح ويلتحق بالمجهول في الفناء. والآن أحسّ بالشقاء بمجرد أن عاد إلى الأرض ووجد نفسه مطوّقاً ببدن بائس، سجن يستجيب للألم ويستنكر صفعة تافهة من كف. فما أتفه البدن. ما ألعن سجن الجسد. أين السكينة؟ أين طوق الغيبة الذي يحصِّن من حسّ الوعاء؟ يا ليتني كنت حبة رمل. هبة ريح. ومضة ضياء في عراء الصحراء. يا ليتني لم أولد في البدن. يا ليتني لم أوجد في الأرض.

أحسّ في أنفهِ برائحة حادّة، وبطعم غريب في لسانه. فتح عينه اليمنى. سأل:

ـ مَنْ أنتِ؟

انتحبت الجنيّة. صاح الدرويش رغم الألم:

ـ عرفتكِ. أنتِ تافاوت!

لم تجب. ظلّت تنتفض في كوم أسود تحت قدميه. ثم كتمت دموعها وقالت برجاء:

ـ غداً ستعترف أمام القاضي. ستقول له لماذا سرقت المدية.

جاءت كي تجبره أن يكشف السرّ. السرّ الذي لا يعرفه أحد سواه. عرفه الزعيم أيضاً، وعرفته زنجيته التي أخذتها الحمّى في العام الماضي. الزنجية توفيت والزعيم يهيم في الحَمَادة. العودة إلى الأصل، إلى الفناء، إلى الريح والضياء والفضاء، أهون من كشف السرّ.

ردّ برجولة:

ـ لن أعترف للقاضي.

ـ سوف يحكم عليكم بالموت. سيقطع رأسك. هل تفهم؟

ـ أن يقطع رأسي أهون من إذاعة سرّي.

ثم أضاف بصوت متهدّج:

ـ في الغيب مسح الملاك من رأسي مسّ الصاعقة. هناك تبددت شعلة البرق وغسلني الملاك من الألم. ما أفظع ايغايغان. ما أفظع الإنسان الذي ابتدع ايغايغان. العودة إلى المجهول أهون من الاعتراف أمام القاضي.

(٨)

في الصباح تربَّع القاضي الشنقيطي بابا بين أعوانه على النطع في ساحة «واو». تفقد الجموع بنظرة شاملة وقال كأنه يقرأ من قرطاس:

ـ بسم اللّه. «ولكم في القصاص حياة»، والقاتل لا بدّ أن يقتل. هكذا جاء في كل الشرائع: شرائع الأرض وشرائع السماوات. في أسفار اليهود وكتاب اللّه القرآن. في أناجيل النصارى ومخطوطات الكهنة المجوس.

فَلْيُقْطَعْ رأس الدرويش غداً، في الفجر. هـذا قضاء اللّه ومـا على العبد إلاَّ الامتثال.

في الساحة هيمن صمت القبور.

٤ ـ الحية

«فقـال الرّب الإلّـه للحيّة: لأنـك فعلت هذا، ملعـونة أنتِ من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البـرية. على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك. وأضع عداوة بينـــك وبين المـرأة، وبين نسلك ونسلهـــا. هـــو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبيه»

التكوين (٣)

(١)

راودت الخنفسة المقدّسة النذير منذ زمن بعيد، ولكنه لم يأبه لهـا. كلّما هَجَـعَ عند حذاء الركيزة نزلت على رأسه ودبّت على وجهه وأطرافه. أيقظته من النّوم مرات كثيرة وتذكّر أنها لا تتردد بهذا الإلحاح إلاّ إذا نوت البـوح بسرّ. ولكن اهتمامه بالظلمات ألهاه عن كل شيء. فمنذ فقد البصر وهو يعيش في متاهة من الظلمة. الظلام بيته، والسواد لونه وحياته. فما أن يدخل قبوه ويبدأ يجوس في عتمته حتى تستفزّه الخنفسة المقدّسة بأرجلها الستّ الخشنة، تنخسه بقرني استشعارها الطويلين فينتفض ويتقزز. وبدل أن يأخذها بين يديه ويصغي لها، يمسك بجسمها المسلّح بدرع قاسٍ ويلقي بها بعيداً.

في المرّة الأخيرة، قبل القبض على الدرويش بأيام، زارته في الفجر. أحسّ بها تدبّ على معصمه الذي اتخذه وسادة لرأسه. صعدت ودخلت تحت اللثام. انتابته قشعريرة ولكنه تركها. تسللت إلى الذقن. عبرته وانعطفت إلى الأسفل. بلغت الأذن. دخلت التجويف وهمست له:

ـ أردت من قديم أن أبوح لك بسرّ فلماذا اضطهدتني؟

اقشعرّ البدن فسارعت تكمل:

ـ هل تريد أن ترى النّور؟

انتفض. كل جسمه انتفض وارتجف عندما أتت على ذكر النّور. كل جسمة سبّح وابتهل عندما سمع النور:

ـ أُريد أن أرى النّور. أُريد أن أرى..

قاطعته:

ـ مهلاً. صبراً. إذا أردت أن ترى النّور فعليك أن تسمع قصتي مع الحيّة.

كل حواسه، كل جسمه تكلم عندما أتت على ذكر الحيّة:

ـ الحيّة؟ أنا أيضاً لديّ قصّة مع الحيّة.

قاطعته:

ـ مهلاً. أعرف. أنا أعرف أن لك قصّة مع الحيّة. ولكن أنت لا تعرف قصّتي مع الحيّة فاصبر واسمع.

صبر النذير واستمع.

بدأت الخنفسة المقدسة:

ـ جاءتني الحيّة بعد أن أغوت سلفكم ابن آدم وأدخلته إلى الحرم الحرام يطاردها اللّه وتلاحقها اللعنة. كانت إنساناً مارداً برجلين ويدين. ولكن الإلّه كان قد أنزل بها قصاصاً ونزع بصرها. قالت لي الخبيثة: «أيتها الخنفسة المقدسة: تعالي نعقد صفقة، أعطيكِ أرجلي ويدي فيكون لديك منهم ستة وذراعان للاستشعار. وتعطيني أنت عينيك مقابلها». قلت: «وماذا ستفعل الحيّة بدون أرجل؟ ماذا سأفعل أنا بدون عينين؟» قالت المخلوقة الخبيثة: «ستسعين بست أرجل كاملة فتكون سرعتك مثل الريح، وستكسبين ذراعين تستكشفين بهما الأرض وتستطلعين الطريق، أمّا أنا فسأزحف على بطني وأتخفّى من أعدائي في الحفر والجحور. أردت أن أرصد بالبصر أعدائي الكثيرين. أنا ملعونة وأعدائي لا حصر لهم. أما أنتِ فمقدسة ومباركة ولا أعداء لك فما حاجتك إلى البصر؟». فكرت في الأمر فحلا في نظري.

ست أرجل وذراعان. لم تكسب هامّة ولا دابّة هذا العدد من الأرجل. كما أني مقدسة حقّاً ولا أعداء لي: فما حاجتي إلى العينين؟. وافقت. أخذت الأرجل والذراعين وأعطيت الحيّة أقوى عينين في تراب الصحراء. فهل تدري ماذا حدث بعد إتمام الصفقة؟ أصبحت الحيّة عدوّي الأوّل. زَفَرَت في وجهي وأرادت أن تبتلعني. أنا فقدت الهويّة وأضعت الاتجاه في حين أن الملعونة زحفت على بطنها برشاقة كأنها لم تفقد شيئاً. خسرت المقايضة فطاردتني. فررت من وجهها. وما زلت أفرّ حتى اليوم. وقد قصدتك لأنك الوحيد الذي يقدر أن ينتقم لي منها.

صاح النذير مشدوهاً:

ـ كيف؟ كيف؟

قالت الخنفسة المقدّسة:

ـ اسحق بطني وقطّر سائلي الأبيض في عينيك. ستبصر حالاً وتذهب لقتل الحيّة!

صاح النذير:

ـ حقّاً؟ هل يستطيع سائلك اللّزج أن يداوي عماء استمر أربعين عاماً؟

قالت الخنفسة:

ـ نعم. وستخلّصني من عدوّي الوحيد. وستتخلّص من عدوّك الوحيد.

ردّد النذير كالمجذوب:

ـ صدقت الخنفسة المباركة: الحيّة عدوّ الإنسان الوحيد. والحكيم هو مَنْ استنجد بعدوّ عدوّه.

(٢)

فقد بصره أيضاً بسبب الحيّة.

نزل إلى الأرض وفي رأسه أفعى. فحيحها المقزز يملأ رأسه منذ عرف الحياة، وربما قبل أن يعرف الحياة. عندما بدأ يتدرَّب على السعي في الأرض ويحبو، زاحفاً على يديه وركبتيه خارج الخباء، كان ينفجر فجأة في بكاء هستيري ويملأ الصحراء بالصراخ كلما صادف في طريقه حبلاً أو عصا. وكانت أمّه تهرع إليه وتأخذه بين يديها مفزوعة. تحرق له البخور والشيح ظنّاً منها أنه تلقّى صفعة من أهل الخفاء. ولم تكتشف فزعه من الأجسام الشبيهة بالحيّات إلاّ بعد مرور سنوات. تمّ ذلك بالصّدفة ككل القوانين السرّية التي تحكم الحياة. بلغ السنة الثالثة فجاءه أبوه بتميمة جديدة من فقيه الواحة. علّقها في سير محبوك من جلد الثعبان وطوّق بها رقبة الطفل. ندّت عنه صرخة كمَنْ لدغته عقرب. تشنجت أطرافه وعضلات وجهه وظل يرتجف كمجذوب بالوجد أو مصاب بنوبة صرع. تبدّلت بشرته وتلوّنت. ازرقّت واحمرّت وابيضّت واسودّت وحلّت فيها ألوان قوس قزح. شحبت أمّه وفزعت وهرولت به داخل البيت وفي العراء المجاور وهي تقرأ التعاويذ بلغة «الهوسا» المجوس. اختنق بدموعه فرشته بزهر الرّتم. حلّ في وجهه قوس قزح فتذكرت العقارب. تذكّرت أنها لم ترضع العقرب من حليبها وحرمته من التآخي مع هذه الحشرة الوفيّة. العقرب ليست كالحية لا تعرف الغدر. إذا تآخت مع الوليد في حليب الرضاعة أخلصت لأخيها إلى الأبد. ولكنها لم تقطّر حليب ثديها في فم العقرب. فقررت الهامّة أن تنتقم من الوليد في عيد ميلاده الثالث. قفزت وفتّشت القماط الملفوف حول رجليه. فتشته بيدين مرتجفتين وهي تتمتم بالتمائم السحرية وتَعِدُ الآلهة بالنذور والقرابين.

لم تجد العقرب.

بدأ الطفل يختنق. شحب وتلوّن بالموت. بدأ يموت. عندها تذكرت التميمة. نزعت سير الأفاعي من رقبته وألقته بعيداً. توقف الطفل عن البكاء واستسلم لنوم عميق. بكت فوق رأسه طويلاً ثم تحاملت على نفسها وذهبت لاستشارة عرّاف القبيلة العائد من كانو. تفحّصها بعينيه الفارغتين

وطلب منها أن تأتيه بأركان المحنة الثلاثة: الزوج والحصن والولد. عادت إلى البيت وجاءت، في المساء، تحمل الطفل. رافقها الزّج حاملاً الحصن. كان الطفل ما يزال نائماً، ملفوفاً في القماط. تأمله العرّاف في ضوء النّار وأشار لها بسبابته أن تتركه نائماً. سأل العرّاف زوجها:

ـ هل سألك الفقيه عن اسم أم الوليد؟

تبادل مع زوجته نظرة قبل أن يجيب:

ـ نعم:

ـ هل ضلّلته في الجواب؟

تبادل نظرة أُخرى مع زوجته قبل أن يهزّ رأسه بالنّفي.

سأل العراف:

ـ هل طلب أجراً؟

ـ نعم.

ـ هل أجزلت له العطاء؟

سكت الزوج. استعاد ما حدث وأجاب بيقين:

ـ نعم. أعطيته شوالاً من الشعير وحفنتين من الشاي الأخضر.

سكت العرّاف. تناول الحصن وقلّبه بين يديه. أشار إلى جلد الثعبان وسأل:

ـ ما هذا؟

ـ سير من جلد الثعبان.

ـ جلد الثعبان؟

ـ نعم.

ـ هل كان عطيّة من الفقيه أيضاً؟

ـ لا. استقطعته من جلد قديم تلقيته هدية من أحد التجّار.

حَدَجَهُ العرّاف باستنكار وسأل:

ـ كيف تستخدم جلود الثعابين دون وصفة من ساحر؟

هزّ الزوج المسكين رأسه ببلاهة وهمهم بحياء:

ـ لا أفهم.

ـ ألا تعرف أنها تُستخدَم في السحر؟

ـ لم أسمع ذلك من أحد قبل اليوم.

التفت نحو المرأة وأمر:

ـ أيقظي الطفل!

ـ كشفت عن وجهه في ضوء النّار. داعبت شفتيه ووجنتيه بأصابعها ولكنه لم يفق. ضغطت على أذنه بإبهامها في حركة خبيرة ففتح عينيه. حرَّر العرّاف حرز الفقيه من خيط الجلد واقترب من الطفل. هزّ الجلد المرقّط في وجهه فزعق الطفل بصوت وحشيّ وعاد يتشنّج ويحتضر.

قال العرّاف:

ـ هل رأيت؟

ثم ألقى بالجلد في النّار.

سكت الطفل ونام.

قال العرّاف الحكيم:

ـ الولد مصاب بوسواس الحيّة. سأكتب له حجاباً آخر.

(٣)

لم يعلّق في رقبته حجاباً يوازي في الفعالية والحصانة ذلك الحجاب

الذي كتبه له العرّاف الحكيم. أمّه لم تكف عن الإشادة به حتى ماتت.

الحجاب مسخّر ضد وسواس الحيّة.

مسح شبح الأفاعي من رأسه ومدّ يده ولعب بـالعصي والحبال. كفَّ عن أن يرى فيها ثعابين تسعى وأفاعي رقطاء. قالت أمّه لجاراتها إنه أصبح ينام بعمق وتـوقف عن انتفـاضـات الفـزغ التي كـانت تنتـابـه وتقلق نـومـه في المـاضي. كما لم تصبـه عين ولم يتعـرَّض لعـدوان الجنّ طـوال السنـوات السبع التي احتفظ فيها بالحصن. ولكن الحرز ضـاع في العاشـرة. أضاعـه عندما كان يرعى الجديان الشقيّة مع الصغار. خَبَطت الأم على صدرها فزعاً وهرعت إلى المرعى. بحثت عن الحجاب مع عـدد من الجارات. حـرثت الخلاء والوديان ولكن الحجاب طار. الجنّ أخفى الحجاب وترك الولد يواجه مصيراً شقيّاً مع الحيّات.

في أول ليلة قضاها بدون حرز عادت له الأفعى.

استيقظ في قلب الليـل مفزوعـاً وزعق بأعلى صـوته: «الحيّـة. الحيـة. لدغتني الحيّة».

هـرَعت إليه الأم وأزاحت عنـه الفـراش. هبَّ الأب من مضجعـه وأوقـد النّـار. بحثوا عن الحيـة فلم يجدوهـا. قَبَع الـولد بجـوار الركيـزة يـرتعش ويختنق بدموع الخوف.

قال الأب يهدّىء الأم:

ـ لا تتعبي نفسك بالبحث. الحيّة التي يتحدّث عنها في رأسه.

وضعت الأم كلتا يديها على رأسها وناحت قائلة:

ـ يا ويلي! بدأ كل شيء من جديد!

بـدأ الوسـواس مـن جديـد حقّاً. وتحـاشى الولـد الحبال والعصي وكـل الأشيـاء الملتويـة كجسم الأفعى. ضجَّ رأسـه بالفحيـح وأصبحت الحيـات تلدغه في عقبه وتلتف حول عنقه كلما ذهب إلى فراشه لينام.

أخذته أمّه إلى فقيه عابر نزل على النَجْع في طريقه إلى مراكش. قالت لها الجارات إنه جسور كالسبع ويقضي الليل كله في صراع مع المَرَدة والجان. ولم يوضح الفقيه سبب عداوته مع أهل الخفاء. ورأى حكماء القبيلة في هذا الصراعِ عملاً باطلاً لا مبرر له. لأن استفزاز الجنّ من قبل المغامرين كثيراً ما يجرّ الشؤم على القوم المستوطنين أنفسهم.

حدّثته بقصة الولد مع الحيّات منذ الميلاد حتى ليلة ضياع الحجاب. وختمت قصتها باكية:

ـ العرّاف الحكيم هاجر إلى كانو منذ سنوات. ولا أحد في النَجْع يجد في نفسه الشجاعة لمعاداة الحيّة الخفيّة. الله هو الذي أرسلك لي!

هبَّ الفقيه في وجهها:

ـ لن تفلحوا يا أهل الصحراء ما دمتم تتلقون الأحجبة من السحرة وتتبعون دين هؤلاء المجوس! زوريني مع الولد في الغد.

جاءته مع الطفل في اليوم التالي. وجدته يتربّع على الأرض أمام موقد النّار. أمسك بالولد من يده وأشار لها أن تخرج وتتركهما على انفراد. تمشّت في العراء المجاور عندما سمعت ولدها يزعق بصرخة جنونية. قفز قلبها من صدرها وركضت إلى الخباء. وجدته ممدّداً على الأرض، بجوار النّار، ينازعِ الموت، في حين زحفت، تحت قدميه، حية حقيقية. شلّها الفزع، وتخلّى عنها العقل. وجدت نفسها تهجم على الفقيه المجرم وتضربه بأعواد الحطب ومسعر النّار. تكسّر المسعر وتحطمت الأعواد فنشبت أظافرها في وجهه وهي تولول:

ـ قتلته يا فقي النحس. قتلت ولدي بالسمّ لتقدّمه قرباناً لكنوز الذهب. أنت طمّاع شقي باحث عن الذهب. أنت فقيه مزيف ورجل شرّير!

هرب الفقيه من وجهها وهو يصيح:

ـ اتقِ اللّه يا امرأة! لقد وضعت حساباً لكل شيء. الأفعى لن تلدغ لأني رتقت فكيها بالخيط والإبرة.

رتق فمها بالخيط والإبرة حقّاً ولكن الصدمة جعلت الولد يفقد البصر إلى الأبد.

(٤)

اتّخذ من الظلمات بيتاً منذ ذلك اليوم.

ومن هذا الدهليز بدأ يعرف طريقه إلى الجوف المظلم. فقد الوالد في الواحد والعشرين. وتبعته الوالدة بعد ثلاث سنين. قبل أن تغيب حاولت أن تربط مصيره بامرأة ظناً منها أنّها ستضمن له السعادة. نظّمت له مع الفتاة المقترحة لقاء فوجد أن لها رائحة كريهة، مُنفِّرة، كرائحة الظربان.

تخلّى عن الزواج وأصبحت أمعاؤه تصعد إلى بلعومه كلّما جالس فتاة أو اقتربت منه امرأة. كانت أمّه المرأة الوحيد التي لم تكن لها رائحة الظربان!

بدأ يجلس في ظل العشية يوميّاً. ينصت للسكون الجليل ويدبُّ في دهليز الظلمات. أدرك أن البصر هو الذي يُلْبِسُ المرأة البَهَاء ويجعلها شهيّة في نظر الرجل. ولكن الظلام كشف له حقيقتها وتعرّى أمامه باطنها القبيح. أربعون عاماً وهو يرصد في أوعية المرأة مصدر تلك الرائحة البشعة. ويعترف الآن أنه مضى وقت طويل من التأمل قبل أن يتوصّل إلى شَكْوَةِ الفضلات التي تسكن الباطن الخفي. يضحك في سرّه يومياً ويسخر في نفسه من هؤلاء الفرسان الأدعياء الذين يصوِّر لهم نظرهم المريض، نظرهم الأعمى، المرأة كملاك السماء أو حورية الجنّة. يتعاركون على كسب رضاهن ويدفعون أنفسهم إلى التهلكة في غزوات الأدغال كي يسلبوا السبايا الحبشيات أو يعودوا بالفتيات الزنجيات. يحسب الأبله الذي يرمي بنفسه في النّار نزولاً عند رغبة حسناء أنه فارس ونبيل ولا يدري أنه مخلوق غبي مأخوذ بوعاء لمّاع محشو بالنجاسات. شكوة تفيض بالدود والدّم والبول والبراز. وبرغم أن الرجل شكوة لا تختلف كثيراً إلاّ أن الرائحة، رائحة الأنثى المقززة، جعلته يراها في دهليز الظلمات، في جوف المرأة وحده. وبلغت به الحساسية حدّاً جعله يميّز الذكر من الأنثى على مسافة بعيدة جدّاً.

ولكنّه أحبَّ الغناء أيضاً ودرّب صوته، في كهف الظلمات، على حسن الإلقاء.

(٥)

بعد أربعين عاماً من حَبْس الظلمات أتته الخنفسة المقدسة بنبأ الخلاص، فهل يعقل هذا؟

في زيارتها التالية قال لها:

ـ متى نبدأ الطقوس؟

قالت:

ـ في الغدّ، عند الفجر، تأخذني بين يديك. انزعِ الرأفة من قلبك واعصرني في عينيك بكل قوتك. لا تخف. فقدان العصارة لن يميتني. بعد ذلك تغمض جفنيك ثم تفتحهما، فإنْ رأيت قَبَس الفجر البكر يفصل جسد الليل عن جسد النهار فاعصب عينيك واتركهما في العصارة أربعين يوماً. ستدفع يوماً واحداً مقابل كل سنة قضيتها في حبس الظلمات. في اليوم الأربعين تفتح العصابة وتقتل الحيّة التي ستجدها ملتفة في رقبة الركيزة. وتكون بذلك قد انتقمت لنفسك ولي. أربعون يوماً. إيّاك أن تخطىء الحساب!

في الغدّ جاءته في الميعاد. مدّ يده وأخذها من أُذنه حيث كانت تختبىء. خرج ووقف في فم الخباء. يمّم شطر القبلة وانتظر الإشارة. ميلاد القبس الأوّل. حانت اللحظة فعصر الخنفسة المقدسة في عينيه. أغمض جفنيه وألقى بالصّدفة السوداء فزحفت تجرّ درعها المعصور وتتسلل إلى الخباء.

ركع وتربّع. سكن وحبس الأنفاس. أحس بحريق في المقلتين. العصارة اللزجة، المقززة، الرجراجة، تحوّلت إلى سائل من جمر يشعل النّار في الحدقتين الميّتتين. أزاح اللثام عن الجبين وضغط على عينيه

براحة اليد. تفصّدت منهما العصارة والدموع وسائل آخر نتن مثل القيح. ميّز رائحة العفن بأنفه الذي تعوّد أن يرى امرأة في كهف الظلمات على مسيرة فرسخين. حان الوقت فبدأ يؤدي طقس الإعجاز. بدأ يفتح عينيه. تفصّد من جبينه العرق. ارتجفت أطرافه. سحب نفساً وتباطأ. توقف وانتظر. أنصت للسكون ثم عاد يفتح بوابة الظلمات. العصارة اللزجة ألصقت الرموش على الرموش بعناد الصمغ. ضغطهما من جديد ففتحت الدموع مساراً. انفصل الرمش عن الرمش. انشق جدار الكهف. مزّق النّور البكر ستار الأربعين عاماً. رأى القبس البتول يعرّي الزوجين العاشقين، يكشف المخدع ويفصل بين الجسدين. تنهض السماء عن الأرض. ويولد من الليل النهار. قفز قلبه. فاض صدره بالبهجة. زغردت الجنيّات في ايدينان. و.. فجأة. مرّ شبح. عبر من الجهة الجنوبية واتجه شمالاً مهرولاً. أنفاسه تتلاحق و.. إنه. نعم. هو. الإمام. خرج من البيت المجاور. بيت العرّافة. ترى ماذا يخفي الإمام في عبّه وهو يهرول، لاهثاً، إلى بيته في مثل هذا الوقت؟

مزّق قطعة من الشاش. أسبل جفنيه حسب الوصيّة. أحكم العصابة حول عينيه وغطى وجهه باللثام. زحف نحو الخباء وهَجَع بجوار الركيزة.

لم يكد يغفو حتى أيقظته خطوات. نهض فغزت أنفه رائحة امرأة. جارته العجوز جاءته بالبشارة المشؤومة.

- تيميط سبقتنا!

أذاع للقبيلة النبأ المشؤوم ولكنه لم يستطع أن يقتل في صدره بهجة خروجه من كهف الظلمات.

(٦)

في الفجر تجمّع النّاس في الساحة لمشاهدة شعائر القصاص.

تقاطرت القبيلة قبل انقشاع الظلمة وعبرت الأسوار. أقبلت النساء

يجرجرن ثيابهن الفضفاضة وأطفالهن السكارى بخَدَر النوم. بعض أبناء القبيلة قضوا الليل في «واو» خوفاً من أن تفوتهم طقوس حزّ الرأس، خاصة الشبّان الذين لم يهاجروا مع القوافل إلى الواحات الجنوبية البعيدة حيث اعتاد النَّاس مشاهدة السيّاف يؤدي شعائر القصاص في مطلع كل صباح.

عجّت الساحة بالأشباح.

ولكن الساحة لم تستأثر وحدها بجمهرة الأشباح. على السطوح صعدت نساء «واو»، كما تسلّق أولادها جدران السور من كلا الجانبين، وتدلَّت سيقانهم العارية على الجدران الشرسة المغطاة بالطين والملح. في قلب الساحة وقف سيّاف زنجي مارد أمام جذع نخلة مستدير، تعرّض لعملية احتزاز وحشية عندما استقطع من أصله واستجلب من الواحة البعيدة، قبل أن يقترح القاضي الشنقيطي أن يُتخَذ مقصلة لاحتزاز رؤوس العصاة وإعدام الخطاة.

وقف القاضي في مواجهة جذع المقصلة، يلتف وراءه، في طابور أفقي، أعوانه ومساعده الذي يتلقّف الأحكام الحكيمة من فم القاضي ليدوّنها بعود القصب في القرطاس الأصفر.

جاء العسس يجرّون السجين، يتقدمهم كبير العسس. لاحظ القاضي بهجة خفية في وجه الدرويش. لاحظ بهاء مفاجئاً برغم شدّة العتمة. اختفى من الوجه الشحوب والألم وحلَت فيه ملامح أُخرى، غامضة. البشرة مصقولة كأنها دُهِنت بزيت الزيتون الفرعوني الذي يجلبه التجار من جبل نفوسة. والعينان شعتا ببريق خفيّ. بريق الفرح واقتراب الخلاص. حتى العين الحولاء نطقت بالسعادة. على شفتيه رأى القاضي ابتسامة مبهمة. ابتسامة ليست ساخرة، وليست حاقدة. ابتسامة صافية، بعيدة، غير موجهة للكائنات الدنيوية. نعم. إنها ليست استفزازية. ليست دنيوية. ولكن القاضي الذي لم يعرف المرابطية ولا الطرق الصوفية، القاضي الشنقيطي الذي لم يحتك قبل اليوم بالدراويش والمجاذيب، تقدّم من سجينه وسأل باستفزاز:

ـ لماذا تبتسم؟

لم يجب الدرويش. ظلَّ يحدِّق في باطنه حيث أودع قلبه واستمرت الابتسامة الغريبة ترتسم على شفتيه وتغمر كل وجهه. تابعه القاضي لحظات ولكنه لم يكرر السؤال. اقترب منه أحد الأعوان وهمس في أُذنه. انصت باهتمام. عاد إلى السجين وسأل:

ـ كل الشرائع تقضي بأنْ يُسأَل المحكوم عن رغبته الدنيوية الأخيرة. ولكن السلطان تعهَّد بأن ينفِّذ لك أي رغبة مهما كانت جسيمة ومستحيلة. أظنُّ أنه فعل ذلك بتوصية خاصّة من صديقتك الأميرة. فأَفصحْ وكنْ على يقين من أن رغبتك ستكون. . .

ضاقت ابتسامة الملائكة في وجه الدرويش. تضاءلت حتى اختفت تماماً وحلَّ محلها التوتر الدنيوي، عاد الهمُّ الأرضي، فنطقت العين بالشقاء و. . الغضب، ثم. . فجأة، انفجر موسى في ضحكة هستيرية، استهتارية، شيطانية، تناقض، نهائيّاً، هيئته الجليلة، الإلّهية، التي كانت تتلبسه منذ قليل. عاد الدرويش كائناً أرضياً، دنيوياً، بائساً. ولم يفهم أحد علاقة هذا التحوّل بالسؤال عن الرغبة الأخيرة. ولم يكن مُقَدَّراً لأحد أن يجد الصلة بينهما إلى الأبد.

ثم. . توقف.

لحظتها اقتحم النذير الجموع، وعبر الحلقة التي تطوّق المحكوم في الساحة، حتى وقف أمام القاضي. ركع على ركبتيه فأنصت الأعوان لأنفاسه المتتابعة وتبادلوا مع بابا نظرات في العتمة. قال النذير:

ـ هاك الدليل: الدرويش لم يقتل تيميط، لأن الإمام هو الذي قتل.

هيمن صمت الموتى.

سمع الناس أنفاس بعضهم، سمعوا دقات قلوب بعضهم البعض. وكادوا يسمعون الأفكار التي تدور في رؤوس بعضهم البعض.

جرح صوت القاضي الصمت:

ـ الإمام؟!.

ـ نعم.

ـ هاتِ دليلك!

ـ رأيته يخرج من بيت المرحومة فجر يوم الجريمة. يهرول إلى بيته يتأبط في كمّه شيئاً أظن أنه صندوق الحلي.

ـ عجيب. أنت أعمى فهل أبصرته بالبصيرة أيضاً؟

سكت النذير لحظة. بلع ريقه. أجاب:

ـ لا. بالبصر.

ـ البصر؟

ـ ....

ـ هل هذا لغز آخر من ألغاز السَحَرَة؟

تكلّم النذير بصوت أليم:

ـ عشت في كهف الظلمات أربعين عاماً، وعندما أنزلت السماء النّور في بصري رأيت القاتل. أغمضتهما ثانية لأنفذ وعداً قطعته على نفسي، نذراً صغيراً للسماء، أن تظلّا في العصابة أربعين يوماً لأكسب العافية وأستعيد البصر. ولكنك رفضت أن تمهلني أربعين يوماً، فقررت أن أقايض الحقيقة بالبصر، أضحّي بالنور في سبيل الدرويش. إذْ ما نفع أن أكسب البصر إذا كنت ستحزُّ رأس الدرويش في المقصلة؟ ظلمات القبو قاسية يا جناب القاضي ولكن زوال الدرويش ظلم أقسى.

أزاح اللثام بحركة واحدة. وحلَّ عقدة العصابة بيدين مرتجفتين.

نهض حاسر الرأس، مفتوح العينين. تنقّل بين الحاضرين كالمجنون وهو يردد:

ـ هذا أنت يا جناب القاضي. وهذا ثوبك الأزرق على كتفيك. وهذا

مساعدك المُبَجَّل يحمل القرطاس وعود القصب. وهذا «كريمو» كبير العسس. وهذا الدرويش بثيابه الملوّثة بالدم والدّهن والغبار. و. . هذه مقصلة النّخل أيضاً. فهل تريد دليلاً آخر على حلول نور اللّه في بصري؟

عَلَت الهرجة.

صاح القاضي يأمر العسس:

ـ اقبضوا على الإمام. هاتوا الإمام مقيّداً بأغلظ حبل!

تمشّى في الحلقة بخطوات عصبية. أُحسَّ أن طعنة سماوية وجِهَت لضميره القضائي، لشرفه القضائي، لسمعته القضائية. لوَّح بيده المقطوعة في الهواء وأمر الجلّاد:

ـ أطلق سراح هذا الشقيّ!

زغردت نساء القبيلة.

عمَّ الهرج.

تنفّس الفجر. تسلل الضوء البتول وغمر الساحة. انفصل الليل عن النهار وتوقفت السماء عن معاشرة الصحراء.

فكَّ كبير العسس وثاق الدرويش. الحبل الوحشي أيضاً ملوّث بالدم. حبل المسد المتوحش لعق دم الدرويش.

استمرت الزغاريد.

عاد العسس. اختلوا بالقاضي جانباً، وهمسوا في أُذنه بخبر جليل. اكتأب القاضي. تجهَّم وتقدّم من الأعوان منكّس الرأس. رفع رأسه إلى الزحمة. أعلن الخبر كأنه يشتمهم:

ـ الإمام أيضاً قُتِل البارحة!

في تلك اللحظة التي أكمل فيها القاضي جملته وثب الدرويش وهجم

على النذير. قفز الجنون من عينيه. علا الزبد شفتيه ونزَّ اللعاب من فمه. قفز فوق رأس منقذه وطوّق عنقه بكلتا يديه في نيّة وحشية لقتله خنقاً. ردّد بصوت يخنقه الغضب:

ـ يا أحمق! مَنْ أخبرك أني أُريد الحياة؟ مَنْ أخبرك أني أنوي البقاء بين الوحوش؟ هل استعدت بصرك كي تفقد بصيرتك يا شقيّ؟ ليتك بقيت بصيراً. كنت بصيراً وأصبحت أعمى. أنت الآن أعمى! أعمى!.

نَزَعه العسس فقاومهم. حاول أن يتخلّص من أيديهم. تكاثف الزبد على شفتيه وزادت عيناه جحوظاً وجنوناً. زحف النذير البائس على الأرض يبحث عن لثامه. قال بصوت باكٍ:

ـ اغفر لي!

بدأ ستار الغشاوة ينزل على عينيه. هوى في القبو مرة أخرى.

(٧)

استدعاه السلطان.

جاء إلى القصر للمثول بين يديه ولكن الحاجب استوقفه واستبقاه في الردهة المعتمة قائلاً إن السلطان منشغل بالتشاور مع التجار. تمشّى في الردهة بخطوات عصبية وفكّر في اللعنة التي تلاحقه مصمّمة أن تحرمه ممارسة القضاء. بدأت في بلاد شنقيط وطاردته عبر الصحراء كلها حتى نزلت على رأسه في «واو». ما أن اعتمده سلطان شنقيط قاضياً وأصدر أول حكم على قاطع الطريق الشقيّ ببتر اليد حتى فقد يده بالطريقة نفسها ومن قاطع الطريق نفسه. ولم تتوقف سخرية القدر عند هذا الحدّ، بل إن المجرم الشقيّ ردّد التعويذة القضائية نفسها التي نطق بها عند إصدار الحكم: «العين بالعين والسّن بالسنّ» وأضاف الشقيّ المتوحش جملة قاسية على التعويذة المستعارة من قاموس القضاء فقال: «.. سأعلّمك نتيجة الترويج لأحكام المجوس في الصحراء». تماثل للشفاء فذهب إلى فقيه

اشتهر بعلمه وزهده فسأله عمّا إذا كان مبدأه القضائي «العين بالعين والسّن بالسّن» مبدأ مجوسيّاً فأجابه الزاهد: «مبلغ علمي أنه ورد في أسفار اليهود، واللّه أعلم. . ». أدهشه الجواب ولم يفهم. أصدر أحكاماً قضائية أخرى طبقاً للمبدأ نفسه فانقلب السِّحر على الساحر وارتدَّ النَصْلُ إلى نَحْره: حكم على تاجر عابر بثلاث عشرة جلدة بالسوط عقاباً له على اعتدائه على مرافق له في القافلة اختلف معه حول المبلغ المستحق كأجر على الرحلة فوجد نفسه، في اليوم التالي لتنفيذ القصاص، مصلوباً على جذع نخلة والسوط يلسع ظهره. جلده أعوانه وتركوه معلقاً على العمود، ينزف دماً، حتى الصباح. في حين فرّ التاجر وأعوانه.

الحكم الآخر كان سبباً في إخراجه من بلاد شنقيط كلّها.

وقع في يده أحد الأعيان الأغنياء بعد أن تورَّط في نَحْرِ غريم له نافسه على قلب مطلقة مشبوهة السمعة. نوَّه في حيثيات حكمه بشرائع الأرض وشرائع السماء حسب العادة وأسمع جَمْع الأعيان تعويذته القديمة: «العين بالعين والسن بالسن والقاتل يُقتَل» ثم نطق بالحكم. قطع رقبة المتهم بحدّ السيف.

أدهش الحكم الأعيان. وفي الليل بعث له السلطان رسولاً بلَّغه نية الأعيان بالاعتداء عليه ونحره، وقال له المبعوث إن حياته في خطر ولا يرى طريقة لدفع الشرّ غير أن يترك شنقيط حالاً ويدخل الصحراء.

هرب في الليلة نفسها.

في رحلته الطويلة عبر الصحراء حاول أن يفكَّ الطلسم ويفهم سرّ اللعنة. تذكَّر الطفولة الشقية عملاً بنصيحة معلّمه الجليل الذي قال له مرّة: «إذا عجزت عن فهم أمر ففتّش عن تفسير له في الطفولة». فماذا في طفولته يستحق التفتيش ويستوجب ملاحقته باللعنة؟ ماذا في طفولته غير النكد والدماء والتناحر القبلي؟ التناحر القبلي هو سبب تيتّمه ومأساته التي جعلته يفقد أباه وهو طفل لم يبلغ السادسة. تلك طعنة أُخرى لن ينساها. أغارت

على نجعهم قبيلة معادية للأخذ بثأر قديم. قتلت الرجال وأسرت النساء. أمّه كانت من بين السبايا. قادهم المقاتلون كالقطيع إلى منتجع القبيلة المعادية. تركوهم في العراء وانهمكوا في اقتسام الأسلاب والغنائم بطريق القُرْعَة.

كانت أُمّه من نصيب رجل من الوجهاء يمتُّ إلى شيخ القبيلة بصلة قرابة. في الليلة التي أعقبت القسمة أطعمته أمّه عشاء فاخراً وأعدَّت له فراشاً دافئاً في خباء نصبه الرجل خصيصاً. في قلب الليل استيقظ مفزوعاً. أيقظه العراك. كانت أمّه تبكي بجوار الركيزة والرجل المتوحش ينهال على منكبيها بحزام الجلد. صرخ وارتمى في حضنها ولكن الرجل لم يتوقف عن ضربها بالحزام.

في الصباح تنازل عنها الوحش لقريبه زعيم القبيلة. انتقل للحياة في خباء جديد نصبه لهما الزعيم. وبعد أقل من عام تنازل عنها الزعيم، أو ربما طلَّقها، فاقترنت برجل آخر، عجوز، يسكن في المراعي بعيداً عن خيام القبيلة.

ولا يستطيع الآن أن يتذكَّر الأم إلاّ وهي شقية، باكية، بائسة، تعاني قساوات الرجال الأغراب. كره الظلم وقرر أن يتولّى الميزان ويرفع رأس العدالة عالياً.

تعلَّم القرآن على يد الفقهاء وتلقّى علوم الفقه في الواحات.

سانده معلّمه الحكيم فدرس في مراكش أُصول القضاء. عاد إلى شنقيط ليمارس المهنة السماوية. فهل في معاقبة الظالم وإحلال العدالة ما يغيظ الآلهة أو يستفزُّ القدر؟

(٨)

أذن له الحاجب بالدخول.

لم ينهض السلطان لاستقباله. صافحه دون أن يتحرّك في جلسته. على

يمين السلطان جلس شيخ وقور. عرف القاضي في حركاته ونظرته وحيويته أحد التجّار. أجلسه السلطان بجواره على الكليم وقال بنبرة غامضة:

ـ بلغتني أساطير الساحة وكذلك مصرع الإمام.

تبادل نظرة مع التاجر الزائر وأضاف:

ـ كما بلغتني أحكامك القاسية!

ـ هتف بابا بدهشة:

ـ قاسية؟

تبادل نظرة أُخرى مع ضيفه. استمرّ باللهجة الخفيّة نفسها:

ـ لا أستطيع أن أسمّيها رحيمة على كل حال، إذْ لا أدري أي حكم يمكن أن يفوق حزّ الرقبة قساوة!

أفلتت ضحكة هازئة من التاجر المهيب. رمقه بابا بحقد. أحسَّ بحَدْس القاضي كيف تُنسج له المكيدة. قرر أن يدافع عن نفسه:

ـ العين بالعين..

قاطعه السلطان باشمئزاز:

ـ أعرف. أعرف. العين بالعين والسن بالسن. وأعرف أيضاً أن القاتل لا بُدَّ أن يقتل في شريعة السماء وشريعة الأرض. ولكن أجبني على سؤال واحد: ماذا كنت ستردّ لو قطعت رقبة الدرويش المسكين؟ ماذا كنت ستفعل بضميرك الذي يتغنّى بالانتصار للعدل لو لَمْ يتدخَّل النذير البائس وينقذك من إهدار دم نفس بريئة؟ أَجبْ على سؤالي.

سكت بابا. هيمن الصمت. تكلّم السلطان من جديد:

ـ ألم يهرع إليك نفس النذير ويطلب منك أن تمهله أربعين يوماً؟ ألم يتدخل العجوز «بكّة» ويطلب للدرويش المهلة والرحمة ونزع تلك الأعمدة الفظيعة؟ ألا تدري أن النذير البائس حَنَثَ بالنَذْر وأُصيب بالعمى مرة أخرى؟ بماذا يحدِّثك ضميرك القضائي الآن؟

ضاقت أصابع المكيدة حول رقبته. ترافع عن نفسه لنفي التّهم الموجهة إليه:

ـ أعترفُ أن القَدَر هو الذي حال دون حزِّ رقبة الدرويش..

قاطعه السلطان بغضبة مجوسيّة:

ـ هذا يكفي. هذا الاعتراف يكفيني كي أسألك: متى كان القضاة يعتمدون عل الأقدار في تبرير أحكامهم؟

ـ ليسمح لي جناب السلطان أن أقول إن البراهين كلها تدين الدرويش. إعترفَ بأنه سرق المدية السرّيّة، كما اعترف بوجود عداوة...

ـ ولكنه لم يعترف بارتكاب الجريمة، بل نفى بشدّة أن تكون له أي صلة بما حدث. فكيف تحكم بزهق الرّوح بدون شهود وبدون اعتراف بالجرم وبدون وجود دليل قاطع. أي قضاء هذا الذي يعلِّمونه في مراكش دون مراعاة هذه الشروط؟ أم أن القبائل المعادية هي التي أرسلتك خصيصاً كي تفتن في «واو» وتؤلِّب القبيلة ضد السلطنة؟

فَزِعَ القاضي. برزت عيناه من محجريهما وهتف بضراعة ممزوجة بالاستنكار:

ـ أستغفر اللّه. حاشا اللّه. إذا حجب السلطان عنّي ثقته فإني أمدّ رقبتي، أمام هذا الضيف، ليضربها بالسيف.

عدَّل السلطان من وضع اللثام على شفتيه. على صدره لمع المفتاح الذهبي. سأل:

ـ لو لم يُقتَل الإمام فأي حكم كنت ستنزله في حقّه؟

أجاب القاضي بلا تردد:

ـ بالموت طبعاً.

تبادل السلطان مع ضيفه نظرة سريعة ذات معنى. قال السلطان:

ـ هل هو عناد؟

ـ اللّهم أجِرْني. العدالة وليس العناد.

ـ وما هو البرهان؟

ـ شهادة النذير.

ـ هل تجوز شهادة النذير إذا علمت أن بينهما عداوة؟

سكت بابا لحظة متفكّراً. قال:

ـ أعترف أن هذا سيغيّر من الأمر بعض الشيء.

ـ توقعتك أن تقول إن هذا سيغيّر من الأمر كلياً، ولكن انتظر. هل تدري مَنْ قتل الإمام؟

ـ لم أبدأ تحرياتي بعد.

ـ هل تتصوّر أن يقوم رجل فاضل، شيخ وقور، وتاجر مُبَجَّل، وفوق ذلك كلّه، صديق قديم لي ولك ولـ«واو» كلها، بعمل بشع كهذا؟ هل يمكنك أن تتصوّر الحاج البكاي بلحيته البيضاء وهيئته الجليلة، يتسلل ليلاً ويستلّ خِنجراً ليذبح الإمام في مخدعه؟

ـ لا!

ـ هل تعرف لماذا؟ لقد اختلف اللّصان. اتفقا على التخلص من العرّافة بالمدية التي سرقها الدرويش وأضاعها في وادي الطلح واستوليا على ذهبها. اختلفا على الذهب المسروق فاحتكم الرجل الفاضل إلى الخنجر، ثم هرب إلى مرزق.

ـ لا!

ـ قلْ لي: لو سقت إليك الحاج البكاي مقيَّداً بالسلسلة ودفعته بين يديك لينال الجزاء فأي حكم سيناله.

هبّ القاضي بحماس:

ـ الموت. أي مصير يمكن أن ينتظر مخلوق خان الماء والملح غير الموت؟

ـ ولكن لماذا تتعجّل الأحكام؟ ألا تستطيع أن تتصوّر أن البشر مخلوقات أرضية، شقية، وضعيفة الإرادة، قَسَتْ عليها الظروف وقَصَمَت الحياة ظهرها؟ ألا تحسُّ نحو هذه المخلوقات بالشفقة؟

ـ الشفقة على الآثم مقبرة العدالة. القاضي الذي يشفق على قاتل يخون ضميره ويجهز على العدالة بخنجر ليتحول هو نفسه إلى قاتل.

ـ اسمعني. اسمع. أنت تعرف قصة إفلاس البكاي، وتعرف كيف اقترض منّي التِّبر لاستعادة مركزه المالي. ولكنك لا تعرف ما فعله معه القدر بعد ذلك. لقد ضربوا الصفقة الثانية التي وضع فيها قلبه ورهن بها رأسه في أيدي الدائنين. ولم يكتفِ هؤلاء الأوباش بهذه المكيدة، بل أقنعوا الوالي أن يبيع امرأته وأولاده في سوق العبيد إمعاناً في إذلال عدوِّهم القديم. عاد إلى الواحات الجنوبية ليجمع الذهب بأي وسيلة ليستردَّ امرأته وأولاده قبل أن يعبر بهم النصارى إلى ما وراء البحار. ألا يستحق رجل كهذا شفقة من قلب القاضي؟

تكلّم بابا بحماس:

ـ يستحق الشفقة قطعاً من بابا ولكن لا يستحقها من القاضي. من حق النَّاس أن يتعاطفوا معه ويبكوا القساوة التي عامله بها القدر ولكن القضاء، يا جناب السلطان، لا يعترف بهذه اللغة. لا يفهم هذه اللغة. القاضي سيحكم عليه بالموت في كل الأحوال.

حدَّق السلطان في عينيه طويلاً. قال بغموض:

ـ دعني أقول لك أن ما ينقص قلبك هو الرحمة!

زحفت عتمة في عينيه وقال بحزن:

ـ أعرف الآن سبب شقاوتك في القضاء. أعرف لماذا قطع قاطع الطريق

يدك ولماذا طاردك الوجهاء من شنقيط. قساوتك هي السبب. أنت رجل عاش طفولة شقية ولا يريد أن يرى في الناس غير رجال أُمِّهِ القساة. أنت عشت طوال هذا العمر وتعلَّمت القضاء لا لرفع رأس العدالة ولكن لكي تنتقم من رجال أمّك الوحوش. نعم. أنت نمت طوال هذا العمر لتربّي في قلبك الانتقام وحده. أنت رجل حاقد!

لم يرف للقاضي جفن. استمرَّ يحدِّق في السلطان دون أن يطأطىء رأساً. قال:

ـ ليس هناك قوّة تجعلني أرجع عن إنزال القصاص..

قاطعه السلطان مرة أُخرى:

ـ هذا فِرَاق بيني وبينك. لا أُريد أن ينفضَّ من حولي الأهالي.

قال القاضي بشجاعة:

ـ يؤسفني، يا جناب السلطان، أن نفترق، ولكن هذا لن ينال من تقديري لشخصك، كما أُؤكد لك أنه لن ينال من قناعتي أيضاً.

أَعقَب ذلك صمت كئيب.

عندما تأهَّب القاضي للخروج سأله الضيف لأول مرة:

ـ اغفرْ لي تطفّلي ولكن ألا تدري أن الحياة هي قاتل أو مقتول؟ فإنْ لم نرحم القاتل فإنه ليس مستبعداً أن ينقرض الأصل البشري. فما موقف القاضي في هذه الحال؟

حَدَجَ الزائر بفضول.

ـ اعلم يا شيخنا الفاضل أن العدالة هي ناموس اللّه في الأرض، وهي لا تضع حساباً لأبعد من القصاص. فإنْ كان في إنزال القصاص إبادة لجنس البشر فليس من شأن القاضي أن يتدخَّل في حدود اللّه. أمّا أنا فسأحكم على القاتل بالقتل حتى لو كان آخر بني آدم يدبُّ في أرض الصحراء.

خرج. لم يشيّعه أحد.

(٩)

صَرَعته الحمّى. هَجَعَ على جنبه الأيمن، متوسِّداً يده. في عينيه حريق. في جسده كلّه حريق. اشتدّت الحمّى مع المساء وأصبح يصطفق ويرتعد كلما تقدّم الليل. لا يدري متى جاءت الخنفسة المقدسة. تزحف على الرمل وتجرُّ جسمها البائس الهزيل. الجسم المبعوج الذي استنزف الترياق الضائع. قَبَعَت عند قدم الركيزة ورفضت أن تقترب. لم تتسلّق ساعده، ولم تداعب وجهه، ولم تتسلل إلى أُذنه. كانت ترتجف أيضاً. قالت بحزن:

ـ خُنْتَ العهد.

ندّت عنه آهة، حشرجة، أنين محموم. استمرَّت في الوعيد:

ـ ضيَّعت نفسك وضيَّعتني معك. لماذا خُنْتَ العهد؟ لماذا ضيَّعتني وضيَّعت نفسك؟

أراد أن يتكلّم. أن يقول لها إنه خان الوعد لأنه افتدى دم الدرويش ببصره، ولا خير في الصحراء إذا اختفى منها رجل اللّه. أراد أن يخبرها أنه لم يحتمل أن يرى سيف الظلم يهوي على رقبة المرابط البريء. ولكن الحمّى شلّت لسانه، فوجد نفسه ينزل إلى القبو، يعود إلى الباطن، يجوس في الظلمات. زحف في الكهف. الكهف يضيق، وهو يختنق، ولكنه مصمم أن يعبر النفق إلى الطرف الآخر، إلى النّور، فتحامل وزحف، اعترضته صخرة. حاول أن يزحزحها. كانت قطعة صماء من جبل تسدُّ المنفذ إلى الضفة الأخرى.

سمع الفحيح المقزز في الظلمة فاشتعل بدنه بقشعريرة. تزوّد بكل ما في أعضائه المحمومة من قوة وحاول مع الصخرة الهمجيّة. ولكن قطعة الجبل كانت أقوى. أدركته الحيّة. أدركته بعد مطاردة استمرت أكثر من

أربعين عاماً. لَدَغته بنابها الزعـاف المتعطّش للعقب الإنسـاني ونزعت منـه الحياة للمرّة الثالثة: المرة الأولى عندما وَسْوَسَت لجـدِّه في البستان وأغْـرَته باللقمة الحرام، وفي المرة الثانية عندما حَـرَمته البصـر، وفي المرة الثـالثة، والأخيرة، جزاء خيانته الـوصية وجهله بـالتعويـذة الصحراويـة التي تقول إن الحيّة تسعى إليك بالنّاب إذا لم تذهب إليها بالهراوة!

أخيراً ضرب الكهفَ زلزالٌ فتزحزحت الصخرة وهوت في الهاويـة. هوى وراءها. وكان عليه أن يهوي في الفـراغ والظلمـات حتى يسطع الضيـاء في الـطرف الآخر من الـظلمة. ومـا أن سطع القَبَسُ حتى رأى الـوعاء، شكـوة العفن، ممدّدة خلفه في الظلام، فعبر والتحق بالضوء.

(١٠)

استيقظ القِبْلي وتنفّس الغبار ثلاثة أيام متتالية.

لم يغفر لنفسه غضبته الجنونية في الساحة فخرج إلى الخلاء. مكث في وادي الطلح وتفقّد أمهاته الأشجـار. تنقّل بينهـا ورأى كيف شحبت أغصان بعض الأشجار وذبلت أوراقها بسبب العطش الطويـل. حام حـولها وداعبهـا وعزّاها بالصبر. وعدها أيضاً أن ينـذر للّه نَذْراً ليضع حدّاً للقبلي والجدب. قضى ليلتين هناك ينتظر قطيع الـذئاب. هَجَـع تحت عناقيـد النجوم وانتـظر العواء الفاجع. انتظر ضحكة الجوع. بكـائية الشبـع. الشكوى الحكيمـة. نـداء جدّتـه العجوز. الـذئبة الحكيمة التي أرضعت جدّه وآخت بينـه وبين قطيع الذئاب. الأم الرحيمة التي حذّرتـه من العودة إلى حـظيرة أبنـاء آدم. ولكنه انقاد وراء سحـر حواء فـانتصر، في نفسـه، نداء الشهـوة على صوت الحكمة، فجرَّ على كل نسله اللعنة. فتعالي أيتها العجوز الحكيمة. تعـالي يا أمّي الحقيقية، جدتي الرحيمة، واسمعي السرّ الذي يخبئه لـك حفيدك. إقبلي في قطيعك حفيـدك الضّال، لأن المخلوق لا بُـدَّ أن يعود إلى أصله، كما يعود الطائر المهاجر إلى عشّه، مهما تاه وضاع في صحراء اللّه الأبدية. إقبلي يـا عجوزي الـطيبة حفيـدك وردّيه إلى القـطيع ليخبـرك برحلة ولـدك

الضال في حظيرة البشر. بغربته القاسية في حظيرة البشر. إقبليني في القطيع واغفري لجدّي ضلاله وجهله بوحشيَّة الناس. إقبليني لأحدِّثك بما فعلوه به وبنسله من بعده. إقبليني، باللّه، لأحدّثك عن السمّ الزعاف الذي تجرَّعه من شفتي حواء ـ الحيّة.

وبدل أن يسمع النّداء الحزين زَفَرَ القِبْلي في أُذنيه وغمره بالغبار.

عاد إلى النَجْع وذهب لزيارة النذير. تذكّر غضبته المجوسيّة على مخلِّصه فاكتأب ونَزَفَ قلبه بالحزن. وجد نفسه في برزخ يطلُّ على الخلاص الأبدي فأعاده النذير إلى الأرض الوحشية. أنزله من العرش السماوي المصنوع من خيوط الضوء ليجد نفسه، مرة أُخرى، بين قطيع وحوش تتقاتل بالسيوف والسكاكين في سبيل قطعة مشؤومة من نحاس النحس. كان نقطة ضوء في الفضاء الخالد فأصبح، بعد خروجه من البرزخ وحلوله في الوعاء، كتلة لحم تتمزَّق وتستجيب لأصغر ألم. لخدش في الجبين، أو وخز في إصبع. فكيف بـ «ايغايغان» التي تجعل العصب نفسه ينزف.

ولكن ما يدري النذير أنه، بتضحيته، حَرَمَهُ مِنْ حَرَمِ الخلاص وأعاده إلى معقل الحسِّ ووعاء الألم.

غفر له لأنه لا يدري. وذهب لزيارته كي يحدّثه عن برزخ الخلاص ومتاهة الضياء. ولم يكن الدرويش يدري أيضاً أن النذير قد سبقه إلى هناك، وأصبح جزءاً من المتاهة.

(١١)

غزته موجة العفن فسدَّ أنفه بلثامه. جاء إلى الخباء من الشمال، من الجهة المؤدية إلى ايدينان،فساقت له الريح الرائحة واستقبلته بموجة العفن. أحسَّ بدوار وغثيان. دار حول الخباء. بجوار الأوتاد، من الناحية الشمالية، زحفت الرملة وارتفعت تلّة ترابية عنيدة على طول الامتداد الخلفي للخباء. في المدخل حاصرت الرملة كوم الحطب أيضاً وغمرت أوعية الشاي وأواني

الطعام. أفرغت الأرة من الرّماد وطار الغبار بالهباء. ولم تترك الريح في الحفرة إلاّ القطع الكبيرة من الفحم وأعواد حطب احترق نصفها. في المدخل تمدّد عرقوب رملي قصير القامة، حادّ الظّهر، عنيد اللّسان. سعى لسدّ فم الخباء والالتقاء بالطرف الآخر، الخفي، للرملة، في نيّة خبيثة لوصل الطوق وقفل دائرة القبر.

كانت الريح تدفعه بعنف إلى الأمام، نحو القبر، في هجمات جنوبية همجيّة.

في صدر العرقوب رأى طابور الديدان المقززة يزحف ببطء خارجاً من الخباء، ولكنّه لم يشم رائحة الفساد. الرائحة خطفتها الريح وطارت بها إلى الجهة المضادّة.

اجتاز العرقوب القصير وأزاح طرف الخباء. وقع بصره على الشَكْوَة. البدن ممدّد في الجزء الأيمن من الخيمة. الرأس ملقى نحو الشرق، نحو القبلة، والأرجل ممدودة إلى الركيزة. على الأرض، حول الجسد، سال صديد. خليط من الدهون والدم والقيح. فوق السائل تجمعت أسراب ذباب سمين، كبير الحجم، أخضر اللّون.

الجسم كله مغمور بالديدان.

الزواحف المقززة تخرج من الفم المفتوح، الأزرق، لتدخل فتحة الأنف، وتخرج من فتحتي الأنف لتدخل إلى مقلة العين. كانت العين اليسرى مكشوفة، في حين انسدل اللثام على قرينتها اليمنى، فدبَّت الحشرات في المقلة الخاوية، المطفأة، ونهشت غشاءها العاري الذي قضى في حبس الظلمة وحلم دوماً بمشاهدة القَبس والشمس.

الأطراف المكشوفة أيضاً نزف منها الصديد، من أصابع اليدين اللتين تقبضان في وحشية على حفنتين من الرمل، ومن القدمين المغمورتين بالتراب.

بجوار العقب الأيمن رأى رأسها. رأس حيّة قبيحة تحدِّق فيه بوعيد، في

حين أخفت جسمها البشع تحت التراب. أحسَّ بقشعريرة. قفز إلى الوراء في حركة تلقائية. خطف هراوة غمرها التراب بجوار كوم الحطب. عاد إلى الخباء. فقد صوابه. اشتعل صدره بجنون الانتقام. انتقام قديم ورثه عن الأسلاف في وصيّة لا يعرف لها أزلاً، ولكنه وجدها تجري في دمه مع الحياة. انتقام من مخلوق خدع السلف الأول وأدخله الحَرَمَ وأغراه باللقمة الحرام ليكتب لعنة المنفى والشقاء على نسله إلى الأبد.

عندما عاد وجدها قد انتشلت من الأرض جسدها المغمور ورفعت رأسها استعداداً للدفاع عن النّفس. هوى على رأسها بالهراوة. ظلَّ يهوي حتى تحوّل رأسها إلى كتلة من الدماء. ولكنه لم يطمئن. علّمه العداء الخالد أن الحيّة لا تموت إلاَّ إذا فصلت رأسها عن جسدها. إنها تتظاهر بالموت فإذا تركها الإنسان لحقته ولدغته في أول مخدع. ولولا براعتها في التحايل لما استطاعت أن تخدع الجدّ الأول وتسرق منه الجنّة.

حملها بالهراوة إلى أقرب حجر خارج الخباء. وضع رأسها الدّامي فوق الحجر وحزّه بضربات حماسيّة متتالية من حجر آخر حادٍّ الطرفين. لوَّث الدّم يده وتناثرت قطرات أخرى على ثوبه. حفر حفرة بالحجر الحادّ. ألقى فيها الرأس الشيطاني البشع وأهال عليه التراب. مدَّ يده إلى حبل الجسد وتناوله من الذنب المدبب.

غمرته قشعريرة ولكنه طمأن النّفس الخائفة قائلاً لها إن الأفعى محزوزة الرأس هي مجرّد حبل لزج وقبيح من اللحم.

عاد إلى الخباء ووضع الحبل البشع بجوار الجثمان. جفل سرب الذباب واستنشق رائحة السموم القاتلة. خرج يترنّح. انهار بجوار الموقد وتقيأ. أحسّ أن أمعاءه كلها تتحرّك وتصعد إلى حلقه.

اختفت الشمس في غيمة الغبار ولكن القرص استمرّ يطلُّ من خلف سحب الغبار بين حين وآخر. قطعت الشمس مشواراً طويلاً في رحلتها وبدأت تميل إلى الغروب.

جمَّع أكوام الحطب فوق الجثتين. أشعل النّار. خرج من الخباء ووقف يتفرّج. لم يشهد الدخان. الريح أجّجت النّار فرأى ألسنة اللهب النهمة وهي تتلوّى وتطلّ من زوايا الخباء على طريقة الحيّة عندما تُستفزّ وتتحين للعدوان. تمادت الشعلة. ارتفع اللهب. بدأ الخباء يحترق ويغرق في النّار.

هَرَع النّاس.

ولكن الدرويش لم ير ولم يسمع ولم يجب على سؤال. خمدت النّار فاقترب من كوم الرماد. حدَّق في الموقد الهائل طويلاً. استمرّت موجات الريح تجلو الجمر وتجرّد الفحم من ركام الرماد. ولم يتنبه أحد إلى الفحيح المكتوم، الحزين، الذي يشبه آهات التوجع والأنين، المنبعث من الجمرة المستديرة، الكبيرة، التي لا يعلم إلاّ هو أنها جمجمة النذير. كما لم يحس أحد، في العتمة، أن دموعه الحارة هي القطرات التي تنزف من مقلتيه، لتروي العظمة المتوهجة، فتستجيب الجمجمة للنّداوة المحمومة بأنّات التوجّع وآهات الفرح الحزين.

٥ - سرّ الظّمأ

«الماء! لا طعم لك. لا لون لك. لا رائحة لك. أنت لا توصف. يُتلذّذ بك دون أن تُعرف ما أنت! أنت لست ضرورياً للحياة فحسب، ولكنك أنت الحياة».

انطوان دي سانت اكزوبيري

«كوكب الخلق»

(١)

قيل إن غياب النذير هو الذي أبطل السّحر وفسخ مفعول الحرز.

والتدبير انكشف عندما قامت بنات القبيلة بترتيب ميعاد عاصف ابتهاجاً بخروج «قاضي الموت» من السهل فشرَّفته الأميرة بحضور مفاجىء. وروى آخرون أن هذا التشريف هو كلمة السرّ التي فسخت الحصن الخفي الذي دبّره النذير لأوخا قبل مصرعه. هذه الرواية المثيرة تؤكّد أن ابنة عم أوخا الفرعاء استعانت بالسّحر للاستيلاء عليه بقيود غنائية فنظمت الميعاد لهذا الغرض. ولكنها لم تتقيّد بالتفاصيل وأهملت في تنفيذ الشعائر فانقلب السّحر إلى ضدّه. استغلّ الجن الخطأ. هَرَعوا إلى «واو» وجاؤوا بالأميرة في رمشة عين. قلبت الزيارة المشؤومة الحساب واستعادت تينيري أوخا ليقع في المرض ويصبح عبداً لها من جديد.

ولكن الضربة لم تقصم ظهر المعاندة الفرعاء.

ذهبت لزيارة الدرويش في خباء مربيته الزنجية. اشتكت العجوز من آلام المفاصل وضعف البصر ومن غياب الدرويش عن البيت. قالت:

ـ إنه لا يسكن هنا. يسكن في كل مكان إلاّ هنا. يقيم في كل بيت إلاّ في بيته. لو لم يفعل ذلك لما كان درويشاً. سبحان اللّه!..

ارتفعت الشمس أشباراً فوق القمم الشرقية البعيدة. انصرفت فاعترض طريقها في العراء. ابتسم لها وقال:

ـ قيل لي أنك تبحثين عنّي!

أدهشتها فطنته. فهي لم تخبر أحداً بنيّتها في زيارته، كما أنه أقبل من الجهة المعاكسة لخباء مربيته. ابتسمت له:

ـ كيف عَرَفت؟

ـ من عينيك. من مشيتك. وهل يخفى على الدرويش شيء كهذا؟

ضحكت له. ضحك لها أيضاً. عرًى قلبه:

ـ أنتِ يا تميماً أجمل فتاة في هذه القبيلة، في «واو» وربما في الصحراء.

غمزت بعينها:

ـ أجمل من تافاوت؟

ـ ها.. ها..

ـ أعرف أنك بارع عندما تريد أن تأسر قلوب العذارى، فهل تنوي أن تعشقني؟

ـ ومَنْ لا يعشق فرعاء مثلك. أنت أطول قامة من أكبر مارد في ايدينان. ولكن أوخا مكابر أعمى!

ـ كل بنات القبيلة فارعات، كل بنات الصحراء فارعات. فتيان القبيلة لا يأبهون لقامات المَرَدَة. القامة لا تكفي.

هبَّ موسى وتكلّم بحماس:

ـ انتظري. انتظري. ماذا ينقصك؟ أعرف أنك تريدين أن تجريني إلى الجاذبية. ذلك اللغز الذي يصرع كل المكابرين المنفوشين بأدرع القماش.

الكنز الخفي الذي لا تستطيع امرأة في الصحراء الاستغناء عنه. ولكن أقسم أن هذا المعدن النّفيس لا ينقصك أيضاً. ولكن السرّ ليس في الجاذبية، في الكنز، وإنما فيه هو. في أوخا. إنه مكابر وأعمى!

- ولكنه لا يرى إلّا جاذبية الأميرة. أيقظ الميعاد في صدره الغول القديم فجرى وراءها ككلب السلوقي.

- لأنه أعمى. هذا برهان آخر.

اقتربت منه خطوات. سبقتها نظرتها فكشفت عن نيّة خفية:

- قلْ لي: قل لي أنك رأيت الشّكوة. هل رأيت الشّكوة حقاً؟

هزَّ رأسه بالإيجاب. تذكَّر حقل الدّيدان والشحوم وسوائل السموم فنكس رأسه.

قالت بدلال:

- حدِّثني عن الشّكوة. جئت كي أسمع حديثاً عن الشكوة. هل نهشت الدّيدان لحم الميت؟ هل أكلته أسراب الذباب كما يُقال؟ هل نزل من اللحم سائل أصفر وآخر أخضر؟

رفع رأسه فرأى الحيّة. أحسّ بقشعريرة. لا يعرف كيف انتقلت تلك الحشرة الفظيعة، الزاحفة، المقززة، وحلّت في هذا الكائن الأنثوي الفاتن. في تميما الفرعاء. استقرّت في بدنها، تلبّست قامتها. انتقلت إليها. في وجهها المستطيل، في عينيها الفضوليتين، اللامعتين بالشهوة، في قامتها الإنسيابية الطويلة. تميما حيّة. المرأة حيّة. المرأة قتلت النذير. الأنثى لدغته. انتقمت منه. انتقمت لأنه رأى باطنها ببصيرة العميان فروَّج للعفن الذي رآه، فسفَّه الجمال المزعوم وطعن كبرياءها. الآن فهم أن النذير لم يمت بلدغة حيّة. النذير مات مسموماً بالأنثى. الأميرة، أو تميما، وربما الاثنتان معاً، سخَّرتا الرفيقة الخالدة وسلّطتاها لقضم عقب النذير. سحر آير هو القادر على تسخير الأفعى. الأفعى رسول الأميرة. الآن فهم

لماذا سقط أوخا في الحمّى وعاد عبداً لتينيري من جديد. فهم في لحظة وحي لا يُلْهِم به اللّه إلاّ الأنبياء أو أخصّ الأولياء. الحيّة هي المرأة. ها..

قال ساهماً:

ـ نعم. رأيت كل هذا العفن. ولكن.. انتظري. تلك الحيّة لها ملامح تينيري

(٢)

ذهب إلى «واو» لزيارة الأميرة.

رحَّبت بمجيئه. في عينيها الساحرتين، الماكرتين، رأى بهجة صادقة. أجلسته على الكليم وسألته:

ـ في آير نسمّي أمثالك أخطر السَحَرَة. أخطر المجوس.

بسطت يدها المخضبة بالحنّاء أمام وجهه، وبدأت تحصي انتصاراته على رؤوس أصابعها:

ـ بضربة واحدة صرعت الأعداء: العرَّافة، ثم الإمام، ثم.. ثم القاضي بابا نفسه. مَنْ يستطع أن يقضي على كل هؤلاء في ضربة واحدة غير كبار السحرة؟

أجاب بمرح:

ـ وهل يجرؤ السَحَرَة على منافسة كبيرهم الذي علّمهم السّحر؟

ـ هل أنت تعترف بأنك كبيرهم الذي علّمهم السحر.

ـ أستغفر اللّه. كبيرهم هو اللّه الذي وقف إلى جانب موسى وبثَّ الرّوح في عصاته لتتحوّل إلى حيّة تسعى وتبلع حيّات باقي السحرة. اللّه قدَّرني أن أقف في وجه عصيّهم. ولكن بقت حيّة لم تبلعها عصاتي بعد!

ـ أخبرني أي حيّة عجزت أفعى الدرويش عن ابتلاعها. قلْ لي قبل أن أموت من الفضول.

ضحك موسى. قال بخبث:

ـ تينيري. حيّة الساحرة تينيري.

ضحكت أيضاً وهي تلقي برأسها إلى الوراء في حركة فتنة. قالت:

ـ أنت تعرف أني لا أُمارس السّحر.

ـ كل بنات آير ساحرات.

ـ حقّاً؟

ـ نعم. إنْ لم يكن بسحر السَّحَرَة فبسحر الحُسْن.

ـ لسانك مثل العسل. مقسوم إلى نصفين، مثل لسان الحيّة، ويجيد الكلام الحلو الذي يفتن الصبايا. لا غرابة في أن أرى كل نساء القبيلة واقعات في عشقك!

ـ ها.. ها.. ها..

ـ لا تضحك. أتكلّم وأنا جادة.

ـ هذا البائس المعشوق من كل النساء وقع في عشق امرأة واحدة في حياته كلها فبعثته رسولاً إلى معشوقها في الجبال. ها.. ها..

أجفلَت. تحرّكت إلى الجهة الأخرى، المعتمة، من الدار. وقفت في الزاوية وقالت دون أن تلتفت:

ـ لا تقسُ. انْسَ. الفارس النبيل هو مَنْ له القدرة أن ينسى. والمرأة لا تعبد إلاّ الرجل الذي ينسى الماضي.

ـ دعينا من العشق وحدِّثيني عن الحيّة التي أرسلتها لقتل النذير.

التفتت. لمعت عيناه في عتمة الزاوية.

هتفت باستنكار:

ـ الحيّة؟!

ـ وجدت عند عقبة حيّة فاتنة. عيناها من عينيك. وجهها من وجهك. رأسها من رأسك. جسمها من جسمك. ها..

قاطعته:

ـ ليست بيني وبينه عداوة.

قال بقساوة:

ـ بل توجد عداوة. أَلَمْ يأخذ منك أوخا؟

ـ ومَنْ قال لك أني ما زلت أعشق أوخا؟ ألم تذكّرني منذ قليل بقيامك بدور رسول بلّغ رسالتي إلى ودّان الجبال؟

ـ ولكنك لا تريدين أن تتخلّي عن أوخا أيضاً. اعترفي بأنك لا تريدين أن تتخلّي عنه. أنت تنوين الاحتفاظ بكليهما. أنت امرأة بقلبين. قلب في الجبل وقلب في السّهل. ها..

ـ ها أنت تفقد العقل وتعود إلى لغة الدراويش.

هبَّ غاضباً:

ـ أنا لم أخرج من جنتي أبداً. لم أخرج من جنة الدراويش إلاّ مرة واحدة. أنت تعرفين متى كان ذلك. ولكني ولدت من جديد واستطعت أن أعود إلى فردوسي الذي كدت افقده إلى الأبد، ولن تستطيع كل نساء الصحراء أن يخرجنني منه مهما تفوّقن في الإغواء. أنت حيّة! لم تكوني في يوم من الأيام سوى حيّة! لَدَغْتِ النذير لأنه أرجع أوخا عن طريقك، ولن ينعم بالك بالسكينة إلاّ عندما تلدغين أوخا و«اوداد» بالنّاب البشع نفسه. ولكنك أغفلت سرّاً يميّز المرأة التي تعشق بقلبين عن غيرها من النساء. فاسمعي إنْ أردت النجاة..

استمرّت أنفاسه تتلاحق. طغى البياض على مقلته الحولاء. نزّت زاوية فمه بالزّبد. أكمل بجنون:

ـ فاض الوادي بالسيل فاحتمى الناس بالمرتفعات إلاّ العذراء. وقفت في

وسط الـوادي الهائـج تستمع إلى نـداءات الشابين المتنـافسين على قلبهـا. أحـدهما يعتلي ربـوة على الـطرف الشـرقي، والآخـر يقف فـوق المـرتفـع المقابل. كـلاهما كـان يغريهـا بالإقبـال عليه لأن جهتـه أعلى من الأخرى، وأكثر أماناً من غدر السيل. احتارت العـذراء بين الطرفين. جـرت إلى جهة الرابية الشرقية، ثم عادت من منتصف الطريق، وأقبلت إلى جهة المرتفـع. ثم تراجعت وأدبرت على عقبيها. امتلأ الـوادي بالسّيـل وتلقفها كـالقدر من الأرض وهرب بها إلى الأبد. الرجال، كالأشياء، كاللّه، لا تحتمل أن يضع المعشـوق قلبه في مكـان آخـر. أنت في خـطر يـا تينيـري. أنت في خـطر حقـاً!

تابعته بذهول.

تابع:

ـ أنت في خطر. هذا هو السرّ.

جلس. تابع بنبرة حزينة:

ـ أمّـا أنا ففـزت بفردوسي. أنـا، الآن، في واوي. واو الحقيقية وليست واوكم الأرضيـة. واو الأصليـة وليست واو المـزعـومـة. هـا. من حقي أن أتباهى بالـوصول. في لغتنـا شيء اسمه «البلغـة»(*). هل تعـرفين «البلغة»؟ حققت البلغة بالمدية. مدية العرّافة قطعت رأس الحيّة. ها. هذه بـطولة لن تفهميها. هذا اعتراف لن تفهميه. ها..

قاطعته مرة أخرى:

ـ هـا أنت تعود إلى لغـة الدراويش. دعنـا من «البلغة» ومن الاعتـرافات وقلْ لي لماذا أنا في خطر.

ـ ها. لأنك رهنت قلبك عند حبيبين. لأنك ما زلت تركضين بين الربـوة

(*) يقول النّفري: وجود البلغة مادّة من مواد الصبر. ووجود الصبر مادّة من مـواد القوّة. ووجود القوة مادّة من مواد الولاية.

والمرتفع دون أن تفيقي بأنك في الوادي. رهن القلب بين المرتفع والربوة طمع في الاستحواذ على الأرض والسماء. جشع لا يغفره القدر. ها.

- أنت تجهل المرأة. أنت لم تعرف المرأة يوماً. قيل لي أنك لم تعرف حتى أمّك. فكيف تدَّعي الخبرة بقلب الحسناء؟.

احتقنت وجنتاها بلون الشَفَق عند المغيب. تراجع الحزن في جمالها ولكنه لم يفقد السحر. أكملت:

- أعلم أنّ اللّه خلق المرأة لكي تستحوذ على قلوب كل الرجال. جمال المرأة ملك كل الرجال. هبة إلّهية لأبعد رجل في الصحراء. وعلى الرجال أن يحمدوا اللّه على النعمة ويسجدوا له لأنه خلق في الصحراء العارية أجمل المخلوقات. فكيف تحسدني على قلبين؟ كيف تستكثر على امرأة جميلة رجلين بائسين؟.

قهقه الدرويش:

- ها. هذا أغرب ما سمعت. هذه دروشة!

- لأنك لم تسمع حسناء من آير قبل اليوم. ماذا يعرف رجال صحرائكم عن نساء آير؟ بل ماذا يعرفون عن آير؟ يظنّون أنه لا يخفي سوى الذهب والسحر والمجوس.
- ها. في هذه صَدَقْتَ. يخفي الذهب والسّحر والمجوس..
- كنز آير الحقيقي في نسائه. سحره في نسائه. عقيدة المجوس في نسائه أيضاً. فما ظن الدرويش؟.
- لا الذهب يهمّني ولا السّحر ولا دين المجوس. قلت لك النساء حيّات قطعتهنّ من قلبي.
- لن أصدِّقك. حتى لو قفزت في النار لتبرهن لي فلن أصدّقك. ليس ثمة رجل يدبُّ في الصحراء لا يرتجف قلبه ويرقص بالوجد السرّي بمجرد أن تقع عينه على امرأة صحراوية.
- ها.

ـ الـدرويش ليس استثناء. الـدرويش مخلوق صحراوي. هـل تشك في أن الدرويش مخلوق صحراوي؟

ضحك وعلق باستهزاء:

ـ أُوافقك أنه مخلوق صحراوي، ولكنه ليس رجلاً. ها.

ـ أنت تسخر منّي. أنت تمزح. متى تكفّ عن المزاح؟

ضاعف الغضب من سطوة جمالها، ولكن الجلال اختفى.

(٣)

الغروب.

التقى بها في مربط المعيز. أنّبته فوراً:

ـ قيل إنك أغضبت الأميرة.

ـ ها..

ـ هذا لا يليق.

ـ هل تحبين تينيري؟

ـ ليس بيني وبينها عداوة.

ـ ألم تأخذ منك اوداد؟

ـ لا أعرف أيّهما أخذ الآخر.

ـ ها. المرأة هي التي تأخذ الرجل. الأغلال في يد المرأة دائماً.

ـ أغلال؟.

ـ أغلال. سلسلة طولها سبعون ذراعـاً. حبل المسـد. لوازم الاستعبـاد. المرأة تريـد الإيقاع بـأكبر عـدد من الرجـال لأنها تحتـاج إلى أكبر عـدد من العبيد.

ـ عبيد؟

ـ المرأة لا ترى في الرجل إلاَّ العبد.

ـ جنون. لغة الدراويش.

ـ نعم. الزعيم قال إنه سمع ذلـك من مجنون حكيم. الحكمـة في أفواه المجانين. ها. ولكنّي نجوت من الشّرك. نجوت من الحيّة.

ـ الحيّة!

ـ قلت لها إني قطعت الحيّة بمدية العرّافـة. قتلت الحيّة فبـطل سحرهـا وانقلب على رأس.. انقلب على رأس أوخا لأنه لا يملك الشجـاعة في أن يقتل الحيّة كما فعلت. لن يفلح حتى يقتل.

ـ لا أفهم. هذه لغة أخرى.

ـ قلت لها إنها في خطر.

قاطعته تافاوت بحماس مفاجىء:

ـ هذا ما قيل بالضبط. قيل إنك هدّدتها بالقدر وقلت لها إنها في خطر.

ـ نعم. قلت. ما زلت أقول. المرأة التي تتردد بين رجلين. المـرأة التي تركض بين الربوة الشرقية والمرتفع الغربي لا بدَّ أن يجرفها السيل. هل في هذا عيب؟ ولكنها أنزلت على وجهها خماراً من قوس قزح وقالت غاضبة إن رجال آزجر يجهلون نساء آير. يـظنّون أن آيـر لا يخفي إلاَّ الكنوز والسّحـر والمجـوس، في حين أن كنزه الحقيقي في نسـائه. لأن المـرأة هنـاك تنـذر نفسها لكل الرجال بمجرد أن تولد. نعم. هكذا قـالت. المرأة هبـة لرجـال الصحـراء. قدر المـرأة أن تعشق كل الـرجال. ولكني أرى أن قَـدَر المـرأة الحقيقي هـو أن تستعبد الـرجـال. هـدفهـا أن تستعبـد. أن تعشق. العشق طُعْمٌ. مادّة للغواية. للاستدراج. ها.. قلت لها إن المرأة ليست همّي فزاد غضبها.

تابعته بابتسامة خفيّة. قالت:

ـ من حقها أن تغضب. هل هذا كلام يُقال للمرأة؟ عهدت فيك الحكمة.

ـ ها. الحكمة في فم المجنون. لقد اتفقنا. هذا ما سيقوله مجنون الزعيم لو كان في مكاني. ولكن دعينا من الأميرة واسمعي كيف امتدحتك تميما في غيابك.

ـ حقّاً؟

ـ قالت إنك أجمل فتاة في السّهل. لم تقل في القبيلة وحدها. قالت «في السهل». ها. أظن أنك ستتباهين بهذا الرأي عندما تعلمين أنه شهادة من فتاة النبلاء.

ـ أنت ثعلب. تدَّعي اللامبالاة بالنساء في حين تتقن دغدغة قلوبهن بالكلام الحلو.

ـ ها.

ـ ولكن هل أكل أوخا الجيفة حقّاً؟

ـ الرّاعي اللئيم هو الذي رآه ولست أنا.

ـ ولكنه مرض بتينيري من جديد، فهل لموت النذير ضلع في عودة المرض؟

ـ اللّه أعلم.

ـ هل سحر بنات آير قوي إلى هذا الحدّ؟

ـ اللّه أعلم.

ـ ما أشقى أوخا إذا أكل الجيفة بدون فائدة. بدون خلاص.

ـ اللّه غالب.

ـ ماذا سيفعل الآن؟

ـ اللّه أعلم.

فهمت أنّه توغّل بعيداً وغاب في الباطن.

(٤)

يئس آخماد.

تحدثت «واو» كلّها كيف سافر إلى اوداد في تادرارت كي يقنعه بالابتعاد عن طريق الأميرة والتنازل عنها لأوخا. ولكن الودّان العاشق استنكر وعاند فعاقبه آخماد بـ «ايغايغان». سلّط عليه ثلاثة من أعوانه الأتباع وجرّه بين الجبال والكهوف بحبل من مسد. صعق عروق دماغه بالبروق التي تَقْدَح بمجرّد وقوع الضربات على عمودي العذاب. ولكن المفاجأة التي أدهشت النّاس وترددت على شفاه أهل «واو» كلها حدثت هنا. فمع كل ضربة تقع على أحد العمودين كان اوداد يقفز في الهواء كودّان حقيقي ويقهقه ببهجة تستجيب لها قمم الجبال وأفواه الكهوف بالصّدى والهمهمات الخفيّة. ويروي الأتباع الثلاثة، الذين شاركوا في تنفيذ العقاب، أن آخماد النبيل أصيب بالدوار واليأس فألقى بالحبل كأنه يبعد من يده حيّة تشبّثت به وهرول هارباً. ولم يعرفوا حتى الآن عمّا إذا كانت قهقهات اوداد الاستفزازية هي السبب، أم أن لهمهمات الكهوف الغامضة دوراً أراد آخماد أن يخفيه.

بعد أيام اجتمعوا في خباء أوخا. أوقدوا النّار وتحلقوا حوله. سخر منه أحد الأتباع وأذاع له سرّاً:

ـ أنت تخلط. هل ظننته الدرويش؟

سأل آخماد ببلاهة:

ـ وما الفرق بينهما؟ هل الدرويش من نور واوداد من نار؟ كلاهما كوز من رمل الصحراء.

ـ أنت تعلم أننا، نحن الأتباع، كنّا عبيداً لأجدادكم القدماء.

ـ أعلم.

ـ وهل تدري أن عرق العبيد مجبول على «إيغايغان» منذ المهد؟

ـ كيف؟

ـ إيغايغان حساب اخترعه أجدادكم القساة لتأديب العبيد المعاندين والعصاة. ومن حق العبد في هذه الحال أن يدبّر حيلة لتخفيف عقاب السّادة القساة. فيبدأون في قتل عروق الرأس حرقاً بالنّار وضرباً بالعصا في سنّ الطفولة. حتى إذا كبر الولد استطاع أن يصمد للعذاب ويتحمّل عقوبات السّادة.

شرب آخماد جرعة ماء. أطبق على فمه باللثام وهتف:

ـ هل تريد أن تقول إن اوداد محصّن من عذاب العبيد منذ الطفولة؟

ابتسم التابع اللئيم. ثم أكمل بلغة مبهمة:

ـ إذا لم تحصّنه أمّه في الطفولة فهذا يعني أنه محصّن في الدّم. بالفطرة. وهذا أقوى أنواع التحصين. إنه حصن له خصائص السّحر. أما الدرويش..

سكت فتابعه الحاضرون بفضول. حبس آخماد أيضاً أنفاسه. قال التابع:

ـ إيغايغان أقسى عذاب عرفته الصحراء. بإيغايغان فقط يتمنّى الإنسان أنه لم يولد. إيغايغان وحده يجبر الفارس المكابر أن يركع ويمحوه العار. أنتم لم تجربوه فاحمدوا اللّه. أما أنا..

غمر جبينه تعرق مفاجىء. طأطأ رأسه. أسدل طرف اللثام العلوي على عينيه. هيمن صمت مشدود. تشجّع الراوي:

ـ ليس العذاب هو القاسي في إيغايغان ولكن طعم الذّل. ايغايغان يهين

الرجل ويجعله يذوق الذلّ. والرجل إذا ذاق الذلّ فإنه سيحتقر نفسه. وإذا احتقر نفسه فخير له أن يموت حقّاً. كل ضربة تنزل على عمود إنما تخترق العظام وتمس العرق بالنّار. عرق النماغ. هناك حيث يسكن الدراويش. يُقال إن مأواهم هناك. دراويش سردلس يسمّون ذلك المكان «الباطن». ولذلك فإن ضربات العصا إنما هي برق يزلزل مأواهم. هل فهمتم الآن صيحات الدرويش الوحشية في ذلك اليوم؟

لم ينطق أحد. في زاوية الخباء ارتفع أنين أوخا. أكمل التابع الحكيم:

ـ هل عَرَفتم لماذا احتكم القاضي الشيطاني إلى هذا العذاب المجوسي؟ قاضي شنقيط كان يعرف سرّ الدراويش. يعرف أن إيغايغان للدرويش أقسى من الموت. قاضي شنقيط داهية من سلالة الوحوش. والسلطان هو المخلوق الوحيد الذي فهم سرّه في هذه الرّقعة. ولا أعرف ماذا كان سيفعل بنا الشيطان بابا لو طال به المقام وبقي قاضياً في «واو». ينصر دين السلطان!

ردّد وراءه الشبان في صوت جماعي:

ـ ينصر دين السلطان!

(٥)

عاد آخماد واستعان بالوتر الحزين.

أقبلت الشاعرة. تقاطرت الصبايا. احتضنت الشاعرة آلتها الحزينة وجرَّبت العزف المنفرد طوال النصف الأول من الليل. ارتفع الوتر بالنحيب. ملأ السهل كله بالعويل. ظلّ المصاب يتمايل مع ألحان العزف المنفرد علامة الشّجن والنشوة. تعبت الفنانة وتوقفت. تبادلت الملاحظات مع حسناء مجاورة واتفقتا خفية ثم عادت تجرّ الوتر على الوتر فنحرت القلوب. عزفت لحناً شجنيّاً ورددت وراءها الحسناء أغنية جديدة لم يسمع أحد كلماتها من قبل. يقول المطلع الأول:

«لا أحد يعلم لماذا هي مشبوهة دوماً المرأة الوحيدة.

لا أحد يعلم لماذا هو قديس دوماً الرجل الوحيد».

ختمت القصيدة بالبيتين الفاجعين اللّذين أصبحا تعويذة العابرين منذ ذلك اليوم:

«أوكلان مان. ن ـ مان، ن ـ مانين

إدمّتغ إد أوماسغ غاسين»(*)

هنا أُصيب أوخا بالرجفة الجنونية. سطا البياض على العينين وسيطر في المقلتين. امتقعت الوجنتان البارزتان في ضوء النّار ووقع المريض في وجد محموم. تلوّى وتشنّج وانحسر اللثام عن فم يعلوه الزّبد. هرع إليه آخماد يعاونه بعض الفتيان. أخرج آخماد مدية من معصمه وشرع يمررها على أطراف المأخوذ لينحر الجنّ ويحرر أوخا.

جاء الدرويش ووقف بعيداً يراقب شعائر التحرير.

صرخ أحد الحاضرين لآخماد:

ـ احترس. سيخطف منك المدية!

أخفى آخماد المدية فقهقه الدرويش باستفزاز. قال ساخراً:

ـ لماذا تخافون عليه من المدية؟ لو كان في حالة وجدٍ حقّاً فلن يتأذّى حتى لو طعن نفسه ألف مرة.

في تلك اللحظة أفلت المجذوب. ركض في الظلمة فلاحقته الجماعة. توقفت الشاعرة عن نحر الوتر المشدود. صاح آخماد خلف الشباب:

ـ أدركوه قبل أن يفعل شيئاً بنفسه. أمسكوه قبل أن يقفز في البئر.

تقاتل أوخا مع الفتيان في الظلمة فقهقه الدرويش مرة أخرى. اقترب منه

(*) مسكين، مسكين، أنا، سأموت، وأصبح وحيداً، أنا (نماهق).

آخماد وانتهره بقسوة. هبَّ في وجهه:

ـ هل في هذا ما يضحك؟ لماذا تضحك؟ هل تشك في أنه مجذوب؟ قلْ. . .

ـ لو كان جذبه صادقاً فلا ضرورة للاحتراز. الواجد الحقيقي يطير فوق أفواه الآبار ولا يسقط. يقطع الصحراء من أولها إلى آخرها ولا يتعب. يسهر شهراً ولا يشعر برغبة في النوم.

ـ هذا هذر الدراويش.

ـ أنا أتحدّث عن الوجد. في الوجد الحقيقي لا خوف.

ـ هل تظنّه يتظاهر؟

ـ أنا لا أظن شيئاً. ولكني أتحدّث عن الوجد الحقيقي والوجد المزيف.

ـ هل تقول إن وجده مزيف؟

ـ هيء ـ هيء ـ هيء. . .

(٦)

حام موسى حول آخماد كما حام «مولا ـ مولا» حول أُمّ ضرّة تانّس(*).

طاف وراءه بين البيوت، طارده إلى المراعي، تسكّع بجوار إبله في العراء. واقتفى أثره حتى وهو يذهب في الخلاء لقضاء حاجته. اكتأب آخماد وتشاءم. هاج ووثب على رقبة الدرويش. صرخ:

ـ ماذا تريد منّي؟ لماذا تلاحقني كالشبح؟ أنت إنس أم جنّ؟

ـ هيء ـ هيء. . أردت أن أنعم عليك بسرّ ستشكرني عليه كثيراً.

ـ سرّ؟

(*) في أسطورة تانّس جاء «مولا ـ مولا» (وهو طائر صغير، أسود، مطبوع ببقعة بيضاء في قمة رأسه) إلى أم ضرّة تانس الشريرة وهي تلتهم لحماً تلقته هدية من تانس دون أن تعلم أنه لحم ابنتها فقالت «مولا ـ مولا»: «أعطني قطعة، أعطيك سرًّا». رفضت أم الضرّة فكتمت «مولا ـ مولا» السرّ ولم تخبرها أنها إنما تأكل لحم ابنتها الشريرة.

ـ سرّ يشفي العاشق إلى الأبد.

ـ هل تمزح؟ هل تستهزىء؟

ـ ولكنّي لن أستطيع أن أأتمنك عليه؟

ـ لماذا؟

ـ لأنه يخصّ أوخا.

ـ ليس بيني وبي أوخا أسرار.

ـ أخشى أنه سيفضِّل أن يبقى السرّ بيني وبينه. الطرف الثالث بوق ونذير.

ـ هذه قبيلة الأسرار. لا يفتح مخلوق فيها فمه إلّا ليتكلّم ويقول إن عنده سرّاً. وبرغم ذلك فإن أسرارها على كل لسان. أسرارها تنتشر في الصحراء كلها وهي ما تزال خاطراً في القلب.

ـ ولكن سرّي سرّ حقيقي. ترياق للعشق يفسده النطق ويبطل اللغو مفعوله. وبرغم ذلك فأنا مستعد أن أتقاسمه معك إذا أذن أوخا بذلك. أنا على يقين أنه سيفضِّل أن يبقى السرّ مدفوناً بيننا. إسأله إنْ كنت لا تصدّق. ها.

ظلَّ آخماد يتابعه بشكّ. شجّعه موسى:

ـ تيقّن أنه سيشفى. سينسى تينيري إلى الأبد.

ـ سينسى تينيري؟ ومَنْ قال لك إنه يريد أن ينسى تينيري؟

ـ ولكن الشفاء في النسيان. هل يوجد الشفاء في شيء آخر؟

ـ ولماذا لا يوجد في العشق؟ سيشفى من همِّه إذا بادلته الأميرة العشق كما يجب. كعاشقة.

ـ آه. ها أنت تخطىء. أنت تتحدّث عن الامتلاك. في الامتلاك شقاء. لا شفاء في الامتلاك.

ـ عدنا إلى هذر الدراويش. لن يقبل أوخا بسرّك إذا كان فيه تخلٍّ عن الأميرة.

ـ حتى لو كان في ذلك شفاؤه؟

ـ لا شفاء بعيداً عن المحبوب. لا خلاص في البعد عن المعشوق. هذا شرع الصحراء.

ـ لا تجدّف على الصحراء. هذا شرع العبيد وليس شرع الصحراء. ولكن لماذا تنصِّب نفسك وكيلاً عن أوخا؟ أليس هو صاحب الشأن؟ هل أخبرك بفمه أنه لا يريد الخلاص؟

ـ أنا أعرف طبع النبلاء. أنا أُعْرَفُ من أوخا بنفسه.

ـ لا يجرؤ على الادعاء بأنه أعرف من الإنسان بنفسه إلاَّ اللّه الجليل. و.. انتظر. قلت إنه طبع النبلاء. هذا هو الاعتراف الآخر الذي توقعته. طبع المكابرين هو السبب وليس شرع الصحراء.

ـ ماذا سينفعه الشفاء إذا كان سيفقد المعشوق؟ ماذا سيفعل بالعافية إذا طارت الحسناء واستقرَّت في أحضان الودان الجبلي، ابن الأتباع؟ بل ما نفع حياة لا يشقى فيها الرجل بحثاً عن امرأة؟ ما جدوى الصحراء بدون عشق؟

ـ هذه لغة العبيد.

ـ ولغتك لغة الدراويش.

لكم دينكم ولي ديني.

همَّ موسى بالانصراف. استوقفه آخماد:

ـ هذا دين التخلّي. الآن تذكرت. هذه دعوة الزعيم. أنت تستعير دور الزعيم. الشفاء في التخلّي. الخلاص في التخلّي. السعادة في التخلّي. و.. الحرية. الحرية، أيضاً، في العبور. هل تنفي أن الزعيم آدّه لم يروِّج لهذا الدين؟ هل تراهن...

ولكن موسى احتجب وراء الرابية.

(٧)

جاءه آخماد مكسوراً. قال:

ـ أوخا يئس. سيضيع. طلب أن يراك.

ترافقا. في الخلاء صفعتهما الريح بالحصى وحبّات الرّمل.

في الخباء توجّع أوخا بتنهيدة كئيبة. قبع موسى بجواره فنهض قليلاً. أسند جسمه الهزيل بمرفقه الأيمن وحيّا الدرويش بابتسامة شاحبة. أومأ لآخماد فخرج وتركهما على انفراد. تكلّم بحذر:

ـ قيل لي إنك تخفي لي سرّاً.

ـ نعم. سرّ. والسرّ ككنز الذهب يتفسّخ إذا كشفت عنه بدون قربان.

ـ لا أفهم.

ـ أُريد كراء.

ـ توقعت هذا. الإمام أيضاً طلب أجراً.

ـ الإمام؟

ـ دعنا منه وأخبرني ما هو الكراء.

ـ أنْ تترك اوداد في حاله. هرب إلى الجبال. ترك لكم السهل، فلماذا تلاحقونه إلى هناك؟

فتح أوخا فمه بضحكة عصبيّة. قال:

ـ لا أعرف أي منّا يلاحق الآخر. لقد نزل إلى السهل وخطف قلب تينيري. فَمَنْ المعتدي؟ لو كان رجلاً نبيلاً لقتلته في مبارزة. ولكن ما شفع له أنه ينتمي إلى قبائل الأتباع.

ـ هل تعدني أن تتركه إذا شُفيت؟

ندَّت عن أوخا ضحكة ساخرة:

ـ إذا شُفيت فقد بَطُلَ العجب كلّه. إذا شُفيت فما حاجتي في أن أرى وجهه الأخضر؟ بشرته الخضراء تثير اشمئزازي. إنه مثل الضبّ.

ـ لم أرَ ضبّاً بلون أخضر.

ـ لون الضبّ في «مساك صطفت» أخضر. هل رأيت الضبّ في «مساك صطفت»؟

سكت موسى. داعبه أوخا:

ـ لك الكراء الذي شئت. سأعتقه للمرة الثانية. في المرّة الأولى أعتق جدّي جدّه. وإذا ضمنت لي الشفاء فسأعتقه إلى الأبد. فهاتِ سحرك يا ساحر!

سكت موسى لحظة. زَفَرتِ الريح في الخارج. رفرفت أطراف الخباء الجانبية. قال موسى بغموض:

ـ نعم. ما سأشير به عليك له مفعول السّحر. أقوى من السّحر.

تابعه أوخا بفضول. لمعت عيناه باهتمام صادق. أخرج الدرويش من كمِّه المدية السرّية. مدية العرافة المرحومة. تحوّل الاهتمام في عينيٍ أوخا إلى دهشة. سحبها موسى من الغمد فلمع لسانها الشره في ضوء النّار. لسان خفي، حادّ الطرفين، نهم، مثل لسان الثعبان. أمسك بها الدرويش من المقبض الموسوم بالرموز السحرية ولوَّح بالنصل في وجه أوخا كأنه يهدده بحزِّ الرقبة. قال بالنبرة الغامضة نفسها:

ـ بهذه ستُشفَى إلى الأبد. هذه الجنيّة وحدها تستطيع أن تخلِّصك من البلاء. لأنها تستطيع أن تقطع رأس الحيّة بضربة واحدة. لن يفلح الرجل ما ظل يحمل في سرواله الحيّة.

لم يفهم أوخا. تابع المدية ببلاهة. سأل بذهول:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ الحيّة سبب شقاء جدّنا الأول. دخلت بين رجليه وأشعلت فيه الشهوة. ذاق اللقمة الحرام بسببها فوجد نفسه هائماً في الصحراء، مطروداً من فردوس «واو». ولن يفلح الرجل ما لم يستأصلها. مدية العرّافة صُنعت لهذا الغرض. أقصد أنك لن تشعر بالألم عند الطهارة. الخلاص في الطهارة. الطهارة الكاملة وليس طهارة الختان. اقطع رأس الشقاء!

قفز أوخا واقفاً. خرجت عيناه من مقلتيهما. انحسر لثامه عن شفتيه فرأى الدرويش زَبَداً يطفو على طرف الفم الأيمن. غمرته موجة من الشحوب. ثم.. ثم بدأ يرتجف. بل إن أطرافه بدأت تنتفض بعنف. خيّل للدرويش أنه سيقع في نوبة وجد. ولكنه صرخ بصوت متوحش، مخنوق: حشرجة مكتومة كخوار التيس الذبيح:

ـ يا كافر. يا ساحر. يا ابن المجوس!

هجم عليه. استلّ، في نوبة جنونه، عموداً جانبيّاً من الخيمة ووثب نحوه. قفز الدرويش وركض. طارده مسافة طويلة عبر العراء المغمور بالغبار والليل.

(٨)

انهمك آخماد يسرج المهري مع قبس الفجر. أعدّ جملين عملاقين وحمّلهما بزادٍ وافرٍ من المياه. جاء الدرويش ووقف، بعيداً، في ظلمة الفجر. وراءه عبرت قافلة كثيفة في طريقها إلى أسوار «واو». زفرت جمال القافلة زفرة جماعية فردّت عليها جماله بزفرة مماثلة. اقترب موسى خطوات. شجعه آخماد:

ـ ما زلت تحوم حول خبائي كما يحوم الذئب حول القطيع. اقترب. لماذا لا تقترب؟

لم يـرد الـدرويش. سكن في العتمـة كـالشبـح. تكلّم آخمـاد بلهجـة رحيمة:

ـ تعـوّدتُ أن أسمـع منـك العجب كلّمـا خـاصمتني، فـاقتــرب وافتـح صدرك.

اقترب موسى. همس:

ـ مكتـوب في ألواح الكهف أن المقـام في الصحراء لن يـطيب لمخلوق ولدته أمّه عطشانَ.

ـ إني أسمع أول العجب!

ـ كلنا نولد وقدرنا توأم يولد معنا. ولكن الفرق بيننا وبينك أن قدرنا خفي فـلا نعرف كيف ولا أين نمـوت في حين تكلّم فيك قـدرك بـالإشـارة. أنت محظوظ!

ـ هل هذه نبوءة؟

ـ ألَـذُّ ميتة هي ميتـة الجـوع لأنـك تغيب منتشيـاً بلذّة الخـلاص من غمِّ البدن. وأبشع ميتة هي ميتة الظمأ لأنك تغيب بحجاب الغيبوبة.

ـ هـل أسـأت لــك حتى تسمعني هـذا الكــلام في الفجـر؟ متى كــان الصحراويون يشيّعون المسافر بحديث الموت؟

ـ الموت رفيق الصحراويين. سرّ الصحراوي أنه لا يخاف المـوت. يقال إنه نزل إلى الحياة بصحبة الموت، وعندمـا استنشق الهواء وأخـذ أول نفس بفتحتي الأنف توقف الموت ورفض أن يدخل إلى الجـوف. قال لـلإنسان: «أنـا أفضـل أن أمكث هنـا وأنـتـظر». حفـر مـأوى بين فتحـة الأنف والشفـة العليا، في هذا الضـريح يـرقد المـوت. في هذا المخـدع يستلقي الرفيق، يستريح..

رفع الدرويش إصبعه في العتمة وتحسس أخدود الموت. تابع:

ـ في هذه القناة الصغيرة ينام أشرس غول في تاريخ الصحـراء. ولا أحد

يعرف متى يستيقظ. فإنْ استيقظ ودخل فتحة الأنف طار النَّفَس وعاد الإنسان مع رفيقه الموت إلى الأصل الذي جاءا منه. فلماذا تخاف رفيقك يا آخماد؟ لماذا تتنكّر لصديقك الذي جاء بك إلى الصحراء؟

انتهى آخماد من تثبيت السرج على المهري. دخل الخباء وعاد بقربة كبيرة صلعاء من الشَّعر.

شرع يحمِّلها على ظهر الجمل العملاق مستعيناً بركبته اليمنى. قال:

ـ ليس خوفاً من القدر ولا تنكراً من الموت أن يتجنّب الإنسان فأل الصبح. لا يثرثر في الفجر إلاّ الجنّ أو أتباعهم من مجوس الأدغال. لقد ندمت لأني دعوتك لأن تفتح صدرك.

ـ لا. لا يجب أن تندم. لأني جئت كي أُحذّرك من مطاردة أوداد. إذا أسأت له مرة أخرى فلن تنقذك قرب الماء من الظمأ مهما كثرت وكبرت.

ـ هل هذه نبوءة أخرى؟

ـ لن يفلح مَنْ أساء لوليّ.

ـ لم أسمع بولايته قبل اليوم.

ـ يحسن بك أن ترجع. أن تتراجع..

سكت آخماد. شقّ القبس خط الأُفق. رسم النّور لوناً ورديّاً فوق قمة الجبل البعيد. تكلّم آخماد برجاء كأنه يستجدي:

ـ ولكن أوخا. ألا تشفق على أوخا؟ إنه شبح. سيختفي. إذا لم نفعل شيئاً فسوف يموت. هل يرضيك أن يموت أوخا يا موسى؟

ـ فعلت ما يجب أن أفعله لإنقاذه. عرضت عليه طريق الشفاء فطاردني بعمود الخباء.

ـ ولكن ماذا أشرت عليه حتى فقد صوابه؟ رفض أن يخبرني.

ـ سرّ. مفتاح الحقيقة ينبغي أن يبقى سرّاً، خاطراً في فردوس الباطن. في خروجه إلى ظلمة الأفواه قضاء عليه.

ـ عدنا إلى لغة الدروشة والغموض.

ـ أوخا يرفض الخلاص لأنه مكابر. لا خلاص لمكابر.

ـ لا أستطيع أن أتخلّى عنه. لا تنسَ أنّي مدين له بالحياة في غزوة بني آوى. لولا تدخله لشربت من البئر المسموم.

ـ أقدّر وفاءك. النّار لا تأكل عظام الأوفياء. ولكن لا تبرهن على وفائك بالإساءة لمخلوق بريء. لمخلوق وليّ.

قرأ آخماد التعويذة الخاصة بإبعاد النّحس.

(٩)

في الرحلة إلى تادرارت سلك طريق السهول الذي يعبر الوديان المؤدية إلى سردلس ويخرق الروابي الأربع المعزولة ذات القمم المتوّجة برماد لفظته فوهات البراكين القديمة مما أغوى الرعاة لأن يطلقوا عليها اسم «نهود الخادمات».

انتصف النهار فاشتعلت الصحراء. تدفق السراب في الخلاء وغمر الأرض على امتداد العراء. راقص الموجودات، لاعَبَ الكائنات، مدّ من هامة الحجارة. جرف أشجار الطلح وأغرق قمم السلسلة الجبلية الجنوبية بشعلة لعوب من لهب بلون فضّي. تلاعبت الصحراء كلها واستجابت لشقاوة الماء الشفّاف وتموجات البحر المخادع. ترجّل عن المهري في المرة الأولى بعد الشروق بقليل. نَـزَف عرقاً غزيراً مع بدء الرحلة. جفّ الحلق واندفعت المرارة إلى الفم فتقدّم من جمل الأثقال ورضع الماء من فم القربة مباشرة. رشّ وجهه وبلل صدره وزمالته وعاد إلى مهريه. تسلقه واقفاً وجلس في السرج. ثم اضطر بعد انتصاف النهار أن يترجّل في كل وادٍ. كان الحريق القديم يندلع فيحرق الجوف، يستيقظ غول الظمأ فيثب

إلى القربة كي يرشوه بالماء. تذكّر نبوءة الدرويش عندما قال له إن القدر كتب الشقاء على مَنْ وُلد في الصحراء ظامئاً إلى الماء. وها هو الجحيم يبدأ قبل أن تبدأ الرحلة. السماء أيضاً تساند الدرويش. تنفّست بالصهد منذ الصباح ولم ينتصف النهار حتى أشعلت الصحراء كلّها بالنّار الموقدة. وإذا استمرت النّار تأكل الأرض بهذه الشراهة فلا يعرف كيف سيطفىء النّار الأخرى التي تشتعل في جوفه منذ خرج في رحلة الشقاء وحلّ ضيفاً على الصحراء.

قضى الليلة الأولى في وادٍ عميق مكسو بالطلح الصبور وأعشاب برية انهارت في مقاومة الجفاف فشحبت وذبلت. عقل أرجل الجمال الأمامية وأطلقها ترتع في الأحراش الصفراء.

زحفت العتمة. أوقد النّار وانهمك يعجن دقيق الخبز. في تلك اللحظة سمع العويل:

ـ عو ـ و ـ و ـ و ـ و...

عويل طويل، شقيّ، فاجع. والفجيعة في عواء الذئب لا ترتفع إلاّ في ضحكة الجوع. هذا ما يعرفه الحكماء وخبراء الوحوش. ويؤكد الرعاة العجائز أن نبرة الفجيعة لا تتجلّى في عواء الذئب إلاّ في حقبة الجوع. وهي التي يسمّيها الرعيل القديم «قهقهة الجوع». ويقول الخبراء بقراءة الأصوات أن الذئب، في هذه المرحلة، يصبح مجنوناً في شراسته، وما ضحكاته الساخرة إلاّ فخ لخداع البلهاء من الناس، لأن جسارته تتجاوز كل حدّ فيهاجم حتى الجمال، بل كثيراً ما فقد صوابه واعتدى على أشجع الرعاة في السنوات التي عمَّ فيها الجفاف وسادت المجاعة طويلاً. ولكن مأساة آخماد الثانية، بعد لعنة الظمأ الأزلي، أنه لم يهتم بقراءة الأصوات يوماً، ولم يتخيّل أن يجرؤ ذئب الصحراء الوسطى الصغير في حجمه مثل الثعلب، ويهاجم حيواناً مارداً كالجمل أو مخلوقاً مقدّساً كالإنسان، لأن آخماد كان يجهل، مثل أغلب النبلاء المكابرين، أن الجوع، كالظمأ، كـ «إيغايغان»، يلسع العَصَب ويصيب العقل بالمسِّ.

(١٠)

تواصلت شكوى الذئاب في الضحكات الساخرة، الفاجعة، المتوعدة. هرول إلى الأحراش وعاد بحزمة حطب. أطعم النّار كي يرهب الوحوش باللّهب. ابتهجت النّار وتمادت. لفظت الشرر وشقّت الظلمات بسيف اللهب. هرع إلى الأحراش مرة أُخرى ليجلب المزيد من الحطب فلاحظ القلق في سلوك الجمال. توقفت عن نهش الأعشاب الجافة ورفعت رقابها في ارتياب وتوتر كما تفعل عندما تشتم رائحة الضباع. تزفر بتأفف وتضرب الأرض بالساق الأمامية في رفسات عصبية.

كدَّس الحطب بجوار النّار وقرر أن يتلهّى بإعداد الشاي. أنصت فسمع كيف تبتعد ضحكات السخرية ونداءات الفجيعة. إتكأ على السرج وأغفَى. نام نوماً قطعته الرؤى وتخللته الكوابيس والأشباح. وكلّما استيقظ زوّد الموقد بالحطب وسعّر النّار.

في الفجر واصل السفر.

انعطف يميناً وقطع مسافة أخرى. شاهد القمم المتكبّرة المحروثة بالمخطوطات والرمز ووصايا الأجداد الأوائل، فعرف أنه دخل حَرَمَ الأساطير والأسلاف والغموض. ارتفعت الشمس أشباراً أُخرى. تصاعد الغبار في الأُفق فظنَّ أنها زفرة مفاجئة من زفرات القبلي، ولكن الغمامة الترابية انقشعت فرأى قطيعاً من الذئاب. قطعت عليه العراء المؤدّي إلى قمم الأسلاف التي يعرف أن رؤيتها ليست إيذاناً ببلوغها، وعليه أن يقطع مسيرة أيام أُخَرْ حتى يصل إلى أطراف تادرارت الغربية. للمسافات في الصحراء أخلاق السراب إذا بدت اختفت وإذا اقتربت ابتعدت، وعلى المسافر أن يتحصّن بكلمة السرّ بألاّ يصدق ما بدا وبألاّ ييأس مما خفى.

توارى القطيع وراء رابية مستطيلة تمددت جنوب العراء. أجفلت الجمال وأظهرت الاستنفار. حرن المهري وقاوم. حثّه على مواصلة السير فتمرّد وتملّص وحاول أن يعود على عقبيه. قاوم الجملان المشدودان إلى ذيله

وأعلنا العصيان. ترجّل من السرج بقفزة واحدة. قاد القافلة ماشياً فانقاد له المهري كارهاً. الجملان المحملان بأثقال القرب سارا أيضاً مكرهين، متوجّسين. توقّع أن تخرج من مكمنها بعد وقت. لم تخرج. اطمأنت الجمال ورأى كيف عادت السكينة إلى عيونها الوديعة فعرف أن قطيع الوحوش قد ابتعد.

حَمِي النهار وتدفقت الصحراء بالسيول الفضيّة اللعوب. رضع من القربة وغمر وجهه وصدره وملابسه بالماء.

تسلّق المهري ورحل راكباً.

(١١)

ولّت عنه يومين. في اليوم الثالث، في عزِّ النهار والنار، وجد نفسه محاصراً بجيش من الذئاب اليائسة. شعثاء، ضامرة، متفاوتة الأحجام، بعضها رمادي اللّون، والبعض الآخر باهت مائل للشحوب والاصفرار. اعترضت طريقه في خلاء ممدود مجرّد من الشجر والحجر، خالٍ من التجاويف أو أي معقل يصلح للدفاع. حاولت الجمال الإفلات والعودة إلى الوراء. جرّته بالرسن على الحصى، ولكنها توقفت فجأة وتراجعت. الطريق الخلفي انقطع أيضاً بظهور ثلاثة ذئاب. خرجت في مرة كأنها نبتت من الأرض القاسية المشتعلة بنار الظهيرة. أقعت على السيقان الخلفية ورفعت أخطمها إلى أعلى وتنادت في شكوى جماعية مهيبة:

ـ عو ـ و ـ و ـ ا ـ ا ـ و ـ و ـ و...

اضطربت الجمال وفقدت الصواب. دارت في الطوق المشيّد برؤوس الوحوش وهي تركل الأرض بقلق عظيم. ترفع رؤوسها إلى أعلى كأنها تشكو إلى السماء وتستجدي النجاة. في عيونها الجميلة هربت الوداعة، اختفت السكينة، وتألق الفزع. في الفيلق الأمامي ارتفعت أصوات الذئاب بضحكة وحشية، جماعية، ساخرة، بثّت فيها الحيوانات الجائعة وعيداً

كتمته دهراً. ولا يعرف آخماد لماذا جعله العواء الأخير يتشاءم أكثر من أي وقت. حاول أن يهدِّئ الجمال. تناول سيفه المعلّق في عنق السرج. امتشقه باضطراب. رأى ذئبة هرمة تتقدّم نحوه بحذر. تنحني على الأرض مع كل خطوة تتشمّم في احتراس قبل أن تتقدّم الخطوة التالية. هاجَت الجمال وأصابها المسّ. أحكم آخماد قبضته على اللجام وخاطب الجمال مهدّئاً:

ـ أشـ ـ شـ ـ ش. . .

وصلت الذئبة. رفعت رأساً بشعاً. في عينيها غموض وإيحاء خفي. حدَّق في عينيها. تحسس مقبض السيف. شدَّ الرسن باليد اليسرى. ماذا في عينيها؟ ماذا تقول الذئبة الحكيمة؟ هل تنطق مقلتها بالرجاء أم بالوعيد؟ أم بكليهما معاً؟ آه. يمكن فهم هذه اللغة هكذا: «نحن قطيع جاع شهوراً. فما ضرَّك لو تنازلت لنا عن أحد جمالك؟» ثم أضافت بعد قليل: «اعلم أننا نستطيع أن نأخذه منك بالقوّة إذا رفضت العرض». غمرته قشعريرة. ارتجف. شدَّ على المقبض واحتكم للسيف. ما أن لمع السلاح تحت شمس الظهيرة حتى احتكمت الذئبة لسلاح أشرس. كشفت عن أنياب في طول أصابع اليد. ومضت تحت شعاع الشمس أيضاً فكان ذلك إشارة لهجوم الوحوش. تقاطرت في لحظة وهجمت من كل الجهات. انتزعت الجمال الرسن من آخماد وأفلتت. تفرَّقت في الصحراء وانطلقت خلفها الذئاب. انهارت الأمتعة وسقطت القرب. ارتطمت بالأرض فانفجرت. سال الماء فامتصته الصحراء الظمأى. بَقْبَق في مسام الأرض وتصاعد الباقي في بخار ليشرب الفضاء نصيبه أيضاً. استمرّ فحيح الماء المهدور في رحم الصحراء. وقف آخماد يتحسَّر. في قلبه اندلع الحريق الخرافي القديم فحرق جوفه. صعد الجفاف إلى الحلق وسالت مرارة في الفم. رفع عينين يائستين إلى الأفق فرأى كيف تبتعد الجمال المفزوعة وقطيع الوحوش يتسابق في أثرها.

تحوّلت الجمال الهاربة والذئاب المطارِدَة إلى أشباح تطفح فوق سيل السراب.

(١٢)

الصحراوي على ميعاد مع الظمأ منذ الأزل. منذ الخروج من بساتين «واو» وبدء رحلة التيه في أرض القفر. وهو، آخماد، يعرف هذا الناموس كأي مهاجر آخر. يعرف أن هذا قدر. قصاص جزاء الخطيئة. ولكن إذا ولد المهاجر وفي صدره نار فإن الجُوَاد(*) سيكون مصيره عندما تبدأ المسيرة. وهذه اللعنة التي جاءت معه تجعله حطباً لنار الصحراء، نذراً للفناء. فطالما لم يولد على ضفاف وادي كوكو(**) فلن يلومه أحد إذا حسد سكان تادرارت الذين حصّنهم اللّه من بلوى الظمأ وخلقهم بأجسام الظبيان ليتفوّقوا على الجمال في الصيام عن الماء. وأوخا الذي يشمئز من أجسامهم الضامرة، الخضراء، ويقول إنها لا تشبه أجساد الإنس، لا يعلم أن السرّ في لونها وفي عدم شبهها بأبدان الإنس. لا يدري أن أوداد شيطان يسكت على سرّ الأسلاف، يوم قام جدّه (جدّ الأتباع) بالإساءة إلى الماء واستحمّ في الغدير الذي صنعته الأمطار وأخفته في شقوق القمم الجبلية بين الصخور. ولم يكتف الجدّ الأحمق بالاستحمام مرة واحدة، ولكنه عاد في اليوم التالي وغسل أوساخ بدنه الكريهة في الماء الشهيّ، البارد، البرّاق كقطعة من سراب الخلاء دون أن يدري أن القمر المعلق على رأسه، يراقب عمله النّجس. وفي اليوم السابع لم يحتملِ القمر هذا العدوان فبكى بدموع سوداء وأشاح بوجهه عن الصحراء فحلّ الظلام. سقطت دموعه السوداء في الغدير فتحوّل إلى مستنقع عطن، مترجرج بالوحل الأسود. فخرج الجدّ الأحمق وهو يحبو على أربع. تحوّل من ذلك اليوم إلى ضبّ فقامت بين أحفاده وبين الماء عداوة ما زالت تنتشر بينهم حتى اليوم. وكثيراً ما يقوم النبلاء باستفزاز الأتباع برش الماء على وجوههم. يصعقون، ويقفزون في

(*) الجُوَاد: آخر مراحل الظمأ وأقواها. (عن أبي منصور الثعالبي «فقه اللّغة»).

(**) وادي كَوْكَوْ: الاسم القديم الذي تطلقه بعض القبائل على نهر النيجر.

الهواء كَمَنْ لدغته حيّة. يزعقون بأصوات مَنْ أصابه مسّ. ويُروى أن جلَّهم لم يذق طعم الماء إلّا في الأعشاب البرية. هذه الأطوار الشيطانية جعلت قبائل الصحراء تتجنّبهم وتتيقّن بأنهم مخلوقات تنتمي إلى أهل الخفاء.

بدأ يترنّح. اشتعلت النار في القمم. تحوّل سكون الصحراء الجليل إلى وعيد خفي، مهيب. رأى في وجهها المطبوع بالرحمة قساوة وغضباً وصرامة. لا تقسو الصحراء بلا سبب. لا تعذّب بالنار بلا سبب. لا تتخلّى عن المهاجر بلا سبب. فما السبب؟ ما السبب؟ الدرويش. نبوءة الدرويش هي السبب. نزل في صدره الوحي كالقبس الفجري البكر. والخاطر إذا كان وحياً كالقبس فهو إشارة من الحق. هبة من الحقيقة. فماذا قال الدرويش؟ قال: «إذا أسأت له مرّة أخرى فلن تنقذك قرب الماء من الظمأ مهما كثرت وكبرت». الآن أدرك أن زيارته نفسها نبوءة. زيارة فجرية غامضة، تحدّث فيها بلغة الإشارات الغامضة. فكيف لم يخطر بباله قبل الآن أن الزيارة نفسها لا بدَّ أن تدخل في باب النبوءة وهو الذي لم يخبر أحداً بنيته في السفر ولا في عزمه المبيّت بطلب أوداد للمبارزة؟ كيف عرف الدرويش إذا تعمّد أن يخفي سرّه حتى عن أوخا نفسه؟ أي شيطان هو الدرويش؟ أي ملاك هو الدرويش؟ و.. الذئبة؟ كيف أُنسته المواجهة أن الذئبة جدّته القديمة ولا يمكن أن تكون إلّا رسوله؟ حذَّره، وعندما لم يفد التحذير سخّر له جدّته الذئبة كي تشتت شمل جماله وتبقر له بطون القرب. فهل هو شيطان رجيم أم ملاك سماوي؟

ترنَّح وسقط. زحف على أربع فلسعته الرمضاء. تكوّر كالقنفذ وتدحرج على الحصى الملتهب. اشتد الصداع. لفّ برأسه الدوارُ. انكفأ على وجهه فوجد بين شفتيه كرة من البعر. مضغها فتفتت الروث في فمه. لم يشعر له بطعم. لا طعم في فمه سوى طعم الجفاف والمرارة. رأى عشبة ميتة على بعد خطوات فزحف نحوها بجنون. تدحرج. ابتعدت العشبة. وكلما اقترب ابتعدت. هل هي سراب؟ هل بدأ الجُوَاد المخيف ينسج خيالاته؟ ويل له من الجُوَاد؟ الجُوَاد أبشع من الموت. الموت يأتي مرة واحدة ويعقبه

الخلاص، أمّا الجُوَاد فكلّه موت. تدحرج. بلغ العشبة البائسة. دسَّ رأسه بين أوراقها اليابسة فأفزع عظاءة استجارت بها من جحيم الظهيرة. فرّت مسافة ووقفت تلهث وتنظر إليه. زحف وراءها ففرَّت مسافة أخرى. تصاعد اللهب في جوفه وتواصل في اللهب الظاهر حتى أصبح جسمه قطعة من النار. تدحرج وعاد إلى العشبة البائسة وشرع يأكل الأغصان اليابسة. ولكن القِبْلي امتصَّ من الوريقات المكوَّرة، الصغيرة، ماء الحياة، ووهبها للصهد والفناء. دارت عيناه في محجريهما ورأى الظلمة. بدأ الحجاب ونزلت الظلمات. إذا حلّ الظلام فقد اقتربت ساعة الخلاص. ساعة التحرر والعبور. ساعة الفرار. استلقى وفتح عينيه. لم يرَ الشمس. لم ير أقسى جسم في الصحراء كلها. هذا أيضاً من علامات الخلاص. إذا غابت الشمس في عزّ الظهيرة فإن الأفول يَطْرِق الباب. ولكن قساوة النَّفَس الأخير جعلته ينهش عروق اليد بأسنانه. أراد أن يمزِّق العروق ليطفىء اللهيب ولو بقطرة دم. ولكن قواه خذلته. الجُوَاد سحب السلطان حتى من الأسنان. يئس. ازدادت الظلمات كثافة.

فتح عينيه على اتساعهما فلم يبصر الشمس. و.. فجأة. ذلك حدث فجأة كما تحدث كل الأشياء الخارقة. فجأة حلَّ في رأسه الصفاء. صفاء مرفوق بنشوة كالوجد. غاب الجُوَاد واحتجبت الظلمات. رفع رأسه فرأى القمة الأسطورية. قمة جليلة من قمم تادرارت. القمة التي تحفظ وصايا الأسلاف وتهمس بها للأحفاد عندما تزلّ أقدامهم في صراط الضلال. لم تعد قاسية أو صارمة. إنها رؤوفة، تنطق بالجلال والرحمة. أشارت له: إركعْ! فركع. قالت له: قَبِّل التراب! فقبَّل التراب. قالت له: اطلبِ الصفح واستغفر! تمتم يطلب الصفح والغفران.

انقشع حجاب الظلمات. رأى أوداد ينحني فوق رأسه.

٦ ـ الرّهان

«ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه».

إنجيل متّى (١٦)

(١)

فتح عينيه في كهف منقوش بالمخطوطات والمخلوقات. على الجدران رُسِمت رموز «تيفيناغ» بمادّة داكنة.

تسلّقت الحيطان المستديرة حتى بلغت أقدام مَرَدة مقنعين برؤوس بني آوى، يمسكون بالحراب وأقواس النّبال، يشيّعون رؤوسهم إلى أعلى، نحو القمة العالية التي حُفِرت بإتقان في رأس المغارة، حيث اعتصم قطيع من الودّان مؤلف من خمس شياه مختلفة الألوان:

شاتان رُسِمتا بلون أبيض ناصع، وقفتا على قمة الجبل متقابلتين حتى تكاد قرونهما المعقوفة أن تتلامس. وشاتان بلون أحمر، يقف بينهما ودّان عملاق بلون رمادي. كانت القمة عالية، وربما كان علوّها بسبب ارتفاع سقف المغارة.

لاحظ آخماد:

ـ لم أرَ ودّاناً بلون أبيض أو أحمر قبل اليوم.

في مدخل الكهف تربّع أوداد. انهمك يخلط الشاي بين الوعاء وكوب من خشب. تناول رشفة لاختبار السّكر ثم قال:

ـ هذا قطيعي المقدّس. انظر نوايا البشر نحو القطيع البائس. ولولا

القمة السماوية لفتك بنو آوى الوحوش بالشياه المحرَّمة. أكلُ الودّانِ الأبيض حرام. قمة النجاة هي التي عَصَمت القطيع من الهلاك. كما ترى فإن بني آوى أعدائي أيضاً. هيء ـ هيء...

لم يعرف آخماد سبب المرح. تابع القطيع الجليل ورأى في الأقنعة يأس الصيادين وتمتم لنفسه:

ـ فهمت لماذا تتشبَّث بالقمة. إذا نزل أوداد(*) من الجبل فإن حياته في السهل دائماً في خطر.

رفع رأسه. التفت يميناً فرأى الهاوية. خُيِّل له أنه ما زال في غيبوبة الجُوَاد. سأل بدهشة:

ـ كيف صعدت بي إلى هنا؟

ـ هيء ـ هيء.. استعنت بالجن!

تابعه آخماد بفضول. داعبه:

ـ هل تثق بالجن؟

ـ هيء ـ هيء ـ. ولِمَ لا؟ إذا أعطيتهم ثقتك بادلوها بثقة أحسن منها. وإذا أخلصت لهم أخلصوا لك. عكس البشر.

ـ ألا تخاف الأذى؟

ـ الجن لا يبدأ بالأذى. الناس دائماً هم البادئون بالظلم. أنا لا أخشى إلَّا أذى الناس. انظر إلى السقف وتفرَّج كيف يشحذ بنو آوى أسنانهم الوحشية استعداداً للفتك بقطيعي المقدس. ولكنهم لن ينجحوا. القمة السماوية ستار يفصل بينهم.

قدَّم له أوداد الشاي في الكوب الخشبي. رشف وسأل:

(*) أوداد: الودّان (تماهق).

ـ هل تستقبل طائر الفردوس في هذه المغارة؟

اختفى المرح من عينيه:

ـ أدخلتك لمكان لم يدخله مخلوق من قبل، ولكني لا أنوي أن أُحدِّثك عن طائر الفردوس.

ـ اغفر لي فضولي. لم أظن أنك تخفي أمره.

ـ لا أخفي شيئاً.

ـ علّمك الغناء. أَلَمْ يعلّمك الغناء؟

ـ هذا شأني وحدي.

ـ لقد رهنت قلبك للأميرة. والعاشق لا بدَّ أن يسعى إلى المعشوق. ستنزل إلى السهل ويبقى الطائر السرّي في القمة. سيهجرك:

ـ . . . .

ـ هذا ناموس العشق. إنه لن يحتمل أن تشرك به أحداً. سيفلت من صدرك وتفقده إلى الأبد. وإذا فقدته فإنك ستفقد الأميرة أيضاً. تينيري لا تعشق فيك إلاّ صوتك. أعطت ظهرها لأوخا يوم سمعت صوتك في الميعاد.

ـ هل أرسلك أوخا كي تقول لي هذا؟

ـ بل جئت سرّاً كي أطلبك للمبارزة.

ـ أنت تعرف أني لا أحسن استعمال السيف. أنا لا أتقنِ إلاّ صعود الجبال.

ـ والغناء؟ أَلا تتقن الغناء يا ساحر؟

ـ . . .

ـ جاءني صديقك الدرويش في الفجر وحذّرني من الإساءة إليك. تكلّم

بنبوءة مشؤومة فمزقت جدّته الذئبة قرب مائي وسلّمتني للنار. أنت أنقذت حياتي. جئت كي أدفع الدّين لأوخا وأتحرر فوجدت نفسي مديناً مرتين.

- لا أفهم.

- أنقذ أوخا حياتي ومنعني من شرب ماء البئر المسموم في غزوتنا التأديبية ضد بني آوى. قررت أن أطلبك للمبارزة لأسدّد الدَّين القديم فحمَّلت رقبتي ديناً جديداً.

- أنت في حلٍّ من الدّين الثاني.

- هذا كلام يُقال. ولكن الدين يبقى في الرقبة إلى الأبد. والسبب؟ الظمأ هو السبب في كل مرة، فاغفر لي.

- غفرت. لو لَمْ أغفر لما سقيتك من مائي؟

- هل قرأت نيتي مثل الدرويش؟

- ...

- لم أخبر أحداً بنيتي ولكن موسى الشيطان قرأ قلبي.

- ليس صعباً على الدرويش أن يقرأ القلوب.

- حقاً؟ ولكنك أيضاً درويش. أنت أيضاً تقرأ القلوب.

عاد يستلقي على قفاه. ردَّد لنفسه بيأس:

- ولكني مدين لكليكما. مدين لرجلين بدل رجل واحد. أنت لا تعرف كم هي كريهة عبودية الدّين. كم هو قاسٍ استعباد الرجال. كلما رفعت رأسي دفعني الظمأ الملعون لأيديهم!

نهض فجأة وزحف نحو أوداد. تألقت مقلتاه في ضوء العشية وقال باهتمام:

ـ قلت منذ قليل إنك لا تحسن إلّا تسلّق الجبال. فلو راهنك أوخا على صعود جبل فهل تقبل؟

ـ لا أفهم.

ـ إذا استطعت أن تتسلّق أيدينان وتقف على رأس اللوح العمودي، تنازل لك عن الأميرة.

فكّر اوداد لحظة ثم أعلن بيقين:

ـ أَقْبَلُ.

ـ ولكن ألا تخشى الجن؟ الإمام المرحوم قال إنك لن تصعد.

ـ سأصعد. إذا راهنني على تينيري فإني سأصعد. قبلت الرهان.

ـ في صدر الإمام تنام أسرار أيضاً. لقد حذّرتك.

ـ الرهان سيجعلك في حلٍّ من الدينين: ديني ودين أوخا. هيء ـ هيء. قبلت الرهان.

ركعت الشمس للغروب فانحسر الضوء عن فوهة الكهف وغاب القطيع المقدّس في العتمة.

(٢)

اعترضه الدرويش. أقبل راكضاً. يحمل جراباً وزمزمية ماء. وقف يلهث لحظات. مسح عرق الجبين بظهر يده. قال بحزن:

ـ لم أتوقع أن تقبل الرّهان!

انطلقا معاً. اتجها إلى المرتفعات البعيدة التي تمتد شمال جبل المجهول والجن. دحرج موسى حجارة حزّازة بنعله القديم وقال بنفس النغمة الكئيبة:

ـ ما كان ينبغي أن تقبل الرهان!

طمأنه أوداد:

ـ لا تهتم. سأصعد. سأكسب الرهان.

تمتم الدرويش بلغته الغامضة:

ـ ما فائدة أن تكسب الرهان وتخسر نفسك.

ـ أنت آخر مَنْ توقعته أن يشكّ فيَّ.

ـ أنا لا أشك فيك ولكني أعرف سرّ اللّوح.

ـ سرّ اللّوح؟!

رمقه الدرويش بعينه الحولاء. سكت زمناً. دحرج حجارة مجلوّة صقلها الماء القديم عندما كان يجري في الوادي أنهاراً لا تتوقف. راقب فلول السراب وهي تحتضر على الرمال في غزو العشية.

قال باللغة الغامضة:

ـ اللوح العلوي يطلّ على نفق الظلمات. ومَنْ بلغ اللّوح ورأى النفق السرّي خسر نفسه ولن يستطيع أن يعود للناس في خلقته.

ـ هل ترهبني بجهنّم الإمام المرحوم؟

ـ الإمام راهن أوخا بالنوق والثياب كي يتحدّاك بالرّهان ولكن أوخا قدّر فيك مواهب الودّان فتجنّب المباراة. الإمام يعرف سرّ النفق المظلم.

ـ النفق المظلم في رأسه، في صدره، وليس في الجبل. لم يكف عن الإرهاب حتى آخر يوم في حياته. ألا يكفي برهاناً أنه مات وفي يده سكّين؟ ألا يكفي أنه أمات تيميط بالمدية كي يلصقوا بك التهمة القبيحة؟ لولا سعيه البشع لما حرقوا صدغيك بالمسّ.

ـ لقد غفرت له. لم يكن يدري ما يفعل. مَنْ أحبَّ الذهب أُصيب بالعماء في عينيه وفي قلبه.

ـ ما أعرفه أن أمامي فرصة وحيدة للفوز بتينيري. إذا لم أصعد فلن أكون جديراً بها. هل تفهمني؟

عاد الدرويش إلى لغته الغامضة.

ـ وما فائدة أن تفوز بتينيري إذا كنت ستخسر نفسك.

داعبه اوداد:

ـ توقف عن إرهابي بأحاجي الإمام!

ردَّ موسى جادّاً:

ـ لم يتكلّم الإمام هذه اللغة يوماً واحداً. مَنْ خُتِم على قلبه بالذهب لم يُقدَّر له أن يتكلّم لغة العشق.

ضحك أوداد:

ـ هذه لغة الدراويش!

وقف موسى تحت أثلة وحيدة في قلب العراء. وضع زمزميته الخشبية الملفوفة في قماط من قماش. وضع بجوارها الجراب الجلدي. تربَّع بجوار المتاع وراقب شعائر الغروب. سجدت شمس حمراء، مكسورة الكبرياء. كلما أطلّت على الفناء، وشاهدت متاهة الظلمات، بكت بدموع حمراء، وندمت على غطرسة النهار، على طغيان الظهيرة. جلس اوداد أيضاً. رأى موسى وحيه في الآيات. في السّكون. في الغروب. في امتداد الصحراء الخالدة. و. . في اللّوح المربع الذي يعتلي قمة الجبل المجهول. نطق اللّوح بالوحي الحزين.

قال موسى:

ـ كان يجب أن تقضي الليلة بجوار العجوز. ستحزن كثيراً.

ـ . . .

ـ تتصرف كأنك مقطوع، بلا أهل.

ـ نعم، أنا مقطوع. كل مَنْ عجز في إيجاد لغة مع الناس فهو مقطوع. أنت أيضاً مقطوع.

ـ نعم. لا أنكر أني مقطوع.

ـ لا أعني بالمقطوع تيتّمك من أبويك. ولكني أتحدّث عن العجز في إيجاد اللغة مع الخلق. إنه أشرّ أنواع اليتم.

احتجَّ الدرويش:

ـ هذا ليس صحيحاً. أنا أفهم لغتهم. أحاول أن أفهمهم، أعيش بينهم..

قاطعه اوداد بقسوة:

ـ ولكن هل يفهمونك؟ هل يفهمون لغتك؟

هرب موسى إلى الأُفق. هناك استسلمت الشمس لقدرها وسجدت في خشوع. همهم:

ـ ذاك شأنهم.

أضاف بعد صمت:

ـ.. إنهم أشقياء. مساكين، عاجزون، لا يستحقون إلاّ الشفقة. أشْفِقْ عليهم ولا تلمهم. إذا لم يفهموا لغتك فلا تقسُ عليهم واغفرْ لهم!

ـ وماذا يفعل مَنْ يعجز عن الغفران؟ هل تعرف ماذا عليه أن يفعل؟

ضحك باستهزاء غامض وأضاف:

ـ يذهب إلى الجبل. يهرب إلى تادرارت، وعندما يفيض به الكيل يهجم على الجبل المستحيل ويصعد اللّوح الخفي ليشاهد نفق الظلمات. هيء ـ هيء ـ هيء...

التفت إليه موسى. تابعه بفضول. ثم تحوّل فضوله إلى دهشة. أخفى

أوداد مرحه المفاجىء وراء لثامه وراقب الأُفق الأحمر.

زحفت العتمة.

(٣)

رفع أوداد صوته بأُغنية حزينة من أغاني «أساهغ». كانا يستلقيان على ظهريهما، يراقبان السماء المتلألئة بحشود النجوم الغامضة. ينصتان للسكون الجليل، البكر، يحدِّثهما عن الأشياء المبهمة بلغة الأسلاف المبهمة. يهمس لهما بسرّ الصحراء والحياة والموت. وعندما رفع أوداد صوته المدهش لم يستنكر موسى، لأنه أحسّ بأن أُغنيته استجابة لهمس السكون، استكمال لنص لم يقله بعد. أُغنيته استمرار لأُغنية السكون. ما قاله السكون بلغته السرِّية قاله أوداد في أُغنيته المسموعة. ما أخفاه السكون في صمته أذاعه أوداد بأُغنية العشق والشوق والحنين. سرّ الصحراء الخالد القابع في السكون المقدّس كشفه الصوت الفاجع، الحزين.

سمع موسى زغاريد الجنيّات في الجبل المستحيل. ورأى الحوريات يتراقصن في العراء المفتوح، المغمور بشعاعات القمر الفضّي، فطار قلبه ووجد نفسه يراقصهن.

وحتى عندما توقف صوت الفردوس لم تتوقف دموع الوجد التي سالت من عينيه المفتوحتين، المحترقتين بالسائل الفائر.

قال:

ـ ها أنت تذهب للوقوف على نفق الظلمات دون أن تعلِّمني الغناء.

ـ الشيء الوحيد الذي لا يستطيع إنسان أن يعلّمه لإنسان هو الغناء.

ـ لو كنت أحسن الغناء لخفف من شقائي كثيراً. لو أحسنت الغناء لعشت سعيداً. فما أشقى مَنْ لا يحسن شيئاً! ما أشقى من لا يحسن الغناء!

ـ ولكنك تتقن شيئاً يحسدك عليه كل الناس. تتقن أنفس شيء في الحياة: المحبّة!

- المحبّة؟ هل المحبّة فنّ؟

- بل هي أصعب الفنون. أصعب من الغناء ومن قول الشعر. ألا تغسل البدن والقلب؟

- وكيف يعطي الشيء مَنْ يفتقد الشيء؟ الإنسان لا يعطي شيئاً لا يملكه. أنت وحدك تملك الكنز.

ابتسم موسى. اقترح:

- هل تقايضني إيّاها بالغناء؟ هيّا ندبّر صفقة على طريقة التجار في أسواق «واو»!

تنهّد اوداد. همس:

- ليتني أستطيع. ليتني أستطيع أن أملك قلباً كقلبك!

هيمن السكون من جديد. توسّل الدرويش فجأة:

- غَنِّ مرة أخرى! أُريد أن أسمع طائر الفردوس.

انتظر طويلاً قبل أن يسمع الصوت المبعوث من جنّات عدن.

(٤)

بالجوار عبرت قافلة محمّلة في طريقها إلى الشمال. استقرّ بعض المسافرين على ظهور الجمال، بين البضائع والغرائر، وسار في المقدمة مهاجر وحيد، وقاد الجمل الأوّل في القافلة مشياً على الأقدام. يتلهّى من وقت لآخر بترويض أُغنية على لحن قديم. يروق للمهاجرين أن يستغلوا الليالي المقمرة في السفر هرباً من إرهاب الشمس في النهار.

يستعيدون، خلسة، تلك المسافات النفيسة التي تأخذها الشمس بالقوة في الظهيرة، ويسهرون الليل مهتدين بالقمر الصبور، الحليم، معتمدين على النجوم كدليل.

ابتعدت القافلة. خلّفت وراءها رائحة الإبل. طغى السكون مرةأخرى. سكون بلا قاع لا يتقن الإصغاء لملاحمه إلاّ الشيوخ. ليس كل الشيوخ، ولكن تلك الفئة المعمِّرة التي لا تريد من دنيا الصحراء إلاّ الصمت. أو ربما لم يبق لها إلاّ الصمت. لاحظ موسى أن شيوخ القبيلة يزدادون تعلقاً بالسكون الصحراوي كلّما تقدّم بهم العمر. يجتمعون ويذهبون إلى الخلوات المقطوعة ليسمعوا السكون، أو «صوت اللّه» كما يروق لبعضهم أن يقول، يوماً كاملاً. يجتمعون ليصوموا عن النطق، عن الإيماءة، عن أبسط إشارة. شعائرهم في الإصغاء للسكون من العبادات التي تفوق حتى الصلاة قداسة.

حاول موسى أن يقتنص اللغة الخفية، الملاحم المجهولة، النداء السماوي، الذي يتكلم به الصمت الصحراوي ولكنه لم يغنم سوى الطنين الذي يجرح الأذن. فهل يقرأ العجائز مجازاً، أو يصطادون رمزاً، في هذا الطنين الحاد، الجارح؟

ولكن كل ما خفي فهو أسرار نالوها بالعمر الطويل. هم وحدهم جديرون بأن يحملوا هذا السرّ.

عاد ينصت فسمع كيف انتظمت أنفاس أوداد. سأله بصوت واهن:

ـ هل أنت نائم؟

لم يرد، فهمهم الدرويش لنفسه:

ـ أردت أن أقول إن تافاوت ستتألم أيضاً!

تكلّم أوداد بعد لحظة بلغة اليقين:

ـ لن تتألم.

ـ . . .

ـ تافاوت اختارتك أنت. هي لك!

ـ ولكنها في ذمتك.

ـ ليس في ذمتي شيء.

أنصتا فلم يسمعا سوى أنفاسهما ودقّات قلبيهما. ثم كرّر أوداد:

ـ ليس في ذمتي شيء!.

عاد السكون. تابع موسى رحلة القمر. انتظمت أنفاس أوداد مرة أخرى. ظلّت الجملة تتردد في أذنه. ليس في ذمتي شيء. آخر ما سمعه موسى من صديقه القديم. نهض. وقف فوق رأسه. تأمله على ضوء القمر في رقاده الوديع. يسدل زمالته الرمادية الهزيلة على عينيه. يتوسّد يده النحيلة وينام كالطفل. تراجع موسى خطوتين. انطلق في العراء. ترك وراءه زمزمية الماء وجراب الفطائر زاداً لأوداد في رحلة الصعود إلى نفق الظلمات.

رفع رأسه للقمر فلمعت عيناه بوميض كالدموع.

(٥)

تنقلت «تامغارت» بين صفوف المتفرجين. بدأت الطلب في العَرَاء الغربي، حيث تدافع الرجال وتزاحمت النساء لمشاهدة مجازفة ولدها أوداد وهو يتطاول على قداسة الجبل المستحيل ويقترف المعصية. رجمها بعض الصبيان بالحجارة واتهمها بعض الآباء على لسان أبنائهم الأشقياء:

ـ ابنكِ يعتدي على المحرّمات ويدنس فم النفق بالرؤية. انظري ماذا فعل أهل الخفاء للعرّافة والإمام: خانا العهد القديم وامتلكا الذهب فنالا الجزاء. ابنك المغرور أيضاً سينال الجزاء!

صفّقوا لها باستنكار ومشوا وراءها طويلاً. ولكنها التفتت إليهم أيضاً وسألتهم عن الدرويش. لم يجبها أحد ففتحت ثنية لحافها الأسود وأغرتهم بحبّات التمر. قالت لهم إنها ستعطيهم المزيد إذا بحثوا معها عن الدرويش. الدرويش هو المخلوق الوحيد القادر على إقناع أوداد بالعدول عن الاعتداء والعودة عن ارتكاب الإثم. توقّفوا عن ملاحقتها وانتشروا في

الخلاء بحثاً عن الدرويش. واصلت «تامغارت» الطلب ودخلت سوق «واو». هناك تجمع التجار والزوّار والمتسوقون وشيّعوا رؤوسهم إلى الجبل الجليل كأنهم يرصدون أفق الغروب لاكتشاف هلال عيد الفطر أو الأضحى.

على أسطح البيوت تراكمت نساء «واو» لرصد الصعود وإشباع الفضول الأنثوي. تنقلت العجوز في السوق وسألت الأغراب عن الدرويش حتى ظنّها الرجال امرأة معتوهة. ابتسم لها الحظ فرأت آخماد يستغرق في مساومات مع أحد التجار في الدكان لابتياع السكر والشاي. اقتربت واستمعت للمحاورة الحامية لحظات. ثم قالت بلهجة العجائز عندما يتفوّهن بالحكمة الختامية لخرافة ملحمية طويلة:

ـ وهكذا وقف مدبِّر الصفقة الشريرة يبتاع السكر والشاي للاحتفال بانتصاره!

التفت نحوها آخماد فامتقع واستيقظ في قلبه غول العطش. اشتعل جوفه واحترقت آخر قطرة ماء في حلقه. حاول أن يرطِّب لسانه قبل أن يتولّى الدفاع عن النفس ولكن العجوز أعفته من العناء عندما أضافت:

ـ قيل لي إنك لاحقته في منفاه ودبَّرت المكيدة.

بلّل ريقه بجهد جهيد وحاول أن يداري الربكة:

ـ ما أنا إلاَّ وسيط. يعلم اللّه. بلَّغته نبأ الرهان وحذَّرته من نبوءة الإمام. ما أنا إلاَّ رسول. يعلم اللّه!

شدَّت اللحاف الأسود حول وجهها وقالت بحزن:

ـ ألا تدري أنه لم يحدث أنْ وصل مخلوق إلى اللّوح المنصوب واستطاع أن ينزل إلى الأرض من جديد؟ ألا تعلم أن مَنْ بلغ السماء وأطلَّ على فم الظلمات لا يعود إلى السهل أبداً؟ ألا تعلم أن السماء لا تغفر التطاول وتأخذ كل مَنْ وقف على السرِّ؟

تحصَّن آخماد بلثامه وتمتم:

ـ من أين لي بالحكمة؟ من أين لي أن أعلم الغيوب؟

قالت بالكآبة نفسها:

ـ كأنك لم تعش في السهل! تتكلّم كأنك لم تولد في الصحراء!

ـ لا أنكر أني ابن الصحراء. ولكن الوقوف على السرّ يستوجب حكمة أخرى. أنا على يقين أنك ستقتنعين بقدرته على الصعود لو رأيتِ ثقته في نفسه. هل يعجز الودَّان عن صعود الجبل حتى لو كان مستحيلاً؟

تأملته طويلاً. حدَّقت فيه بنظرة غائبة، ثم غَشت بصرَهَا عتمةٌ. نزَّت دموعاً عصيّة من جوانب المقلتين فبرقت العينان بوهج جليل. تمتمت لنفسها بعبارة غامضة:

ـ الودّان لا يعجز في صعود الجبل، ولكن هل ينزل مرّة أخرى؟

(٦)

بدأ الصعود من الجانب الشمالي مع ميلاد القبس الفجري البكر. تسلّق عرقوباً حادّ الظهر، مكسوّاً بجبّانة من قبور الأسلاف المستديرة. لم يستطع أن يمنع نفسه من الإعجاب بصبر هؤلاء الجبابرة وعنادهم في التحايل على السيول وغدر الحياة في السهول. ولا يعرف كيف تمكّنوا من الهرب بموتاهم إلى السفوح البعيدة والجبال العالية. وقد لاحظ طوال تطاوله في القمم أن الصحراويين الأوائل لا يقتنعون بحفر مقابرهم في الأمكنة المعرّضة لغدر السيول والأنهار الموسميّة التي كانت الصحراء تجود بها بسخاء قبل أن تفوز بلقب أكبر صحراء، ولكنهم يجدون دائماً طريقة يودعون بها موتاهم في أعالي الصخور الآمنة بجوار أعشاش الصقور. السفوح الجبلية الصحراوية كلها مغطاة بأكداس «إدبني»(*) مما يجعل من

(*) إدبني: قبر الأسلاف (تماهق).

الجبال مقبرة واحدة هائلة تغطي دنيا الصحراء من النهاية إلى النهايـة. وأكثر ما أدهشه في اكتشافاته تلك هو صمـود الجماجم والعـظام في وجه الشمس والـريح والتـراب الجشع. جمـاجم مقبورة آلاف السنين، ورغم ذلـك تظلّ صلبـة، مصقولـة، ناصعـة، كأنهـا حجر سهلي مجلوّ بـالسيول المستمـرة. وتخوض الريح والتراب حرباً دائمـة لامتلاك عـظام الموتى. يحـاول التراب أن يكتنز ويخفي وينفرد بالغنيمة لوحده، ولكن الـريح تهبُّ دائمـاً وتغزو في حملات عنيدة لتخلِّص الرِّفات من يد غريمها الجشع فتكشف العـظام. هنا تفرّك الشمس يديها وتسلّط أشعتها لتأخذ نصيبهـا من القربـان. ولا يستطيـع أن ينسى كيف وجد في فوهة قبر على أحـد سفوح جبـال تادرارت كـوماً من العظام، جمجمةً متوسطة الحجم وذراعَ أحد اليدين وحوضَ البدن، وقـطعاً عظمية صغيـرة أخرى، متـآكلة، لحست الريـح حصتها منهـا ونخر التـراب النِّهم أطرافها فبدت آثاراً بائسة لكائن شقي لم يخطر لـه أن القدر يمكن أن يسخـر من هيكله المقدس بهـذه القساوة. تقـدّم من الكـوم وتفقّـده بـطرف العصا.

انبعث الفحيـح الكريـه من الجمجمة وأطـلّ عدوّ الإنسـان الأول بـرأس عـدواني وعينين قبيحتين، مفزعتين. انتصبت كـل شعرة في جسمـه فوجـد نفسه يتراجع إلى الوراء ببطء، ثم قفز ونزل السفـح. في شعبة سفليـة غلبه الغثيان فانكفأ وتقيأ أمعاءه. حدَّث أحـد الرعـاة الحكماء بـالواقعـة فقال لـه الراعي إنه عثر على كل أنـواع الزواحف والحشـرات محشورة في جمـاجم الأسـلاف: حيّـات وعقـارب وخنـافس وعــظاءات. وأخبره أيضـاً كيف يقوم طلّاب الكنـوز والباحثـون عن الذهب الأشقيـاء بتدنيس القبـور وكشف الرّفات، فتعقبهم الهوام والزواحف على العظام لتتخذها بيوتاً ومخابىء.

واصل الصعود.

رسم خـطة للصعود منـذ وافق على الرهـان. عرف من عـلاقتـه الـطويلة بالقمم أن قهر الأبراج الجبلية العمودية لا يتم إلّا إذا تحـايل عليهـا وتسلقها أفقيّـاً في صعود حلزوني. فتعمّـد أن يبدأ معـركته مـع ايدينـان المهيب من

الجانب الشمالي، وقدّر أنه سيبلغ الحزام السفلي مع منتصف النهار إذا ابتسم له الحظ ولم يغدر به القِبْلي. توقَّع أيضاً أن الوصول للحزام الأول سيتم في الجانب الجنوبي أو الجنوبي الغربي، في مواجهة أهل السهل. سيلجأ إلى الشقوق أو الكهوف، يتفقّد المارة والمتفرجين، يقضي القيلولة هناك ليواصل المسيرة بعد الظهيرة. إذا سهر الليل واهتدى بالقمر فإنه يأمل أن يدرك الحزام الثاني وهو المطاف الأخير قبيل مربّع الألواح المنصوبة على الرأس. الحزام الأول، السفلي، حفره الطوفان الثاني الذي غمر صحراء الزمان القديم ودام سنوات طويلة. أمّا الحزام الثاني، العلوي، فهو من نحت مياه الطوفان الذي ابتلع كل المخلوقات والدواب ولم ينجُ من مائه أحد.

ارتفعت الشمس. اقترب من الجانب الجنوبي، المطلّ على السهل المسكون. بلوغ الحزام سيتمّ في الطرف الجنوبي الغربي. توقف في رحلته لأول مرة. تعلّق بنتوء حزّاز ومدّ يده إلى زمزمية الدرويش. نزع السدّادة بيد واحدة وتجرّع الماء في ثلاث دفعات. راقب الأفق البعيد المؤدي إلى تادرارت ورأى كيف تتلفع الرؤوس الجبلية بغلالة الضباب الصباحية. هدأت الأنفاس. انتظمت دقات الفؤاد. فاحت من الجراب رائحة الفطائر فتذكّر الدرويش. البارحة غلبه التعب فأغفى. استغل موسى الفرصة فانسحب وترك له الزاد. لم يشأ أن يبقى للصبح حتى لا يضطر لتأدية شعائر الوداع. هو أيضاً أراد أن يتجنب الشعائر. انتبه عندما انسلّ موسى، ولكنه تظاهر بالسبات حتى لا يواجه المراسم التي تأكل فؤاد أقسى الصحراويين وتجعل قلوبهم تحترق وتنزف. ولا أحد يعرف هذه القوة السحرية، والسرية، التي يخفيها الوداع فتهزم كبرياء المكابرين وتجبر العتاة أن يركعوا وينزفوا بالدم والدمع.

في تادرارت عرف راعياً غضوباً، قاسياً، يثور لأتفه الأسباب، ويشاجر أقرانه بالذراع وينابزهم بالألقاب ويتجهم في وجوههم ولا يضحك أبداً. رافقه إلى «مساك صطفت» وقاما معاً برعي إبلهما هناك. كان يقوم في

الفجر الأول ويبدأ في تأديب جماله العنيدة بالهراوة أو السوط. وأكثر ما أدهشه هو القساوة الجنونية التي كان يؤدي بها شعائر العقاب ضد الدواب البائسة. وعندما احتجّ وناشده الشفاعة والرأفة بالحيوان هبَّ في وجهه وأسمعه خرافة لا تخلو من حكمة عن دور العصا والعقاب في التربية والتقويم. بعدها قاطعه ولم يبادله كلمة واحدة طوال ثلاثة أيام. وعندما حان أوان الفراق بعد أسابيع وأراد أوداد العودة بإبله إلى مراعيه القديمة في تادرارت ودَّعه الراعي بوجه صارم، عبوس. مشى مسافة في طريق العودة ثم اكتشف أنه ترك أحجبته فوق شجيرة ميتة حيث قضيا ليلتهما البارحة. عاد إلى الموقع فوجد الرّاعي يسدل لثامه على وجهه وينتفض. كان ينشج كالطفل. لم يصدِّق اوداد، فوقف وشلَّه الارتباك. التفت الراعي إلى الناحية الأخرى وأعطاه ظهره في محاولة لإخفاء ضعفه والسيطرة على دموعه، ولكن منكبيه ظلّا ينتفضان بعنف، ثم.. ثم قفز من جلسته وعانقه. أحسَّ أوداد بانقباض، ورأى فيما حدث إشارة لوداع أبدي. وبالفعل جاءته أخباره بعد شهور فروى له الرعاة كيف تاه في متاهة «مساك ملّت» وهو يبحث عن الجمال العنيدة التي كان يحاول أن يؤدِّبها بالعصا، فضاع هناك وافترسه الظمأ. عرف منذ ذلك اليوم أن أولئك الذين يبدون للناس قساة صارمين يخفون في قلوبهم رأفه ورحمة وحناناً.

ولحظة الوداع هي التي كشفت له معدنه الخفي.

ولكنه ليس في حاجة لأن يكتشف قلب الدرويش. قلب الدرويش هو القلب الوحيد المكشوف في القبيلة، بل في الصحراء، الذي لا يستره لثام ولا يخفيه بدن ولا يحبسه قفص الصّدر. وكعادة العجائز الحكيمات السباقات في فهم الروح البشرية فإنهنَّ أول مَنْ حدَّد موقع قلبه من جسده عندما قلن: «قلب الدرويش على كفّه». وأضفن إلى الاكتشاف حكمة أخرى قاسية فقلن: «ويلٌ لمَنْ وضع قلباً على كف». وقد أدرك الناس أن مأساة الدرويش ونزاعه مع الخلق نابعان من هذا السرّ، ولكن الدرويش نفسه هو الوحيد الذي لم يدرك، ولم يعرف. وربما أدرك وعرف

قبل الجميع ولكنه حمل العبء كقدر منزَّل. لأن مَنْ عرف اللّه لا بدَّ أن يحمل سرّاً آخر أكبر من السرّ الذي يعرفه البشر. خامره دائماً إحساس غامض إزاء طبيعة موسى. إحساس تحوّل مع الوقت إلى هاجس، ثمَّ إلى يقين.

إحساس يقول إن موسى قادر على الدخول في القلب والإقامة مع الناس في أبدانهم. ولا يستطيع أن يجزم عمَّا إذا كان موسى يمارس هذا السّحر مع كل النّاس أم مع أصدقائه ومحبيه فقط.

جرَّب أنه كلما التقاه في العراء ولم يكن في حال يسمح له بأنْ يحادث أحداً وجد الدرويش يستدير إلى الوراء أو ينحرف يميناً ويتظاهر أنه لم يره. فإذا التقاه وخطر له أن ينهي المقابلة وجد الدرويش يسبقه إلى الاستئذان متعلِّلاً بالعجلة لإنجاز حاجة لا تقبل الأجل. وإذا افتقدته شوقاً أو في موقف وجدته يُقْبِل عليك كأنه يستجيب لنداء القلب الخفي. بل إنه يحضر، عند الحاجة، حتى إذا لم تهتف به. ولا يستطيع أن ينسى اليوم الذي استضافته أمّه ودَعَتْه على غداء دَسَّت له فيه العرافةُ الشقيّة سحراً يروِّضه على البقاء واستمراء حياة السهل. حضر موسى في اللحظة التي وضع فيها أول لقمة من العصيدة في فمه وشرع يلوكها. همس له بالسرّ في اللحظة الأخيرة، قبل أن يبلعها. بل إن لعاباً من اللقمة تسلل إلى الأمعاء. فانكفأ في الزاوية وتقيأ. ولولا تدخل الدرويش لما استطاع اليوم أن يقف على ظهر الجبل المستحيل نفسه ويتحدَّى أعتى قمم الصحراء الكبرى كلها. لولا موسى لعاش ذليلاً في السهل كغيره من المخلوقات العمياء التي ترفض أن ترفع رأسها إلى السماء خوفاً من الضياء.

مرة أخرى يشعر تجاه الدرويش بالامتنان. هرب من فرائض الحزن قبل انقشاع غبش الظلمة، فحرره وحرّر نفسه من وداع يعقبه سقم طويل. وتروي العجائز، عن الأسلاف الحكماء، أن لقاء الأصدقاء لا بدَّ أن يتمّ إذا لم يتوَّج، عند الفراق، بعناق الوداع.

(٧)

في الطوق الطوفاني الأوّل سمع همهمة مبهمة.

نفخ القِبْلي في السهل غباراً قبل أن يبلغ كهوف الحلقة الأولى المطلّة على الأهالي فحجبت عنه الرؤية. واصل الزحف الحلزوني الدائري مع العشية فجاءت بهم مركبة عجاجية عابرة وأنزلتهم في السفوح. هدأت الريح فسمع همهمتهم الغامضة وهُمْ يصعدون وراءه.

تعلّق بنتوء بارز وركن إلى صخرة وانتظر. ابتعدت الجلبة. غابت الهمهمة. تفقّد المكان خوفاً من أن تغدر به الحجارة. هزَّ النتوء الصخري العلوي بقوّة كي يمتحن صلابته، ثم رفس الصخرة السفلية وقفز فوقها عدة مرات ليختبر فيها الثبات. اطمأن. تناول فطيرة من الجراب دون أن ينزعه من منكبه. زحفت عتمة المساء الأوّل.

استمرت غلالة الغبار تحجب عنه السهل. بدأ يلوك الطعام. يمضغ حيناً وينصت حيناً. اختفى أهل الجبل وتركوا خلفهم الوحشة والصمت. مسح يده الملوثة بدهن الفطيرة بجلد الجراب. فتح سدّادة الزمزمية بيد واحدة ورفع رأسه ليرضع منها الماء. في تلك اللحظة دمدم الجبل واهتزت الصخرة تحت قدميه. ضرب المكان زلزال فماد الجبل كلّه. اندلق الماء على صدره فضمَّ الزمزمية إلى صدره إنقاذاً للسائل النفيس. لحظتها شاهد الجلمود الصخري وهو يدك مكمنه، ويحطم النتوء الفوقي ويطير إلى أسفل. تدحرج طويلاً، واستجاب له الجبل بالزلزلة طويلاً. لم يجد ما يتعلّق به. كسر طرفُ الجلمود نتوء النجاة وتركه معلّقاً بين السماء والأرض. التصق بالجدار العمودي وتحرّك، بحذر، ليدور حول اللّوح الوعر من جهة اليسار. حبس أنفاسه وسَفَح العرق. نزف كل الماء الذي شربه في يومين. احتاج أن يستنفر أصابع اليدين والرجلين وأظافر اليدين والرجلين. استنفر أسنانه أيضاً واستعان بها في التعلق بالنتوءات الصغيرة البارزة في الصّلد. لا يعرف كم استغرق في هذا الزحف الوحشي. كل ما يعرفه أن الظلمة لفّت

الجبـل كله عندمـا اجتاز الفَـخَّ ووصل إلى حـدود الدائـرة الجبلية الثـانيـة. ويستـطيع أن يستعيـد الآن كما في الحـلم، كما في الكـابـوس، بعض مـا حدث في هذه الرحلة الوحشيـة. أقصر رحلة وأشـرس رحلة. تطاول كثيـراً في الجبال وغدرت بـه الصخور دائمـاً، وتدحـرج مراراً من القمم. ووجـد نفسه معلقاً فوق أفواه الهاويات أكثـر من مرة، ولكنـه لم يعش تجربـة جبلية في قساوة تجربة اليوم. ربمـا لأنه فـوجىء، ربما لأنـه تعرَّض للزلـزال لأول مرة. فماذا رأى في طريق جهاده في سبيل النجاة؟ سمـع فحيحاً بشعـاً فوق رأسه. فحيح أفعوان لم تعرفه الصحراء. أفعوان جاء من الأدغال أو نزل من السمـاء. نفخ في رأسـه حتى رفرفـت زمالته وانحلَّت عقـدتهـا، ولكنـه لم يستـطع أن يتبينه، ليس بسبب العتمـة، ولكن بسبب رغبته في النجـاة. فقد أدرك بالغريزة الحيوانية أنه سيهوي إلى الهاوية لو رفـع رأسه إلى أعلى، لـو رفع بصره إلى أعلى، فـداس على قلبه وصمـد في وجه الفحيـح، في وجه الأفعوان. ثم.. ثم نعبت بومة مشؤومة نعيباً قبيحاً، وخيِّـل له أنـه غاب عن الوعي زمناً وهو يتشبث بالجدار الأملس ويكافـح في سبيل النجـاة. وعندمـا اقترب من نهاية الجدار الوعر سمعهم، مـرة أخرى، يهمهمـون بألفـاظ غير واضحة ويتشاورون بـالرطـانات. انـطرح على الحجارة الحـزَّازة وحاول أن ينسى: أن يغيب، أن يغفو. ولكن الحجارة التي انتـزعها الـزلزال استمـرَّت تتقاطر عبر السفح، وتتدحرج وراء الجلمود الصخري الرهيب.

(٨)

أغفى.

استيقظ على ليلة ضحيـاء انساب فيهـا قمر خجـول في الفضاء. اكتشف أن أطرافه كلها ملوَّثة بالدَّم. اليدان والرجـلان والساقـان والفم. الآن أحس بـالمرارة وأدرك أن لثَّـة أسنانـه تنزف دَمـاً. تفقَّد رأسـه وتحسس الكـدمـات بطرف الزِّمالة. الرأس لم ينزف ولكنـه مغطَّى كله بكـرات مختلفة الأحجـام من الكـدمـات. الحجـارة التي اقتفت الانهيـار وتـابعت الجلمـود هي التي أصابت الرأس وزرعته بالكدمات. جسمـه منهك والمفـاصل كـأنها قُـطِعت

بسكين. بلّل طرف الزمالة ببضع قطرات من الماء وانحنى على الساق. مرّر عليها القماش المبلول عندها استولى عليه الشعور الخفيّ. الشعور الغامض نفسه الذي خامره لمّا سمع الهمهمة التي سبقت الزّلزلة. رفع رأسه فالتقت نظرته بالضيف المهيب. رأسه متوّج بقرنين جليلين، معقوفين إلى الوراء، كقرون التيوس. تتدلّى من خطمه لحية مخروطة كلحية التيوس أيضاً. نصفه الأمامي ممتلىء، مرفوع في كبرياء، في حين يبدو نصفه الآخر ضامراً، هزيلاً، كجسم غزال رملي. لمعت عيناه، تحت ضياء القمر، بوميض ذكي، خفي، حزين.

وقف على بعد خطوتين فقط، وحدّق فيه بفضول مخلوق بشري. تأمله أوداد فرأى في مقلتيه اللامعتين المبللتين دموعاً سرّية، لغة سرّية. وجد نفسه ينطق بلا إرادة:

ـ مَنْ أنت؟

لم يبدِّل الودّان وقفته. ضيَّق جفونه قليلاً كأنه يبذل جهداً ويفكّر في الرّد.

نزّت الدموع وتعلّقت بأهدابه الطويلة كأنها رموش حسناء. نَكَسَ رأسه بخفرٍ بكرٍ فعاد أوداد إلى الاستجواب:

ـ هل أنت هو المسكون؟ هل أنتَ الودّان المحرّم؟ قلْ لي بالسر.

رفع رأسه نحو اللوح البعيد المعلّق في القمة ثم عاد يلتفت حوله بهدوء الحكماء والمعمّرين.

داعبه أوداد:

ـ ماذا أردت أن تقول لي؟ هل أردت أن تسرَّ لي بشيء؟ هل أنت رسول؟

اقترب خطوة. وقف الآن فوق رأسه بقامته الجليلة، المكابرة حتى شمَّ رائحته. الرائحة التي تغزو أنف كل مَنْ وقف في فم كهف من كهوف

تادرارت. رفع ساقه اليمنى وحفر الأرض المكسوَّة بالحجارة الشرسة.

قال أوداد:

ـ هل رأيت ما حدث لي؟

ثم أضاف بحماس:

ـ قلْ لهم إني لم آتِ لنبش القبور أو نهب الكنوز. جئت لغرض يتعلّق بالرِّهان. هل يعلمون بأمر الرهان؟ أخبرهم أن يكفّوا عن زلزلة الجبل وإرهابي بالحيّات والبوم!

نَبَشَ الزائر الأرض بحافره مرة أخرى. استعاد أوداد ذكريات عشرته الطويلة لهذه القبيلة النبيلة فهتف:

ـ أنت تريد أن تخبرني بالسرّ. أنت تريد أن.. ماذا؟ ماذا قلت؟ أعد ما قلت..

رمقه الحيوان المهيب بنظرة سريعة. تحرّك وصعد الصخور العليا. رآه ينتصب فوق رأس حجري ويراقبه من هناك. لمع شعره الأشعث، الفضّي، في ضوء القمر قبل أن يقفز ويختفي بين الصخور، وراء الظلال.

(٩)

في عشية اليوم الثالث بدأ صعود اللوح المكابر.

بالأمس، عندما حلَّ في العنق الأخير، انتهت علاقته بالسهل وغابت الأرض. غابت حتى سفوح الجبل السفلية وبدأ الطريق المفتوح إلى السماء وحدها. اشتدَّت الغلالة الأبدية التي تلفُّ القمة العليا وحجبت الرؤية إلى الدنيا السفلى. اختفت سلسلة «أكوكاس» وقمم القرين المغدور وهربت حتى الصحراء. لم يتوقع يوماً أن يكون ايدينان بهذا السموق. أدهشه أن قامته، من الأرض، لا تبدو خرافية ومستحيلة إلى هذا الحدّ. ولكن السرّ

في لثام الغبار الكثيف الذي تحرص السماء أن تلفَّ به رأس الجبل فاستعاره منها أهل الصحراء واتخذوه قناعاً وحجاباً.

توقفت آثار المخلوقات أيضاً عند هذا الحدِّ. في الشقوق عثر على بقايا أعشاش الصقور التي تبعثرها الريح واقتسمت الشمس مع الزمان أكلها وإبادتها. على صدور الكهوف خطَّ الأسلاف رموز التيفيناغ ووسموا جدران الصّلد بالمخطوطات والنقوش التي علتها طبقة من التراب والصلصال. في فوهة صغيرة لأحد الكهوف وجد نقشاً بديعاً لرأس ودّان حجبته طبقة الصلصال. تناول حجراً وشرع يصقل به الصلد. تفتت الصلصال وتحوَّل إلى رغام تطاير في الهواء. ويبدو أن لسان الطوفان هو الذي ختم على النقش بالطين. تابع الخطوط الحمراء المحفورة في الصخر حتى وجد أمامه قامة جليلة لودّان مارد مرفوع الصدر، ضامر الجسم، أشعث، مكلل بالشعر الأشيب. على رأسه صرح من قرنين معقوفين، وفي الأسفل تتدلّى لحية مخروطة.

يا ربي! إنه.. هو. نفس الودّان الخفي الذي زاره بعد محنة الزلزلة. نفس التفاصيل. نفس الهيئة المهيبة. بل نفس النظرة الحزينة، الغامضة. تحت حافره الأيمن حُفِرت حروف التيفيناغ بلون أسود داكن. حاول أن يتهجّى. وجد أن جزءاً من الحروف يختفي تحت الطبقة الصلصالية فتناول الحجر وعاد يجلو الصخرة. فكَّ الرموز. قرأ الرسالة القديمة. وصية الأسلاف. قال له الأسلاف في الوصية: «قفْ واسمع: مَنْ نزل إلى أسفل يصعد، ومن صعد إلى فوق ينزل». أعاد القراءة مرتين. ثلاث مرات. ابتسم. نفس لغة الرسائل المحفورة على صخور تادرارت. اللغة الغامضة، الموحية، التي تنطق بالوصية في جملة لتخفيها بالجملة التالية. اللغة اللعوب، المواربة، التي تلعب بالمجاز وتلوِّح بالرموز في الهواء. الأسلاف يتقنون هذه اللعبة. يستعملون اللغة نفسها عندما يضعون خرائط الآبار والكنوز. وإذا لم يكن القارىء ذكياً حاذقاً، حكيماً، فإنه سيموت بالظمأ

وهو يتوسَّد فم البئر. إذا أردت أن تقرأ لغة الأجداد فلا بدَّ أن تكون يقظاً. هذا ما تعلَّمه في ألواح تادرارت.

وها هم يستعملون هنا نفس الحيلة. قفْ واسمع. مَنْ نزل إلى أسفل يصعد، ومَنْ صعد إلى فوق ينزل. فما معنى الإشارة؟ فكٌّ رمز الكتابة والحروف وعليه أن يفكَّ رموز اللغة. فكُّ طلسم جُمَل الأسلاف يحتاج إلى وقت أطول بكثير من التهجّي وفكٍّ سرّ الحرف.

لا ينكر أنهم دهاة في صنع الحكمة ووضعها في الجُمَل الطفولية. نعم. قرأ جملاً كثيرة بدت له ساذجة وطفولية، وعندما عرضها على الرعاة الحكماء دلّوه فيها على حِكَمٍ صحراوية أنفس من الكنوز. بل إن الحكماء في الصحراء لا يبحثون في الكهوف عن خرائط الذهب ولكنهم يقطعون أبعد المسافات في الكهوف بحثاً عن خرائط الحكمة والحياة. وعلَّمه أحد الرعاة أن إهمال عبارة لمجرد أنها خفية أو طفولية حماقة قد يدفع حياته ثمناً لها، وبالعكس، إذا أوْلَى العبارة اهتماماً أنقذ حياته واهتدى إلى فم البئر.

فما الذي أرادوا أن يومئوا إليه بالإشارة؟ ماذا أرادوا أن يخبروا على لسان الجدّ الحكيم، الودّان الأزلي المُحَرَّم؟ ما سرّ اللعبة اللفظية؟ هل يعنون أن مَنْ ينزل إلى أسفل ينجو بالسهل، ومَنْ يصعد إلى أعلى يضيع بالقمة؟ هل في الصعود هبوط إلى هاوية الظلمات؟ إلى نفق الليل؟ نعم. أكثر ما يروق للأجداد هو لعبة الأضداد اللفظية. الإشارة للمعنى بعكسه. مارسوا هذا التجفير في الأبجدية، في التيفيناغ، كي يقطعوا طريق الفهمِ والتفسير على الأغراب والهواة. درَّبه الرعاة كثيراً على قراءة الأبجدية المشفرة، وقالوا إنها ضرورية للاهتداء إلى أفواه الآبار وطرق النجاة. وبحسب الحيلة التي تعلَّمها منهم فإن الوصية المنحوتة عند أعتاب الودّان تصبح. «مَنْ نزل إلى أسفل لم يصعد، ومَنْ صعد إلى فوق لم ينزل».

هذه هي القراءة المعكوسة للرمز. التفسير الصحيح للإشارة. ولكن ما دور الودَّان هنا؟ لماذا حفروا الوصية بجوار حافر الجدِّ المهيب؟ هل في هذا إشارة أخرى؟ هل هذا رمز آخر؟

الرعاة قالوا له إن الأسلاف لم يخلِّفوا أثراً واحداً بلا هدف. لم يدوِّنوا على الحجارة رمزاً واحداً بدون نبوءة.

(١٠)

بلغ المنتصف. وجد نفسه مغموراً بلفافة الغمام الأبدية. التصق بالصلد العمودي المكابر والتقط الأنفاس. غلالة الرغام تحجب الرؤية لأبعد من أربعة أذرع. تشبَّث بالندوب والنتوءات على جلد الصلد والتفت إلى أسفل ليقدِّر المسافة التي قطعها. وجد أن لفافة الغمام طوَّقت الصرح وسترت العنق الأخير الذي لحسته مياه الطوفان الأوّل. الحلقة الثانية هي الحدُّ الأخير الذي بلغته المخلوقات الأرضية. الحدّ الأخير للحياة. بعدها يبدأ برزخ الأبدية. البرزخ الذي يقود إلى السماوات. هو الآن في البرزخ. في الحدّ العنيد، القاسي، الوحشي، الذي يشرف على الفلاح والحرية. ولكنه لا يستطيع أن يهنىء نفسه بالفوز ما لم يصل إلى القمة نفسها، إلى نهاية البَرْزَخ وبداية النعيم والسكينة. وهو لم يظن قط، طوال مشاهدته لهذه الصومعة الإلّهية، أنها بعيدة، وسامقة إلى هذا الحدّ. كما لم يقدِّر وعورتها وسماحة سطحها إلى هذا الحدِّ. قضى يوماً كاملاً وهو يزحف على صلد أبيض، باهت، تعلوه طبقة من الصلصال الشاحب الذي يميل في لونه إلى الاصفرار. حجر نادر بلون نادر لم يشهد له مثيلاً في جبال الصحراء. وأخبث ما في الأمر أنه لم يجد ما يتعلّق به في صعوده سوى الطبقة الصلصالية. ولكن الطبقة، في أكثر الأمكنة، تآكلت بالزمن والشمس والريح، وأصبحت هشّة، آيلة للسقوط. خَذَلَته مراراً وكاد يهوي لولا الاستنفار. الاستنفار في أعضاء البدن كله، من قمة الرأس حتى أخمص القدم. بل الاستنفار في الأظافر، أظافر اليد وأظافر القدم. حَوَّل الأظافر إلى مخالب بارزة تتشبث بمسام الحجر الأملس، الغادر. ساعده استنفار الحواس في أن يلتصق باللوح، يتحد بالحجر، يعانق الصخر، يداعبه، يقلِّبه، يعشقه بحرارة كامرأة.

عانق جسد الحجر بجسده كله. عانقه بكل أعضاء الجسد، باليدين

والرجلين، والصدر والبطن، والشفة والرّكبتين، و. . بالأظافر أيضاً. زحف وهو في عناق محموم مع الحجر. تتابعت أنفاسه، ارتفعت حرارته. أخذ يلهث. حواسه تذوب في حواس اللّوح. تذوب في أحضان الحجر، تتحد بالمعشوق، بالحجر السماوي المستحيل. يقترب من الفردوس. تدبُّ في الأعضاء نشوة. يسري الخدر. نشوة لم يعرفها من قبل، خدر لم يذق له طعماً من قبل. هذا هو النعيم. هذا هو المنتهى. ما أمتع السفر إلى السماء! ما ألذ الرحلة إلى الأصل! يا تُرى هل يُقَارَن هذا النعيم بأحضان امرأة؟ هل توازي هذه الشعائر عشق تينيري؟ تينيري! أين أنتِ يا تينيري الآن؟ هوى. . فجأة تخلّى عنه الحجر السماوي ورماه في الجبِّ ممسكاً بقطعة صلصال. أمسك بالطرف الناتىء. امتحنه وهزّه مرتين قبل أن يتزحزح ويحرِّك قدميه عبر الجسد المحموم. جسد الحجر المحموم. زحف ملتصقاً ببدن المعشوق، انسلخت قطعة الصلصال عن بدن الحجر العاشق وهوت بالمعشوق. طار إلى أسفل. لحظة، لحظات. و. . وجد نفسه يمسك بنتوء صلب، في موقع آخر، مجهول، من الصومعة السماوية. يمسك بطرف بارز. جحر منصوب، حطبة معقوفة، خطّاف إلّهي يشدّه ويسنده إلى الجدار الصخري. وجود الجدار يعني أنه لم يقطع مسافة طويلة عندما هوى. لم يسقط إلى الطوق. ارتجف، أطرافه كلها تصطفق. اطرافه تحترق بالحرارة. ولا يعرف عمّا إذا كانت حرارة الانفعال أم الشمس أم حرارة النزيف الدموي. استمرَّ يتشبث بالخطّاف المدهش. فتح عينيه. ازدادت لفافة الغمام كثافة. هل هي ظلمة الليل؟ أو هي ريح القبلي؟ أو موجة جديدة من الرغام الأبدي؟ تحسس الصلد. لم يكن صلداً. جسم لميس مغطّى بشيء كالشّعر. مرّر يده مرة أخرى. شعر. فتح عينيه مرة أخرى. حدّق في العتمة. كان يتدلّى ممسكاً بقرني الودّان المعقوفين المكابرين.

(١١)

تحرَّك الملاك، المنقذ الذي خلَّصه من الهلاك. جرَّه على الحجر القاسي. ازدادت أطرافه تمزقاً. جرَّه مسافة طويلة على الصلد العمودي

العنيد. الصلد الذي كان، في العناق، حميماً، رحيماً، عاشقاً، أصبح الآن شرساً، وحشياً، قاسياً. فما سبب هذا التحوّل؟ ما سبب الجفاء؟ ما سبب الخصومة؟

توقف المخلِّص. فتح عينيه. وجد نفسه ملقى فوق القمة. رأسه مغطى بالسماء وتحت قدميه تركع الدنيا، تركع الصحراء. في البعد ركعت الشمس أيضاً، وانهمكت تقبِّل التراب تحت قدميه. نشرت في الأفق نوراً قانياً.

أمّا السهل فقد احتجب بالغمامة الأبدية. فوجد أنه لن يستطيع، من هنا، أن يشاهد إلاّ امتداد الصحراء. الصحراء وحدها. الصحراء دائماً، إلى الأبد.

بدأ الدم يبرد في عروقه فاشتدَّ الحريق. البدن ملوّث كله بالدم، وممزّق بالجروح والخدوش والكدمات. زمزمية الدرويش فقدها في السقطة الأخيرة. رفع بصره. وجد أن الودّان المهيب ما زال واقفاً فوق رأسه يراقب الأفق، حيث تؤدّي الشمس صلاتها اليومية.

خاطبه أوداد:

ـ خبِّرني يا أمغار(*): ماذا حدث؟ حدثني عن كل شيء.

ولكن أمغار لم ينتبه: ظلَّ مأخوذاً بالأفق الملفَّع بالغلالة القانية. كأنه يشارك الشمس صلاتها وعباداتها.

عاد أوداد يسأل بإلحاح طفولي:

ـ أمغار! خبرني. لا بدَّ أن تخبرني عن كل شيء. أريد أن أعرف. .

أراد أن يكمل: «. . . السرّ». ولكن أمغار المهيب أسكته بنظرة مفاجئة، استنكارية، منتهرة. ثم ضيَّق عينيه، ونزلت حواجبه فرأى على رموش عينيه

(*) آمغار: العجوز، الشيخ، الأب، الجدّ، كبير القوم (تماهق).

قطرات الدموع. أدّى نفس الطقوس الخفية التي مارسها في لقائهما الأول فوق كهف الأفعوان. ثم.. ثم قفز وغاب في غمامة الرغام.

(١٢)

عرف سرّ ما حدث. عرف سرّ السقطة. قضى الليل كله، يستلقي على قفاه، فوق رأس اللّوح السماوي، يرصد النجوم، ويفكّر في المعجزة، في التخلّي، انسلاخ الصلصال، في السقوط. و.. في الخلاص.

تذكّر أن الحجر تخلّى عنه ودفعه في اللحظة التي أشرك به تينيري. رفضه عندما أدخل المرأة إلى قلبه. كفر بالعناق، بالعشق، وسلّم قلبه إلى السهل، إلى المخلوقة التي تسكن السهل. أراده الحجر الغيور حاضراً بقلبه، لا غائباً مأخوذاً. حذّره الدرويش كثيراً من رهن القلب لطرفين. قال إنه لن يفلح إذا وزّع قلبه بين كائنين.

توزيع القلب هو الكفر. القلب المشطور قلب فارغ. القلب المشطور لا يصلح قرباناً. الآلهة تحرّم التعامل بالقلب المشطور. القلب المشطور يجلب النحس. ولولا تدخل الودّان العظيم، لولا شفاعة الجدّ الأول، أمغار الغامض، لاقتسمت الحجارة النهمة لحمه قبل أن يبلغ قمة الفردوس. تذكّر عبارة الأسلاف الطفولية: «قفْ واسمع. مَنْ نزل إلى أسفل يصعد، ومَنْ صعد إلى فوق ينزل» عاد يقلبها رأساً على عقب: «قفْ واسمع. مَنْ نزل إلى أسفل لم يصعد، ومَنْ صعد إلى فوق لم ينزل». لم يخط الأجداد الرموز بجوار الودّان العظيم عبثاً. لا بدَّ أن يجد الخيط السري بين العبارة المقبولة وبين أمغار المخلّص.

قرر أن يتفقد الموقع السماوي في الصبح. وفي الصباح سيبحث عن فم الظلمات المجهول.

تأخّر القمر. تألقت عراجين النجوم. أحس بلفافة الجبل فرشة سحرية وثيرة تسبح به في الفضاء. تطير به نحو النجوم. اقترب من النجوم الخفية،

اقتربت من فراشه النجوم. كبـرت وأصبحت في حجم الأقمار. تـدلّت فوق رأسه بعراجينهـا الوضيئـة. همست في أذنه باللغة السـرّية. داعبـه النعاس. أغفى على فرشة الغمام. تغطّى بدثار مطرّز من كواكب المستحيل.

٧ـ الوعاء

«حين ينخفض صوت المطحنة ويقوم لصوت العصفور وتُحطّ كل بنات الغناء. وأيضاً يخافون من العالي وفي الطريق أهوال واللوز يزهر والجندب يُستثقل والشهوة تَبْطُل. لأن الإنسان ذاهب إلى بيته الأبدي والنادبون يطوفون في السوق. قبل ما ينفصم حبل الفضّة أو ينسحق كوز الذّهب أو تنكسر الجرّة على العين أو تنقصف البكرة عند البئر. فيرجع التّراب إلى الأرض كما كان وترجع الرّوح إلى اللّه الذي أعطاها. باطل الأباطيل، قال الجامعة، الكُلّ باطل».

العهد القديم ـ سفر الجامعة ـ الإصحاح «١٢»

(١)

- صعد. صعد. صعد!

تناقل السهل البشارة، وتبادلوا الخبر ككلمة سرّ: «صعد الجنّي إلى بلاد الجنّ».

نقلوا البشارة إلى «تامغارت» فدسّت رأسها في حجرها وبكت. أخبروا الدرويش فهرب مرة أخرى إلى وادي الطلح. زفّوا البشرى لـ «تافاوت» كي تتباهى بزوجها فابتسمت بدهاء أنثوي غامض. تابع المبشّرون رحلتهم. خرجوا من النَجْع ودخلوا بالخبر إلى أزقة «واو» المعتمة دوماً. همسوا بالانتصار في أذنها كأنهم يسرّون لها بتميمة آيرية. رقصت بغنجٍ آيري أيضاً وتوّجت النصر بزغاريد الابتهاج. فسمع السهل زغرودة من حنجرة الأميرة لأول مرة. في العَرَاء الواقع بين «واو» وبقايا النجع وقف شبح منفوش بلباس الزرقة، يراقب المبشّرين والفضوليين في وجوم المعمّرين.

انكسر سلطان الشمس وهوت نحو الغروب. بدأت شعائر السكون التي تسبق الاحتضار.

أقبل آخماد. وقف بجواره. تنقّلا في العَرَاء الشمالي. ابتعدا عن أهل الباطل وتوغّلا في السكون. لاحظ آخماد كيف استرق أوخا نظرات خاطفة نحو القمة السماوية الملفوفة في لثام الغمام، ولكن لم يجرؤ أي منهما أن يجرح حَرَمَ الصمت بكلمة. وحتى عندما اجتمعا وجلسا، في الفلاة، متقابلين ونبش آخماد الحدث بـ «صعد» فإن أوخا، بدل أن يعلّق، قفز إلى الميعاد وطلب من آخماد أن يخبر الفتيان والفتيات ويعدّ للعيد. تابعه آخماد

بحزن ثم قال في انكسار:

ـ خَذَلَنَا الإمام وضحك علينا وهو في قبره. لا سرَّ في صدر الأئمّة. آمنت الآن.

لم يرد أوخا. فعاد آخماد:

ـ يُجْدَر أن تنحر نذراً. أنت لم تعطه الكراء. لو نحرت له ناقة لما ترك الجنّي يصعد. لماذا لم تنحر ضحية؟ الوعد ليس مزحة. الوعد دَيْنٌ في الرقبة، ونذر الأموات نذر اللّه.

لم يعلق أوخا. عاد، بعد قليل، يتحدّث عن الميعاد.

(٢)

فاض العراء بعشّاق الطرب وأهل الميعاد. جاؤوا من القبيلة ومن «واو» ومن القوافل العابرة.

تحلَّقت النساء وتحلَّق حولهن الرجال. في الأُفق، وراء الجبال، لاَحَ القَبَسُ القمري البكر. ناح الوتر الوحيد. استجابت له الحناجر بآهات الانتشاء وصيحات الوجد. امتدّت الأنامل الرقيقة المخضَّبة بالحناء، المزينة بخواتم صيغت من معدن الأقمار، وقرعت طبول الفرح والأشجان.

أقبل الصديقان ووقفا بعيداً. ضاعفت ثيابهما الاحتفالية الزرقاء من غموضهما وجلالهما. أضفى الوقار أيضاً عليهما هيئة الأَنْصَاب الصحراوية أو الأشباح الليلية. لاذا بالصبر والصمت والانتظار. وسلَّما نفسيهما لسلطان النَغَم. قطعا الصحراء العظمى كلها راقصين، هائمين، في تلك الوقفة القصيرة. أقبلت الأميرة بحاشيتها وانضمَّت لحلقة النساء.

رقص قلب أوخا وأُفلت من القفص. مال نحو رفيقه. تقاربت عمامتاهما حتى تناطحتا. دبَّت الحياة في الصنم. تحرَّك الشبح وانفصل عن قرينه الجليل. انضمَّ إلى صفِّ الرجال.

اختل بصبي حاسر الرأس على انفراد. انطلق الصبي ودخل حلقة النساء. رفع القمر رأسه وبرز من شعفة الجبل. سكب ضياء خجولاً، باهتاً، في العَرَاء.

أخيراً خرجت الأميرة.

خرجت من الحلقة وحيدة، بدون حاشية. لم تتبعها جارية واحدة.

تنحّى طابور الرجال وأفسحوا لها الطريق. عَبَرت مساحة الميعاد. تحرَّك الصنم الآخر واعترضها.

تحرَّكا معاً، متجاورين، صامتين، وقطعا مسافة طويلة تفضي إلى بيداء الشمال. ازداد ضياء القمر وضوحاً وجرأة. تحرّر الوجه الحنون، المستدير، من قيود الخجل ومزّق غلالة الميلاد والبكارة.

قالت أخيراً:

ـ إذا طلع البدر بنقاب الخجل والغبار فهذه بشارة بالقبلي غداً وإشارة لأنباء أُخرى. هكذا يقول العرَّافون في آير.

ـ وعرَّافونا الرعاة يقولون إن القبلي من السهل لن ينقطع ما ظلَّ أهله يتداولون الذهب. أمَّا الأنباء الأُخرى فلم تتوقف أيضاً منذ حُوِّلت الصحراء الوسطى إلى سوق لمساومات التجار.

أصابها الاستفزاز بالجرح فتولَّت الدفاع عن «واو»:

ـ كانت أرضاً ميتة فبعثناها بـ «واو» ففتحناها بالتجارة ووهبنا لها الحياة.

ـ كانت بكراً فاستبحتموها بالتجارة. لا يستبيح الأعراضَ شيءٌ كما تستبيحها التجارة.

ـ في التجارة سرّ الحياة. التجارة تبادل، والتبادل هو الحياة. هل تنكر أن التبادل هو الحياة؟

ـ وهل يجرؤ مخلوق أن ينفي سرّ الكائنات؟ هل يجسر الإنسان العاجز، الذي جاء من المجهول بالتبادل نفسه، أن يطعن في السرّ الإلّهي؟ ولكن لا تنسي أن الفرق بين التبادل البشري والتبادل الإلّهي كالفرق بين المخلوق والخالق.

ـ لم يبق للمخلوق إلاّ أن يحاكيَ الخالق. لم يجد بدّاً من أن يفعل ذلك منذ طرده الجبار من ملكوته ونزل به إلى الحضيض. والجبار هو أول مَنْ

وضع العهد في رقبة كوز الطين عندما دفعه إلى المنفى. قيل إنه قال له في الوعد أنه سيبارك خطواته ولن يتخلّى عنه طالما احتفظ المخلوق بالوصيّة واستمرّ في ممارسة المحاكاة. في المحاكاة عشق للجبار وسرّ تَعلُّق كوز الطين بالأصل، بالملكوت السماوي. لولا المحاكاة لما نصَّبه خليفة له في الصحراء.

ـ هذا تفسير أقرب إلى تجديف المجوس. هذه نصوص مدسوسة من دين المجوس.

ـ إذا عجز أهل آزجر في موقف الفقه رجمونا بنصوص المجوس. كأنّ القرآن لم يورد النص الخاص بجعل الإنسان خليفة للّه في الأرض.

ـ هنا تقبع حيل المجوس. يعتمدون نصّاً قرآنياً ثم يدخلون به الأدغال. وإذا دخل النص القرآني إلى مجاهل الأدغال خرج من هناك بقناع آخر. بقناع الزنوج والمجوس.

ـ الرَّجْمُ بالمجوسيّة سلاح العجزة.

ـ أعترف أني لست فقيهاً في دين المسلمين، ولكني أستطيع أن أقول إن المخلوق الزنديق حرَّف الوصية بمجرد أن هبط إلى الصحراء. خان الوصيّة. فإذا كانت المحاكاة هي شهادة تعلقه بالأصل السماوي فإنه زيَّفها عندما سمح لغول الجشع أن يقوده في التبادل ليتخذ من الذهب عملة للتعامل بدل الحبّ. علّمتنا الصحراء أن الإنسان لا يحتاج إلاّ إلى الحبّ إذا أراد أن يخلِّد الذِكر والنوع. وهي، هذه العجوز الحكيمة التي نسميها صحراء، ترينا كل يوم كيف تستمر الحياة بالتسخير السماوي وحده. يعمُّ الجدب فتشكو الكائنات. تستجيب السماء وتجمِّع السحب لتعشق بها الأرض. تستيقظ البذور ويحيا النبات. يزهر الرَّتْم وتنفلق الأرض بكنوز الترفاس. تتغذّى الغزلان والودّان ويتوالد الطير. تهرع الريح وتطير بزهور اللقاح وتعممها في كلٍ مكان. تتلقفها الأشجار الظمأى للحبّ وتصنع منها الحياة. الحياة التي حثّنا رب السماوات والصحاري على محاكاتها. فهل

نخسر شيئاً لو اكتفينا بهذه المحاكاة ورجعنا عن التبادل الشيطاني الذي تتحدثين عنه؟ هل تتأثر الحياة إذا توقفنا عن تداول النحاس وتخلينا عن تبادل الأوزار والمتاع؟ أستطيع أن أراهن أن اللّه جعل الخلافة الأرضية للمخلوق الذي يكتفي بالمحاكاة الأولى، المحاكاة التي تجعل الحياة تستمر بتبادل المحبة، لا للمخلوق الشيطاني الذي يسهر آناء الليل وأطراف النهار لإنجاز صفقة تجارية.

ـ أراهن أيضاً أنك لن تكتفي بالمحبّة إذا عرفت انك زائل. إذا عرفت أن الدموع ستختفي إلى الأبد بالموت. لن تختفي فقط ولكن ذكرك أيضاً سيختفي. نسلك. أثرك. كأنك لم تكن. كأنك لم توجد. وهذا اليوم الكئيب آتٍ في القريب. تراه يقترب كل صباح. تذهب إلى المقابر فيخبرك الرميم أن هذه العظام كانت بالأمس فقط مخلوقات تدبُّ وتحبّ وتحلم بغدٍ أجمل. كلها تحلم بغدٍ أنبل. كلها ترى السعادة في الغد. ولا تعلم أن الغد لا يحمل إلّا الفناء. إلّا الزوال. إلّا العدم والغبار. الغد يحمل هجعة أبدية تحت ذرات التراب. التراب المتوحش هو الغد. فإذا كان هذا هو المصير، إذا كان المطاف يقود إلى التراب فلماذا تَضنُّ على المخلوق البائس أن يتمتع بخير يومه؟ لماذا تستنكر عليه أن يغرق في مضاربات الأسواق ويحوز الطعام والزيت واللحم؟ لماذا تبخل عليه بجمع المال وتكديس الذهب إذا كان ذلك يلهيه عن الوهم وينسيه عن التفكير في وحش الغد؟ أليس النسيان أنفع من أحلام يأكلها منه التراب والعدم؟

أفلت أوخا بالغضب:

ـ هذه هي روح المجوس التي أنكرتها منذ قليل. هل تنكرين أن هذا لا يمتُّ إلى روح المجوس؟ أنا أفهم الآن لماذا تركتِني معلّقاً طوال هذه السنوات. فهمت الآن سرّ ترددك القاتل. أنت لا تحبين أحداً لأنك تريدين أن تحبّي كل الرجال. أنت لن تفهمي سرّ المحبة، سرّ التبادل الإلّهي، لأنك تريدين أن تستولي على كل الرجال. هذه روح التجار، وهيهات أن يفهم المحبّة مَنْ عامل العشق بنهم التجار.

لم تغضب، لم تستنكر. قالت بنغمة ساخرة:

ـ ولِمَ لا؟ أظن أن المرأة خلقت كي تكون بهجةً لكل الرجال، هِبَةً لكل الرجال. هذا قَدَرُ الأنثى!

ـ تجديف المجوس!

ـ ولا أعرف لماذا يحرِّم الدستور القرآني هذا النعيم.

بدأ أوخا يرتجف:

ـ ظننتُ أنكِ لا تعرفين ماذا تريدين. نساء كثيرات يترددن في الاختيار لأنهن لا يعرفن ماذا يردن. ولو عرفت أنك تخفين هذا التجديف لما رفعت أمري إلى السماء وحكَّمت القدر. الرهان تحكيم للقدر!

رفع رأسه فكشف له البدر عن ابتسامة ساخرة.

(٣)

عاد إلى الميعاد، انسحب مع آخماد إلى البيوت. سرجا مهرييهما وعادا إلى الميعاد فوق المطيّتين. كَبَحَ آخماد جمله وتوقف بعيداً، في حين أقدم أوخا بمطيته نحو حلقة النساء راقصاً. عبر الساحة ذهاباً وإياباً مرتين. ثم هَمَز المهري بقدمه فهرول حول دائرة الرقص وطافا الحلقة مرتين أيضاً. زغردت ثلاث نساء وارتفع نواح «إمزاد» المجنون. استجاب الحيوان للتحيّة فركع على ساقيه الأماميتين. زحف حول الحلقة راقصاً، متمايلاً برقبته المقوّسة، الطويلة، المزينة باللجام الذي تتدلّى منه خيوط الجلد الملوّن فتنسدل على رقبته كشعور الحسان.

هَمَزه مرة أخرى فنهض برشاقة وركض في بطء وجلال عبر العَرَاء. تبختبر بكبرياء النبلاء حتى اختفى وراء الرابية الشمالية. هَمَز آخماد جمله وتبختر في أثره. لم تتوقف الأنامل المرصوصة بخواتم الفضّة عن قرع الطبول. ضربات الأنامل المرصعة بخواتم الفضة لها وَقْعُ السحر على الطبل المغلّف بالجلد. ارتفعت الحناجر بالزغاريد.

استمرَّ الوتر يتوجع على صدر الوتر. ارتفعت أصوات: «المهري غادر. أوخا رحل».

انتقل الخبر من حلقة النساء، عبر الأولاد الرّسل، وبلغ الرجال: «المهري غادر. أوخا رحل». وبرغم أن الفارس لا بدَّ أن يغادر بجمله ويرحل من حلبة الرقص إلاّ أن الجلال الذي تردَّد به الخبر أجبر الرجال أن يتحركوا نحو الرابية ليتفقَّدوا الفارس الرّاحل. تقاطروا على الرابية، وبرغم سخاء البدر في كشف الصحراء إلاّ أن الفارس اختفى. اختفى أيضاً آخماد الذي انطلق وراءه. تواريا وراء الروابي أو نزلا وديان الطلح أو ابتعدا مسافة تجعل الفلاة قادرة على حجبهما.

في الميعاد ترنّحت الألحان وتعثّر الحماس. اختنقت الأصوات واسترخى التوتر في الوتر.

لم يعرف أحد سرّ البرود: أهو ألم الشجن أم حزناً على غياب الفارس؟

(٤)

أناخ المهري في وادي الطّلح. لم ينتظر حتى يبرك الجمل فقفز من السرج قبل أن يكمل المهري ركعته. أخرج من الجراب عِقَال المَسَدِ وبدأ يُحْكِمُ القيد على ساقي المهري الأماميتين. فوجِىء الحيوان المدلَّل بخشونة المعاملة وقساوة القيد فاحتجَّ بصوت موجع. أزَاح عن سنامه السرج والمتاع. ربَّت على رقبته الممشوقة بحنان. تحسس فكيه الرشيقين، النحيلين. داعب شفتيه المتدليتين ومرَّر أنامله على أطرافهما. وَخَزَ الزغب الخشن راحتيه وتمسَّح المهري بيديه. تحسس اليدين والأصابع بخياشيمه، ثم بدأ يلعق أطراف الفارس بلسانه. سَرَتْ رعدة في بدنه المشدود فاحتضن الرأس الوديع، المستطيل، وضمَّه إلى صدره. سكن المهري واستسلم للعناق.

ظلاّ ملتصقين، مشدودين أحدهما إلى بعضهما، ساكنين، يستمعان إلى

وجيب قلبيهما. تنحّى أوخا فأحسَّ بالبلل في ذراعيه وصدر. تفحّص صديقه فرأى في عينيه الكبيرتين، السوداوين، الحزينتين، دموعاً كبيرة معلّقة على أهدابه الطويلة، متلألئة، تحت ضياء القمر، كحبّات اللؤلؤ. مسح أوخا الدمع بيد راجفة. ثم..

ثم داس على قلبه حتى انفطر الدّم وشدَّ الزِّمام إلى الوراء. أحكم تقييد الرسن إلى الذيل فَرَغى الجمل مرة أخرى. فتّش في الجراب، المعلّق في رأس السرج الأمامي، عن السلاح. فتّش بيد راعشة فطال البحث وأحسّ بزحف الوهن. بلع بلغماً خرافياً سدّ بلعومه فشعر أنه بلع سكيناً. مزَّق السكين البلعوم والحنجرة والصدر ولكن الغصّة ظلّت تسدّ النَّفَس. تحوَّلت الغَصَّة إلى غضبة مجوسية. قفز إلى الجراب وقَلَبه رأساً على عقب. نفضه بخشونة فسقط السلاح على الرمل. جرَّد المدية من الغِمْد فلَمع لسانها الوحشي في الضوء الفضّي. خار بدنه فترنّح مرتين، استند إلى جسم المهري وقاوم الدوار.

حجبت عينيه سحابة من العتمة فأغمضهما. صعدت أمعاؤه إلى حلقه. انقبض القفص وعجز عن التنفس. غَمَره العرق. جسده مبلول كلّه. نَزَف عرقاً سخيّاً في لحظات. ظلَّ يستند على المهري ويراقب الفراغ. أعاد المدية إلى الغِمْد بيدين مرتجفتين.

وصل آخماد.

وَثَب من المهري قبل أن يتوقف عن العدو. أقبل نحو أوخا راكضاً. هجم عليه واختطف المدية من يده. استيقظ غول الكبرياء وتململ فيه الإحساس بالعار. قفز على رقبة آخماد. حاول أن يستعيد المدية. قاوم آخماد. التحما في مشادَّة وحشية. حاول آخماد أن يستغلَّ ضعف قرينه ويصرعه أرضاً بمساعدة رجله اليمنى ولكن أوخا، الذي استعاد قواه، انتبه للحيلة. قفز في الهواء برشاقة الجنّ وتخطّى الفخّ دون أن يتخلّى عن منكبي آخماد. بل استغلَّ القفزة فجذب غريمه إليه بمجرد أن لامس الأرض بقدميه. ترنّح آخماد وسقط على الرمل ولكنه استمرّ يتشبّث

بالسلاح. تدحرجا في كتلة واحدة على العَرَاء الرملي. حاول أوخا أن يستعيد المدية. شدّ المقبض وشدّ آخماد طرف الغمد.

تنازعا الطرفين. انفصل الالتحام. انفصل الغمد عن المدية. فاز أوخا بالمدية وبقي الغمد في يد آخماد. حشرج أوخا:

ـ لا بدَّ أن أفعل ذلك بنفسي، لوحدي، كما اتفقنا!

زفر آخماد. حشرج لاهثاً:

ـ رأيت كيف تفعل ذلك. أنت لا تقدر أن تفعل. لماذا لا تدعني أفعل ذلك أيضاً. أنت في حال لا يسمح بأن تفعل. لماذا تريد أن تعذّب الحيوان؟

تصاعد في صدر أوخا غضب المجوس:

ـ هل تريد أن تقول إنك أقوى؟ هل تريدني أن أتركه خلفي؟ أو أن قلبي قلب امرأة؟

ـ هيّا أرِني إذن. أرني كيف ستفعل ذلك دون أن تعذِّب الحيوان. نحر المهاري بالمدية ليس كضرب رقاب بني آوى بالسيف.

تقدّم أوخا من المهري. انحسر طرف اللثام عن شفتيه فرأى آخماد الزَّبَدَ فوقهما. صاح بنفس الحشرجة:

ـ لن تعلِّمني كيف تُنْحَر المهاري كما لم تعلِّمني قبلها كيف تُضْرَب رقاب بني آوى. ابتعد!

لوَّح بيده فتراجع آخماد خطوتين إلى الخلف. رفع أوخا المدية في الهواء. لَمَع النصل الشَره تحت نور البدر لمعة وضيئة، خاطفة، عطشى للعق الدَم وأكل اللحم.

هوى الفارس بالسلاح النهم وغرسه حتى النصل في صدر المهري. انتفض الحيوان، حاول أن ينتزع رقبته المشدودة باللجام إلى ذيله. بذل

جهـداً خـارقـاً كي يخلِّص سـاقيـه المقيـدتين، المثنيتين بعقـال المَسَـد المتـوحش. تـدفق الـدم من الـرقبـة. شخـر الجمـل، سحب نفسـاً عميقـاً فتحشرج واختنق بالنزيف. اشتكى ببكاء مدهش، موجع، حزين:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ و ـ و ـ و ـ ه...

تخلّى أوخا عن المدية فجأة. انهار على الرمل ودسَّ رأسه في التـراب. فوق رأسه نزف الدم الحارّ، الغزيـر، المتخثِّر. حشـرج الحيوان بـالعذاب. هَرَع آخماد. أزاحه جانباً فتدحرج الفارس على الرمل. يقبض التراب بيديه ويتلوَّى كالملدوغ.

تنـاول آخماد المـدية. شمّـر عن ساعـده الأيمن ودسَّ النصـل النهم في الصدر العميق. ازدادت غزارة الدم. لوَّث ملابسه ووجهه. لم يتوقف. تابع تعميق الجرح. وكلما توغَّل بالنصل في الصدر كلما ازداد فيضان الدم. بدأ الحيوان يهدأ. ارتخت عضلاته. كفَّ عن الشكوى.

ظلّت الجلدة وحدها ترتجف. رعشة الجلدة الإشـارة الضروريـة لحلاوة الحياة وحرارة النَزْع الأخير. وحتى عندما استسلم الجسد للسكون، وتوقف النـزيف، بقيت جلدة الجنب الأيسر تـرتعش وتقفز في انتفـاضات متـوتـرة، متقطعة، سريعة.

تألقت بركة كثيفة من الدم تحت ضوء القمـر. من البركـة المعتمة ارتفـع البخار.

(٥)

جلسـا متجاورين. هـدأ أوخا. راقب العَـرَاء في استسلام في حين تـوتَّر آخماد. حاول أن يداري الرعشة بإهالة الرمل على ساعديه الملوثين بالدم. قال:

ـ أخشى أنني لن أستطيع. أخشى أني لن أقدر.

واصل أوخا التحديق في العراء بنظرة غائبة، بلهاء. صمت طويلاً قبل أن يردَّ بهدوء أقرب إلى البرود:

ـ أنت تمزح. يروق لك أن تمزح في وقت لا يطيب فيه المزاح.

ـ أنا لا أمزح. ذبح المهري أنهكني.

ـ مَنْ أجبرك أن تتدخل؟ قلت لك إن الفارس هو الذي يُتِمُّ الشعائر. أنا مَنْ يجب أن يصنع الوداع. أردت أن أشيّعه لوحدي..

قاطعه آخماد:

ـ ولكنك تخاذلت. تخاذلت مرتين وسببت له الأذى. لن يغفر لك ذلك. هذا ما لا تغفره المهاري وقت الرحيل.

عاد أوخا يسعى في الفراغ. رأى آخماد كيف غزا البياض مقلتيه، ثم تمتم هَمْساً:

ـ لم أمهله. الوقت لم يسعفني كي أمهِّد في متسع. فعلت كل شيء على عجل. أنت لم ترَ الفجيعة في عينيه الدعجاوتين. ليس الجبن هو سبب الفجيعة وإنما المباغتة. المفاجأة. لقد فاجأته. لم أعطه الفرصة. لم أبح له بنيتي. العجلة. العجلة هي السبب. أربكته العجلة وأربكتني.

ترنّح إلى اليمين ثم إلى اليسار على طريقة المجذوبين والواقعين في حُمَّى الوجد. أكمل وهو ما يزال يتمايل:

ـ هيا نكمل الشعائر. الآن وجبت العجلة. العجلة الآن نعمة.

ـ قلت لك إني منهك. أخشى..

ـ لا تخشَ شيئاً. لا تتردد. فعلت الكثير ولم يبق إلاّ القليل..

ـ هل تسمّي هذا «قليلاً»؟.

ـ ...

ـ ما بقي هو أكبر الكبائر.

- . . .

- لم أبخل بشيء. بذلت ما في جهدي. ذهبت إلى تادرارت سرّاً كي أطلب أوداد للمبارزة وكدت أدفع حياتي ثمناً لتلك الرحلة. أقنعت أوداد أن يقبل الرِهان كما أقنعت الإمام قبله أن يتدخل. فعلت كل ذلك كي أعتق نفسي وأحرر رقبتي من الدَّين القديم.

- أنت تتحدّث مثلها. أنت أيضاً تتحدّث عن التبادل، عن التجارة، ولا أحد يريد أن يتحدّث عن التبادل الآخر، الحقيقي. لا أحد يريد أن يفهم المحبّة، أو الصداقة. أنت لست مَديناً لي بشيء، وما ستفعله الآن ستفعله باسم الصداقة والرفقة والصحراء وليس باسم التجارة والتبادل الشيطاني الذي ينادي به دِين المجوس.

- ولكن ما تريدني أن أفعله بك لا يقرُّه دين المسلمين أيضاً!

- لا تعلِّمني ما تقرُّه وما لا تقرُّه الأديان. دَيْنُك أن تفي بالتزامك نحوي. الدِينُ أن تلتزم بالوعد. الوعد دَيْن ودِين.

تناهى عواء بعيد. استجاب الجياع لنداء الدم الطازج تناقلت الصحراء الرسالة وبشّر النسيم بالقربان ورائحة الدم فكانت عشيرة الذئاب أول مَنْ ابتهج بالبشارة واستجاب بالنداء الفاجع. لا ترفع الذئاب صوتها بالعواء الباكي إلاّ إذا أشْرَفت على الوليمة.

قال آخماد:

- كان الأولى أن توكل أحد العبيد بالمهمة.

- وهل يتطاول العبد على السيد؟ هل يرضيك أن أُسلِّم رقبتي لعبد؟

- وماذا يهمُّ الشاة بأي سكين تُذْبح؟

- لا تحرص الشاة على ذِكْرِها بعد ذبحها. أمّا الفارس، أمّا النبيل فلا يملك غير الذِكْر. إنه يعيش لذِكْراه. عمله في الحياة مُكرَّس كله لِذِكْرِ

الناس له بعد الممات. هذا هو الفرق بينه وبين العبد الذي لا يعيش إلّا ليومه وجوفه.

تنادت العشيرة الحكيمة بالأصوات الفاجعة. اقترب النداء. نهض آخماد إلى جمله. كان يبرك في المنخفض مسرجاً. توقف عن الاجترار وظلّ يتلفت حوله في قلق منذ أعلنت الذئاب عن نفسها واستجابت لنداء الدم. شرب من القربة المعلقة في السرج وغمر وجهه بنثرات من الماء. تناول حبال المَسَد وعاد إلى التلّة. لاحظ أوخا كوم الحبال الوحشية فاستوقفه واستنكر:

ـ لا تفعل ذلك بالليف. لا أُريدك أن تَمُسَّني بحبال الليف.

ـ هل يهمُ الشاة سلخها بعد ذبحها؟

ـ لا أُريدك أن تمسَّني بالليف الفظيع لأني لست شاة. أنا مخلوق جاء إلى الأرض في أجمل خلقة، في أبدع آية، أُريد أن أُوفي بعهد ربّي وأُعيد الوعاء الجميل إلى مَنْ استعرته منه سالماً. لا أُريد خدشاً في الوعاء. لا أُريد شرخاً في الوعاء.

بلع ريقه. وقف على قدميه. ترنّح حتى كاد يسقط وراء ظهره. أضاف:

ـ لو كنت أُريد أن أُسيء للوعاء لما احتجت لمساعدة أحد. لو كنت أرتضي الخدش أو الجرح لفعلت كل شيء بيدي، بسيفي. ولكن الوعاء أمانة في عنقي. لا بدَّ أن أردّه كما أخذته. الحرص على الأمانة من شِيَم النبلاء.

ـ تتحدَّث بلغة الدرويش.

ـ أبعد عَنّي هذا الثعبان الشره!

قال آخماد في يأس:

ـ هل أنت طفل؟ هل تريدني أن أفعل هذا العمل البشع بيدي العاريتين؟

نَزَع أوخا عمامته عن رأسه. نزعها في حركة واحدة، خاطفة، فسقطت عجلة القماش على الرمل فتعرّى وانكشفت عورة الرأس كلها. رأى آخماد وجهه ورأسه لأول مرة. رأس طويل، مستطيل، مغطى بشعر وَخَطَه الشيب فتلألأ تحت ضوء القمر. وجهه مخروط، مستطيل أيضاً. و. . شاهد آخماد أبشع ما في الخلقة. أبشع ما في الوعاء. رأى أُذنين طويلتين، كأذني جحش، تنتصبان في الجانبين الأقرب إلى فروة الرأس، ثم تنكسران وتتدليان إلى أسفل. أُذنان عجيبتان في موقعهما، وفي شكلهما، وفي شبههما بأذني الجحش، فآمن آخماد بحكمة أول مَن اخترع اللِّثام ووضع عمامة على الرأس.

بَحْلَق في اللفافة المكوَّمة على الأرض مثل كتلة ثعبان. قال أوخا:

ـ ستفعل كل شيء بحجابي. ستفعل ذلك بأنفس ما يملكه الرجل النبيل. بالعمامة التي ستَرَت فمه يوماً من عار الإثم والحرام. اللثام المقدّس. الكفن الأوّل الذي ستر السوأة الأولى. كان كفني وسيظلّ كفني. إصنعْ لي كفناً من كفني ورفيقي.

في عينيه ومض وهج جنوني. أُلق جنوني. اقترب آخماد من الكفن. انحنى فوق كتلة الثعبان. كتلة الحيّة. قماشه ناعم كجسد الحيّة. أمهق اللّون. تفوح منه رائحة العرق. لوَّث الدم بعض أجزائه.

مزَّق اللثام بين يديه إلى ثلاث قطع. تلفّت حوله. دعا الصحراء كي تَشْهَدَ. رفع رأسه إلى القمر الغارب. دعاه كي يشهد. تقدّم نحو صديقه وبدأ يقيد يديه وراء ظهره بالخرقة المستقطعة من اللثام.

ولكن القمر الخجول كان أول مَنْ رفض الشهادة، فأشاح بوجهه وقرر الانسحاب من الصحراء.

(٦)

بدأ اوخا يجدب.

استولت عليه الرعشة والحمّى فتمايل راجفاً. أَحْكَمَ آخماد تقييد الرجلين أيضاً. وقف فوق رأسه. اقترب العواء الفاجع. قال آخماد وهو يتفقد الصحراء الهاجعة بنظرة شاملة:

ـ ما أجمل الصحراء، فهل تستحق أن نهجرها في سبيل امرأة؟

لم يجب أوخا. ظلَّ يجدب بهدوء. عيناه المتألقتان تحدِّقان في الفراغ. أذناه الطويلتان تتأرجحان وترتجفان. بدأ آخماد يرتجف أيضاً. ارتفع طنين السكون. عَزَف الرمل معزوفته وضربت الصحراء على طبولها الليلية. ركع في مواجهة المجذوب أمام عينيه الفارغتين اللتين يدور فيهما البياض والفراغ. نَزَع الأحجبة عن الرقبة. أحاطها بوهق الزمالة. وهق الكفن. ارتفع في قلبه الحريق. استيقظ غول الجنون والعطش.

دفع رفيقه بعنف فانكفأ المجذوب على قفاه. شدّ طرفي الوهق بوحشية فتقاطع الكفن حول رقبة المجذوب. احتدَّ قرع الطبول. ازداد عزف الرمل. تضاعف عواء الذئاب. اسودَّ وجه القمر. ظلاّ يرتجفان في التحام محموم. فتح المخلص عينيه لحظة فأبصر زبداً كثيفاً يعلو شفتي المجذوب. أسبل جفنيه بعصبية وعاد يشدُّ الوهق حول الرقبة.

ارتفعت حشرجة واختلطت بضجيج الكائنات وعواء العشيرة. ولكن الوعاء لم يهدأ. الرفيق الذي جاء مع النفس واختار الشقّ، فوق الشفة، مَرْقَداً، لم يستيقظ. إذا استيقظ ودخل فتحة الأنف انتهى كل شيء. الرفيق الوحش غريب الأطوار. يستيقظ ويدلف الفتحة لأتفه الأسباب، ويتمنع ويغطُّ في أعمق سبات، في أعنف عدوان يتعرَّض له الوعاء. ها هو يدكّ مثواه ولا مِن مجيب. ما أغرب أطوار الوحش! ما أغرب سلوك الرفيق. يا موت: أنت سرّ الأسرار!

بدأ يختنق، احترق صدره بالظمأ. جفّ حلقه وفمه. فتح جفنيه. أمام وجهه امتدَّ لسان في طول الثعبان. وجهه مغمور بكتل من الزبد. خيط من الدم نَزَف من الأنف. طرف اللسان لامس ذقنه. غمرت بدنه قشعريرة.

غزاه الوهن. استرخت العضلات. تخلَّت قبضته عن الوهق. تخلَّت قبضته الأخرى أيضاً. بدأ يتقيأ بصوت عالٍ، قبيح. زحف على يديه وركبتيه نحو السرج. عجز. انكفأ على وجهه. لعق التراب والقيء.

رفع رأسه وعاد يزحف. في المنحدر تدحرج عبر سفح التلّة. وصل إلى الحضيض ولكنه لم يستطع أن يطول القربة المعلقة في رأس السرج. اشتدّ قرع الطبول. علا عزف الكائنات. ضجّت الصحراء بميعاد الصحراء. حَجَبه الدوار. وعندما أفاق من غيبته ووصل إلى السرج وشرب الماء تراءى له اللسان الوحشي، الطويل، الانسيابي كأنه ثعبان، يمتدّ ويتمدّد حتى يلتفَّ حول رقبته. أحسَّ به لَزِجاً. أملسَ، كريهاً.

قفز فوق السرج فانتصب المهري. انطلق في الخلاء الذي لفّته العتمة بعد انسحاب القمر.

(٧)

سمع الذئاب تمزِّق الجمل. تتعارك على اللحم. هل هي ذئاب حقيقية أم جزء من الغيبوبة؟ فتح عيناً. العتمة. فوق رأسه وقف شبح ملفوف بالعتمة والغموض. هل هو جنّي صحراوي أو عزرائيل الدنيا الآخرة؟ هل حان الحساب؟ تكلّم مَلَكُ الحساب:

- ويل لمَنْ آثر الوعاء على عصفور النور.

- مَنْ أنت؟

- كل مَنْ فضّل وعاء الطين الفاني على جوهرة الروح الخفيّة كذَّب بآلاء ربه وأُصْلي ناراً ذات لهب.

- هل أنت عزرائيل؟ هل أنت مَلَكُ الموت والحساب؟

- ويل لمَنْ سمح لكبرياء الشياطين أن تخطف روحه. الكبرياء تبلع العصفور وتخرج من البدن ثعباناً كريهاً.

ـ هل أنت الدرويش؟

ـ جئتك بالنبأ اليقين وفتحت عينيك المعميتين على أصل البلاء. قلت لك إن الحيّة أصل الشرّ، ولن تفلح ما لم تقطع رأسها. ولكنك كفرت ومشيت وراء شيطانك الأكبر: الكبرياء!

ـ أنت الدرويش. هل أنت مَلاك يا درويش؟

ـ أنت تدفع الآن ثمن الكبرياء. المكابرون فقط ينحرون المهاري البريئة ويوقظون الوحش النائم لأنهم لا يريدون أن يسيئوا إلى الوعاء. يضحّون بعصفور النّور ويُجِلّون كوم الطين الفاني. احتفظت برأس الحيّة بدعوى الحفاظ على سلامة الوعاء المسموم بالشهوة.

ـ أنت لم تغفر لي الصفعة. أعرف أن الدرويش لا يغفر شيئاً. لا يجدر برجل اللّه أن يحاسب مخلوقاً يحتضر على صفعة تلقاها في الطفولة.

ـ غفرت لك الصفعة الأولى، ربّي حسيبي، ولكني لم أغفر لك الصفعة الثانية. لم أغفر لك اختيارك لصراط شيطان الكبرياء. لولا الكبرياء لما اضطررت أن تتمرَّغ في التراب ملوَّثاً بالدم والزبد وسوائل الوعاء الكريه.

ـ اغفر لي!

ـ اطلب من الصحراء أن تغفر لك. إلْثَمْ بدن الصحراء. قَبِّل الأرض يا مكابر!

تحرَّك الشبح. تقدَّم من الجسد الملقى على الرمل. أمسك بأذنيه الطويلتين المتدليتين ودسَّ رأسه في التراب. دفعه بقسوة حتى غاص الوجه وغاب في الرمل الناعم. صدر من الوعاء أنين بعيد، موجع، كأنه ينبعث من هاوية.

تململ الوحش النائم فانتفض الوعاء وتشبَّث بالنَّفَس والحياة. أرخى الشبح قبضته وتخلّى عن الأذنين. رفع الوعاء وجهاً معفَّراً بالتراب نحو السماء الغامضة، المرصوصة بعراجين النّجوم. فكَّ الشبح رباط اليدين،

ثم رباط الرجلين. نزع الوهق من الرقبة. شَرَع يكوِّم بقايا اللثام المهيب بحرص وعناية. خاطب بقايا الوعاء بقساوة:

ـ هذه هديتي لنساء القبيلة. أنفس هدية. ثلاث قطع من اللثام المكابر. قطعة للأميرة، وقطعة لابنة العمّ تميما، وقطعة للشاعرة كي ترجمك بقصيدة الهجاء!

توسَّل الوعاء:

ـ أنت لن تفعل ذلك. رجل اللّه لن يفعل العار.

ـ لست أنا مَنْ فعل العار. أنت من ارتكب العار ثلاث مرات: أمام اللّه، وأمام عصفور النّور، وأمام القبيلة. أنت مجلل بالعار إلى الأبد.

ـ أنت تكذب. أنت شيطان. الدرويش شيطان رجيم.

ـ سأوجِّه الدعوة للصبايا. سأدعوهنّ للفرجة على العَوْرَة. على أُذني الجحش. أستطيع أن أتصوّر الآن بشاعة القصيدة التي ستتناقلها الصحراء كلها.

ابتعد الشبح. قطع الوادي وتوجه إلى السهل. نهض الوعاء، تحرَّك كوز التراب، وسار خلفه مترنحاً، دامياً، محطماً.

سقط. نهض. سقط. زحف فوق الحزيز، تدحرج من سفوح الروابي. انكفأ على وجهه ولعق التراب. مزَّقت الحجارة الحزّازة الوعاء. ازدادت أذناه تدلياً. تدلَّى اللسان وخرج الثعبان من الفم. الثعبان الذي بلع عصفور النّور الوديع. عصفور الدرويش المحبوس في قفص الوعاء. توسَّل في غيبوبته:

ـ اغفرْ لي!

فسمع رد المجهول بصوت الدرويش:

ـ اطلب الغفران من الصحراء. توسّد الأرض وكُلْ التّراب!

يئس. بلغ أرض الميعاد. ركع وتهيأ لتأدية شعائر «الغفران. ولكنه فوجىء بـالأشباح. أشبـاح الجن. أشبـاح الـ. . . نـ. . . سـ. . . ـا. . ء. نسـاء القبيلة. الأميرة. تميما. الشاعرة. العذارى. رتل من العذارى. تذكَّر اللثام الضائع. تذكَّر العورة، فابتلعه بئر العار قبل أن يبتلعه بئر الأرض، وقبـل أن يؤدي شعائر الغفران.

(٨)

عنـدما انتشله الـرعاة من البئـر وجـدوا فمـه مكمّمـاً بخـرق اقتطعهـا من سرواله، قبل أن يقفز في الفـوهة، محـاولاً أن يستر العـورة التي تلقت لقمة الحرام أول مرة وحرمت السلف من نعيم الإقامة في «واو».

٨ ـ الآثام

«فرأت المرأة أن الشّجرة جيّدة للأكل وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت لرجلها أيضاً معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان: فخآطا أوراق تين وصنعا لنفسيهما مآرز».

سفر التكوين ـ إصحاح «٣»

(١)

بعد أن ذاق اللقمة الحرام تسمّم بدنه بالشهوة.

فقد السكينة وساوره القلق. هام في الأحراش وتسلّق النخيل والعرائش. نزل إلى العيون وشرب من نهر اللبن علّه يطفىء الحريق الذي شبَّ في صدره، فما كان من الجسد إلاّ أن زاد اشتعالاً بالنّار الخفية. تمرَّغ في التراب وتلوّى على الأرض.

صعدت شعلة النار إلى البلعوم، شقّته كنصل سكين وصعدت إلى الفم. تحوّلت إلى سكين حقيقي، ملتهب، وحزَّت فتحة الفم وقسمتها إلى نصفين أفقيين. تشققت الشفة، التي كانت فتحة رقيقة، عذبة، وانشطرت إلى ضلفتين قبيحتين ككعثب المرأة. تحسّسهما بيده فتضاعف شقاؤه. استمرّ يتلوّى على ضفة نهر اللبن. نزل السكين الناري إلى الجوف فارتفع صوته بأنين فاجع. في الجوف استبدل السكين الخفي جلده وتحوّل إلى ثعبان ناري مسموم. نفث الزعاف في البدن فاشتعل بالرغبة. انتفض وارتجف وناح بالفجيعة. تحرّك الثعبان ونزل إلى أسفل. وظل يزحف وينزل حتى طلع واستقرّ بين رجليه. استمرَّ يتأوه ويتلوّى عندما جاءته امرأته ومسَّدت بكفِّها الحنون على جبينه المغمور بالعرق والشقاء. قالت بدلال:

ـ هذا مخاض يجيء الرجل مرة واحدة ثم ينتقل إلى المرأة إلى الأبد.

تشكّى وتوسَّل:

- في جوفي عدو. بين رجلي ثعبان. فقدت السكينة. اللقمة طارت بخلو البال.

انشقّت الشفتان بسمٍّ اللقمة. هل لقمة البستان مسمومة؟

هدهدته المرأة كطفل. وضعت رأسه في حجرها العاري وعزَّته بغنج الأنثى:

- في اللقمة سرّ أبهى من أي شيء. سم الحقيقة ألذُّ من أي طعام. الحقيقة هي الكنز المخفي في اللقمة. والنار ثمن الحقيقة. ثمن الحرام.

- هل الحرام يحرِّم السكينة؟ هل الحرام مر إلى هذا الحدّ؟

- ليس هناك ألذّ من الحرام؟

- ولكنّي شقي. تقبّحت شفتاي ونبت بين فخذيّ ثعبان!

- هذا جزاء. لأنك ذقت الحرام. ثمن الحقيقة نار!

- هل القصاص في حجم الفوز؟ هل تستحق الحقيقة هذا الشّقاء؟

- انتظر. لا تتحدّث عن الشقاء، لأنه لم يبدأ بعد.

- أنا شقي. بدني مسموم بالشهوة.

- الشهوة هو ما أخذته مقابل العذاب. الشهوة ثمن الشقاء.

- هذا بشع.

- انتظر. سأريك أن هذا ليس بشعاً إلى هذا الحدّ.

أسندت رأسه بذراعها وانحنت فوقه. لَثَمَتْ فمه البشع، المشطور، فتدلّى شعرها السُّخام وغمر وجهه وصدره. دغدغ نُنداُته اليمنى فتراعش البدن. تمددت بجواره وألصقت جسدها بجسده. توتر وانتفضت عضلاته بحمّى. تحرَّك الثعبان وتمدّد بين رجليه. تسلل وزحف حتى دخل بين فخذتيها البيضاوين.

(٢)

في حمّى العناق تورّمت الشفاه. انتفخت الشفاه. تمرّدت الشفاه. خضّته الرعشة وأعقب الالتحام خواء. خواء خفي هوى به في اليأس. عَزَّته الأنثى بمداعبة عذبة من أناملها. في تلك اللحظة جلجلت في الأحراش ضحكة زلزلتهما وزلزلت الأرض تحتهما. انتفضا وانفصلا. قفزت الأنثى واختفت وراء شجرة التين. قطفت أوراقها وخاطتها حول خاصرتها اللعوب. أمّا هو فتطاول في النخل ولملم الليف. نسج منه لثاماً حول فمه الكريه ونزل إلى الأرض. خرج حاجب السلطان من وراء الأحراش واستمرّ يغمز بعينه بخبث ويتلوّى ضاحكاً. ركع فوق نهر اللبن وبلل ريقه. التفت إلى «مندام» وهدّد بسبابته:

ـ إذا دخلت لقمة الحرام من الفم لن تخرج من الجوف إلى الأبد.

تشكّى مندام وناح:

ـ سمّمت بدني بالنار.

ـ نار الشّهوة!

ـ وعندما انطفأت نزل في قلبي خواء!

ـ لا يعقب شهوة الإثم إلّا الخواء.

ـ أريد السكينة. أريد الاطمئنان. أريد ألّا أريد شيئاً.

ـ هيهات. منذ اليوم لن تذوق طعماً لسكينة أو اطمئنان. منذ اليوم ستريد كل شيء دون أن تحصل على شيء!

رفع مندام صوته بالنواح. تلوّى على الأرض. تضرّع:

ـ أريد أن أنسى. أعطيك عمري مقابل أن تختم على رأسي بالنسيان.

ـ هيهات. منذ اليوم ستشقى بالمعرفة ولن تعرف النسيان. السرّ في المعرفة.

ـ ارحمني. اسمحْ لي أن أدخل على سيدي السلطان.

ـ هيهات. السلطان أمر ألَّا يُفْتَح لك باب بعد اليوم.

ـ ولكن لا بدَّ أن أرفع أمري إليه. لمَنْ سأشكو حالي غير سيدي الأوحد؟

ـ إلَّا من وراء حجاب. إلَّا بواسطة.

ـ الرحمة! قلبه كبير وسيرحمني!

ـ أنت لا تعرف غضب السلاطين لأنك غشيم. ليس هناك أقسى من السلطان إذا غضب!

ـ الرحمة يا حاجب السلطان. لم أعرف قبل اليوم غير الرحمة.

ـ زال أوان الرحمة بمجرد أن أكلت لقمة الحرام. الحجاب جزاء آخر على العصيان.

لطم مندام وجهه المستور بحجاب الليف. لعن امرأته وهمهم في وجهها:

ـ أنتِ السبب!

قفزت الأنثى مثل اللبؤة وأشارت بإصبع الاتهام نحو الحاجب:

ـ أنتَ السبب!

قهقه الحاجب حتى استلقى إلى الوراء. هدَّدها بسبابته وقال متخابثاً:

ـ هل فعلت منكراً إذ أخبرتك بأن السلطان حرَّم علينا الاقتراب من بستان الغزلان؟ هل فعلت منكراً إذْ حرصت عليكما من الخطأ وفتحت عينيك، أيتها الحيّة، على سرِّ السلطنة؟

ناح «مندام» وتلوَّى بجوار النهر الناصع:

ـ ويلي! ويلي! لماذا أخبرتها ما دمت تعرف أنها حيّة؟ لماذا لم تخبرني

بالتحريم؟ ألا تدري أن الحيّة لن تهدأ في جوف الأُنثى حتى تشبع فضولها بارتكاب السرِّ وانتهاك الحَرَام؟

هبَّ الحاجب في وجهه:

ـ لا تتبرّأ! ما كان ينبغي أن تقتحم البستان.

بكى منذام وتمرَّغ في الرّغام:

ـ زيّنت لي اللقمة. قرأت في أُذني قصيدة عن بهاء الغزلان. عزفت على الوتر المسحور وغنّت عن رشاقتها أجمل الغناء. أنت تعرف كم أنا ضعيف أمام الشعر وأمام العزف والغناء.

أَنهى الحاجب المحاورة:

ـ سنتوقف عن تبادل اللعن والاتهام. التوبة لن تعيد الحياة للغزال، ولقمة الحرام لن تخرج من الجوف بالنّدم. فلا تحاول يا «مندام» أن تخفي عارك وراء الحجاب. اللثام لن يحجب العورة.

ثم قطب جبينه وضيَّق حاجبيه. رفع يده ومسح شعره المنتصب على رأسه كعرف الديك وأعلن:

ـ خذ امرأتك وارحل يا مندام!

انتحبت المرأة واحتجَّ الرجل المبهوت:

ـ كيف؟.

أجابه الحاجب ببرود:

ـ ما على الرّسول إلاَّ البلاغ.

ـ هل هذا قرار السلطان الأخير؟

ـ يحزنني أنه النهائي الذي لا يقبل فيه أخذ ولا ردّ.

ـ ولكنّي غشيم ولا أعرف لي وطناً غير «واو»؟

ـ اسعَ في الأرض. اكسبْ عيشك بعرق الجبين. سرْ في الصحراء.

ـ الصحراء؟

ـ ليس أمامك إلّا الصحراء. إنها بلا حدود. لا أحد يعرف من أين تبدأ وأين تنتهي.

ـ هل الجزاء قاسٍ إلى هذا الحدّ؟

ـ قصاص السلاطين قاس دائماً. أنت لا تعرف السلاطين.

ـ ولكنه رحيم. ائذن لي أن أُمْثُلَ بين يديه وسوف ترى.

ـ لن ترى له وجهاً بعد اليوم.

ـ إني أتوسَّل!

ـ فمك ملوّث بالحرام. اللثام لن يحجب الحرام.

ـ أخبره بندامتي فربما أعاد النظر في أمرى.

ـ مستحيل. رُفِعَتْ الأقلام وطويت الصحف!

بعد ساعة وجد مندام نفسه خارج السور العظيم! أحكم اللثام حول وجهه وتدثّرت المرأة بمئزر التين. امتدت أمامهما صحراء مغمورة بالسراب.

بدأت مسيرة التيه، وأصبح اللثّام، منذ ذلك الحين، شعاراً يخفي به الصحراوي عورة الفمِّ.

٩ ـ آمغار

«لا أعلم سعادة للإنسان أكثر من أن يُفْنَى عن نفسه»
فريد الدين العطار النيسابوري
«منطق الطير»

(١)

تسلّل القبس المشاكس وأقام الحدّ الفصل في عناق الصحراء والسماء. تعرّى النزيل من غطاء النجوم وانسحب، من تحته، بساط الغمام. وجد نفسه يهجع فوق عرقوب الصرح، معلّقاً بين العشيقين، ولكن الغيمة الزائلة تراجعت إلى الحلق السفلي وظلّت تحجب عنه السهل الأرضي. تنقّل فوق الصومعه.

انقشع الضباب وفتح أفواهاً في الهاوية. أفواه ظلماء، جليلة، يتصاعد منها بخار كأعمدة الدخان. الفوهة مطوقة بمربع من الألواح العمودية المهيبة. تمشّى يميناً وتفقّد الجدار الصلد. قطع مسافة طويلة فوق الحدّ الصاعد. الجدار ينبسط حيناً ويعود للوعورة وحدّة الطرف حيناً آخر. سطحُ الحجر مجلوّ ولمّاع في أغلب المساحات. ولكن إرادة الزمان كانت أقوى فلحست بعض الأطراف ونهشت قطعاً من الصلد المكابر.

أفضى الجدار إلى شقٍ يفصل بين اللوح الشرقي وقرينه الشمالي. كانت الفجوة بينهما من العمق بحيث يستحيل القفز فوقها والوصول من هذا الجانب إلى الجهة الأخرى. أدهشه أن هذه الفجاج خفيّة ولا تُرى بالعين من الأرض مما يجعله يتخيّل سموق الجبل الخشام. عاد في أثره واستكشف الطرف الأيسر. انشقّ اللوح هناك أيضاً عن فجٍ. عرف أن الألواح جدران معزولة نصبتها السماء على هيئة حصن خرافي عنيد. طاف

حول الفم عازماً أن يستكشف هاوية الظلمات. ولكن غلالات الضباب استمرت تتسكع حول الفوهة كاشفة، بين الحين والآخر، عن فتحات ظلماء في الهوّة الجليلة. طاف السطح فلم يعثر على أثر لمخلوق. لا نقوش. لا رموز. لا ذرق لصقر، ولا جعر لوحش.

في فم الظلام علت همهمة. أم أنها لغة الريح في الفجوات؟ وقف وأنصت. عاد السكون ينطق بلغة الفناء. سكون الصحراء لغة الفناء. انحنى فوق الهاوية وراقب كيف تسبح الغلالات في الفوهة مثل سحاب حبيس. تتمزّق وتتناثر ثم تعود فتتلاقى وتتلاحم من جديد. استمرّت الفوهة الكئيبة تنفث البخار في دفعات. تعلو أسماله في الفضاء فتتحوّل إلى لثام يتجوّل حول الرأس بتكاسل يحجب الفتحة. حمت الشمس. زَفَرَ القِبْلي في وجهه صهداً. ظلّ يحوم حول الفتحة. وجد أن الانحدار في باطن النصب، المؤدّي إلى جوف الفوهة، ليس عمودياً كظاهره المكشوف للسهل، مما يجعل النزول في الجوف أيسر من العودة إلى الوراء، خارج الصرح.

بحث عن موقع مناسب للهبوط.

طاف الضلفة الشرقية فوجد أن الرأس ازداد تكبراً وترفعاً والنصب يبالغ في الانتصاب في كل المواقع. الجزء الوحيد المتواضع في الموقع هو الذي صعد منه. الموقع الذي سلكه آمغار العجوز عندما أنقذه من السقطة.

حاول أن ينزل من هناك.

تشبّث بالصلد المصقول فوجد جسمه ينزلق ويؤول للسقوط. الريح، أو الزمان، أجلت الحجر وجرّدته من النتوء والبروز والمسام، وجعلت التشبّث به عملاً مستحيلاً. خُيِّل له أن بدن الحجر لم يكن لميساً إلى هذا الحدّ عندما صعد. أم أن الحمّى والتعب منعاه من الإحساس بجسد الصلد؟ أم أن امغار الجنّي تولّى حمل الوِزْر فلم يشعر بنعومة الجزء العلوي للنَصْب؟

أم أن الجنّ سهرت الليل وأجلت الوجه لتقتصّ منه جزاء تطاوله وتعاقبه على انتهاك بكارة الحَرَم؟

مزَّق من لثامه قطعة. مزَّقها إلى أربع خرق. لفَّ يديه ورجليه بخرق القماش وعانق الحجر. نزل بحذر من الموقع نفسه، وحرص أن يتخذ طريقاً أفقيّاً في نزوله حتى يتحايل على نكاية النصب ويتَّقي غضبه وبطشه. تحرّك ببطء. التصق بالجدار المنحوت بكل جسده. استفزَّ كل الحواس، استنفر الدم، وتحوّل إلى شوك ومخالب، تشبّه بالضبِّ. استحضر الجدّ ليمنحه القدرة على التشبّث بالجدران والالتصاق بالحجارة الغدَّارة. زحف أفقياً إلى أسفل. فزَّ منه العرق. تمزَّقت الخرقة الملوية على الكفِّ اليمنى. ثم تبعتها قرينتها في اليد اليسرى. أقلقه الحَدَثُ. ما الذي مزَّق القماش إذا كان الجدار مجلوّاً إلى هذا الحدّ؟ أي يد سرّية قطعت الخرقة غير يد الجنّ؟ أحس في راحة يده المكشوفة بحرارة. ثم انتقلت الحرارة إلى راحة اليد اليسرى. ثم سَرَتْ في كل الجسد. حرارة مشبوهة تنفث فيه الصهد وتصهره بالحمّى. نار موقدة شبَّت في الحجر وانتقلت إليه من جسده الغدَّار. لم ينتصف النهار حتى يستمد النصب من جلّاد الصحراء هذا النصيب من شعلة جهنم. لم يحسّ بِحَرٍ يجعل الحجر ينفث الحمم المبكرة. فهل لاحقته أصابع أهل الخفاء؟ هل استبدلت الأفاعي بالنيران؟ هل قررت أن تحرقه بنار الحجر بعد أن أفلت من تخدير الأفعوان؟ ماذا يخفي الجنّ؟ ماذا يدبّر أهل الخفاء؟

انزلقت قدمه فتبعتها الأخرى. انزلق عبر الجسد الحجري المصقول مسافة قاسية. نهش الجدار لحمه، لَعَقَ دمه. وَسَمَه بالجروح. تشبَّث بكدمة بارزة وَشَرَع يلهث. ينزُّ بالعرق، يفزُّ من بدنه الدم. أدهشته وحشية الجدار. جفاء الجدار. إذا كان مجلوّاً وناعماً فكيف نهش لحمه بهذه القساوة؟ إذا كان مصقولاً فمن أين أتى بالأسنان التي مزّق بها البدن ليشرب قطرات الدم؟ لماذا يعامله الحجر العاري بهذا الحقد؟ أم أنها مكيدة من الجنّ أيضاً؟ نعم. الحجر الآن ممسوس. الحجر مسخَّر من قبل أهل

الظلمات. عليه أن يسترضي أهل الخفاء إذا أراد أن يليّن قلب الحجر. إذا أراد النزول والنجاة.

رفع رأسه. لدهشته وجد نفسه يحوم حول نفس الموقع. لم يبتعد سوى خطوات. كل هذا الجهد كفاح ضائع. كل الدم الذي نزف، والعرق المسفوح، وقطع اللحم المفقود. كله ضاع في الفراغ، ووجد نفسه يدور حول ضلفة النصب. وجد نفسه على مشارف الشق الأيسر من اللوح حيث تبدأ الفجوة التي تفصله عن قرينه الجنوبي. فهل هذه مكيدة الجن أيضاً أو أن الخدعة في انزلاقه الأفقي؟ أو أن السبب كلّه في حكمة العجائز التي تقول إن الصعود إلى القمم ليس بنفس صعوبة النزول منها؟.

احترق جسمه بالنار. نظر إلى أسفل فاحتجب الجبل بلُجَّة ضباب حامت حول العنق المحفور بالطوفان الأوّل. غلالات الضباب حامية كألسنة النار. هذه الغلالات هي التي تسعِّر النار في بدن الجدار.

زحف بحذر وعاد إلى السطح.

(٢)

سَفَح العرق. استنزف المخزون. والزمزمية ضاعت في عراك الصعود. وحتى لو لم تضع فإنها نزحت ولم يبق بها إلا قطرات في القاع. ما زال جسده يشتعل بالنار المستعارة من الحجر. فماذا دهى المعشوق الحنون، اللميس، الذي كان يفيض رقّة ولطفاً في بداية المسيرة؟ ما سرّ التحوّل في سلوك الحجر؟ تذكّر. قَدَحت الذاكرة بالسرِّ. سرّ الجفاء والصدّ. فقد دفعه الجسد الحميم في المرة الأولى بمجرّد أن استعاد تينيري في قلبه. خان العناق وعاد بالقلب إلى امتلاك الأميرة. امتلك الأنثى الأرضية فملكته وأخرجته من نفسه. دخلت في قلبه فاغترب عن نفسه، فقد نفسه فغدر بالعشق، بالعناق، بالحجر، فعاقبه الحجر بالصدّ وتخلّى عنه غيرة وانتقاماً. تخلّى عنه إلى الأبد. ولولا آمغار، لولا الجدّ المقدّس، لرقد الآن أشلاء في السفح. حجارة السماء ترفض الشرك بها وتغير من أنام الأرض. الحجر

المكابر لم يغفر له هذه الخطيئة حتى الآن. وما النار التي تسري في جسده إلّا استمرار للصدّ وبرهان على الجفاء والهجر. فهل إثْمُهُ كبير ويستحق هذا الجزاء؟ هل عشق المرأة أمر منكر إلى هذا الحدّ؟ هل تحتقر جباله المكابرة مخلوقات الحضيض إلى هذا الحد؟ هل كُتِب عليه أن يعاني الحرمان؟ هل حُرِّم عليه الاقتراب من البدن الغيور، الغضوب؟ أم أن كل ما يحدث مكائد من الجنّ؟

برغم الإنهاك قَدَح زناد الرأس مرة أخرى: مَنْ نزل إلى أسفل يصعد، ومَنْ صعد إلى فوق ينزل. أي: «مَنْ نزل إلى أسفل لم يصعد، ومَنْ صعد إلى فوق لم ينزل». هكذا تخبر وصية الأسلاف، وهكذا فسَّر الوصيّة بعكسها كما يليق بكل رموزهم وآثارهم. فَهِم الآن، وهو ملقى بعجز على شعفة الجبل الخُشام، أنه سار في الطريق الصحيح عندما قلب الوصية. الأسلاف يعرفون كل الأسرار، ولكنهم يخفونها بالغموض والإشارة. فهل اضطهده الجسم الحجري بدافع الغيرة وحدها أو أن ثمة سرًّا آخر؟ هل ورث الإمام الداهية إيماءة تفيد باستحالة النزول كما أَسرَّ له آخماد في تحذيره؟ ولكن التحذير من فم الدرويش كان أوضح. وداع الدرويش أقوى من أي دليل. في وداع موسى نعي. كيف لم يرَ في وداعه النعي؟ قال له إن في الوصول رؤية، وفي الرؤية، رؤية الدرب المظلم، علامة باللاعودة. هو راهنهم على الوصول، على الصعود، وهم راهنوه على النزول. على العودة. فخسرا، كلاهما، الرّهان. لا هو فاز. ولا أوخا فاز. لم يخسرا الرّهان وإنما خسرا، وهو أسوأ ما في الأمر، الأميرة. تدخّل القدر ورماهم بالخسارة جميعاً. هو خسر. أوخا خسر. و.. تينيري، نفسها، أيضاً، خسرت. خسرتهما كلاهما. بدأ الآن يفهم السرّ. السرّ إذا نسج خيوطه القدر فهو أكبر من أن يسعه العقل، لأنه يكفّ عن أن يكون سرّاً بشريًّا.

لم يكن أوداد المسكين يعلم أنه دخل طَرَفاً ضدّ خصم لم يحدث أبداً أن هُزِم في معركة.

(٣)

زَفَرَ القبلي. احترقت القمة بالصهد والشمس والبخار. استنزف آخر قطرة عرق فاستعار من مخزون الضب. عادت الغيمة تغمر الألواح وتلفُّ النصب الأعلى. سمعهم مرة أخرى يتحاورون بهمهمة واضحة. همهمة قريبة، واضحة، كان يستطيع أن يفكَّ مفرداتها ويتبيّن عبارات كاملة لو انتبه وأصغى في الوقت المناسب. ابتعد اللغطُ بالتدريج حتى اختفى. ويبدو أن المتحاورين جماعة عابرة، أو قافلة من قوافلهم المسافرة. لقد التقى بمسافريهم وقوافلهم كثيراً في تادرارت. بل إنهم يحتكرون كل الطرق التي تعبر الصحراء من خلال تادرارت. ويقول الرعاة إنهم يسلكون تلك الدّروب بسبب وعورتها وانقطاعها عن مسالك أهل الصحراء. لن ينسى كيف عرفهم أول مرة. كان يرافق راعياً عجوزاً لم يعرف وطناً غير كهوف تادرارت. وُلِد في الصخور الخرافية وتربّى بين وديانها وحجارتها المطبوعة بخطوط الأسلاف. تعلّق بالوطن تعلّق الأطفال بذيول أمهاتهم حتى قيل إنه يرفض الانتقال بدوابّه إلى «مساك صطفت» أو «مساك ملّت» عندما تحنّ عليهما السماء بالسيول، ويتشبّث بالرقعة الجدباء إخلاصاً لأرض الأجداد. انضمَّ لهذا الراعي ورافقه طوال السنوات الأولى ليتعلّم صعود الجبال ويجرِّب الصحراء. في ذلك اليوم أرسله إلى الوادي ليعود بالجمال من المرتع قبل حلول الظلام. ركع القرص المكسور وتلوّن الشفق بحمرة الاحتضار. نزل الوادي فوجده يعجُّ بالرجال والجمال. بعضهم يطوف حول النار ويعدُّ الطعام، وفريق يعتني بالبضائع ويزيح الأعباء عن الجمال. وبعضهم يتلهّى ويتسامر تحت أشجار الطلح، في حين التحم الفتيان وتصارعوا في العراء.

اعترضه شيخ وقور يكشف عن شفته العليا فتدلّى منها شارب ناصع، جليل. صافحه بكلتا يديه ورحب به طويلاً. دعاه إلى مجلس العقلاء تحت الطلحة. سامروه وشكوا من الجدب وتسقطوا أخبار المطر. جاءوا بالقصعة واستضافوه بطعام لم يذق ألذّ منه مدى الحياة. استمرّ السهر وروَوا قصصاً شيقة وتباروا بأشعار لم يسمع أجمل منها. طلع قمر بائس، مشطور إلى

نصفين، تعلوه هالة شاحبة من ساهور. لم يدر كيف أغفى. أفاق في قبس الفجر العذري. وجد على رأسه الراعي العجوز، يتربَّع تحت الطلحة ويصنع الشاي. تساءل عن القافلة فابتسم العجوز بغموض. انشغل بخلط الشاي ثم أخبره، بلغة خفية أيضاً، أن القافلة رحلت. تفقّد المكان فلم يرَ أثراً يدلّ على وليمة البارحة. تابعه الراعي من طرف خفي دون أن يتنازل عن ابتسامته الغامضة ثم قال بصرامة مفاجئة: «لا يجب أن تعيرهم اهتماماً كبيراً. إذا قابلوك وحيّوك فرد بتحية أحسن منها. إذا استضافوك بطعام فكُلْ بالهناء لأنهم لا يُبَارون في إعداد الطعام. إذا عشقتك امرأة من نسائهم فاعشقها، واعلم أنهن أبرع إناث الأرض في العشق. إنهم مخلوقات مثلنا، يقابلون الإحسان بالإحسان، ولا يقايضون المحبّة إلاّ بالمحبة. بل إنهم أفضل حالاً منّا، لأنهم لا يقابلون الحسنة بالإساءة أبداً». فرّك عينيه وهرش رأسه. اقترب يومها من العجوز وسأله بدهشة: «ولكن عمَّن تتحدث؟ لماذا تحدثني بهذه اللغة؟ لم أقابل جنّاً البارحة ولكني ساهرت أنبل الناس. تجار قادمون من تينبكتو، عابرون بالبضاعة إلى غدامس. أذاقوني طعاماً..». قاطعه العجوز ضاحكاً: «أعرف. أطعموك بأكل لم تذق أشهى منه. قلت لك إن طعامهم شهيّ لأن النساء اللائي لا تستطيع إناث أن تنافسهم في العشق هنّ مَنْ قام بطهيه. السحر في أنامل الأنثى العاشقة. ونساؤهم دائماً عاشقات». عاد يهرش مؤخرة رأسه ثم قال: «لا أستطيع أن أُصدّق أنهم من أهل الخفاء. ولكن.. قلت إن الطعام من إعداد الجنّيات. ولكني لم أرَ أنثى بينهم». ضحك العجوز مرة أخرى. قال: «وهل من الضروري أن تراها؟ إنهم ينكشفون لأخيار من الناس. ويسمحون بأن يخرجوا من الخفاء ويتبدّوا لمن راقهم من أهل الأرض. وإذا لم تكشف النساء عن أنفسهن فهذا ليس دليلاً على غيابهن».

سكت زمناً ثم أكمل بيقين: «نساؤهم لا يفارقنهم أبداً. وأنا أجد لهم العذر. لا يجب على الرجل أن يفارق نساء كنسائهم». شاء أن يداعبه فاستفزّه بسؤال: «هل هنّ مثاليات إلى هذا الحدّ؟ هل جرَّبت الجنّيات؟». رفع إليه نظرة حزينة. ثم حاصر وجهه بلثامه وأخفى عينيه. راقب القمم

الخفية وسكت. تجنّب، بعدها، أن يتحدّث عن الجنيّات. تجنّب التحدُّث عن العشق نفسه. ولكن الرعاة الخبثاء حدَّثوه عن ماضيه العاطفي. قالوا إنه وقع في غرام حسناء جنيّة في شبابه. وروى آخرون أنه تزوجها وأنجب منها خُسّاً(*) مارداً أخذته معها الجنيّة إلى الخفاء عندما افترقا. ولا أحد يعرف سبب الفراق، ولكن كل الرعاة يعرفون أن العجوز ظلّ أعزباً وعاف نساء الأرض وعاش وحيداً، معتزلاً.

بعد تلك الحفاوة آنس أهل الخفاء والتقاهم، بعدها، كثيراً، في أوقات مختلفة وأمكنة عديدة. ولكن الطعام الشهيّ الذي جرّبه في تلك الوليمة لم يذقه إلى اليوم.

(٤)

قام بثلاث محاولات أخرى.

تأكّد، مع كل محاولة، أن صعوده كان معجزة، ونزوله يحتاج إلى معجزة ثانية. حدّد الآن المكان الذي شهد الإعجاز. في جبين اللّوح، عندما خان العهد وعاد بقلبه إلى السهل، حدث الصدُّ فهوى. ولكن تدخل الجدّ الحكيم لم يعده إلى الجبين فقط ولكنه قطع به البرزخ وصعّده إلى الشعفة، إلى القمة، إلى السماء. الإعجاز في تدخل الحيوان القديم. وهو، الآن، لن يتجاسر على المراهنة على تدخله من جديد. الوصية تقول إن السّلف لا يتدخل في تقويم النّجل إلاّ مرة واحدة. عليه الآن أن يشمِّر عن ساعديه ويتولّى الأمر بنفسه. عليه أن يعارك القدر وحيداً، عارياً، أعزلَ. قرر أن يغنّي. الغناء يقهر العطش والصهد و. . القدر. الغناء تعويذة العشاق. سلاح العشّاق. وقف وراقب الشمس الهاربة. أحاط صدره بيديه وسحب الهواء المصهور. أغمض عينيه وصاح بالموال الشجني. موال «أساهغ». ولدهشته سمع صوتاً آخر غير صوته، نغماً آخر، لحناً آخر.

(*) الخُسّ: مخلوق بين الإنس والجن (أبو منصور الثعالبي «فقه اللّغة»).

خرج الموّال مرتبكاً، ركيكاً، مزيفاً. ردّد الجبل صداه كأنه يمعن في تعذيبه. أعاد النشاز إلى أذنيه حتى يتيقن أن القدر ينوي أن يجرِّده حتى من سلاح العشاق، من آخر سلاح. بعد الصدى سمع ضحكة شامتة، مكتومة، ثم سمع بوضوح كيف أفلتت الضحكة وتحولت إلى قهقهة حاقدة. هل يسخر منه الجنّ؟ هل يهزأ به القدر؟ أين طائر الفردوس؟ هل فرّ طائر الفردوس والغناء من صدره؟ تذكّر تحذير آخماد. الطائر لن يجتمع مع الأميرة في قلب واحد. الطائر الخفي الذي أسر قلب الأميرة تحرر وطار بمجرّد أن دخلت تينيري واحتلت القلب. الطائر لا يشرك بالقلب أحداً. ما أن تلج الأنثى قلب الرجل حتى يفرّ ويخرج منه. من ملكته امرأة لا مكان فيه لعندليب الفراديس. الاختيار قائم منذ الأزل: إذا سلّم الرجل قلبه للمعشوقة فقد عصفور النعيم، عصفور الحرية. ولكنه وجد نفسه يفقد كل العصافير دون أن يكسب شيئاً بالمقابل. وهل يكسب شيئاً من خسر نفسه؟

خصمه يأبى إلّا أن يأخذ كل شيء. يأخذ منه حتى نفسه. ولكن لماذا نزل عليه القصاص؟ متى ارتكب الخطيئة حتى يدفع هذا الثمن؟ متى تورط في اللعبة ليجد نفسه طرفاً في الخصام؟ يستطيع الآن أن يستعيد أين زلّ، ويستطيع أن يحدّد متى وكيف حدث ذلك. عاش متنقلاً بين القمم. ينزل من جبل ويتعلق بجيد جبل آخر. ينام في الكهوف ويستكشف وصايا الأسلاف في جدران الصّلد. يقرأ الحكمة ويحاول أن يفكّ رموزهم الخفيّة. رضع من ضرع أنثى الودّان وتآخى مع سلالتها إلى الأبد. صادق الطيور المقيمة وتعلّم منها اللحن والغناء. وعندما استعانت أمّه بالسّحرة لتعيده إلى حياة السّهل لم تجد سوى المرأة لتتخذها مسداً تشدّه به. زوّجته تافاوت لتلوي حول عنقه الوهق. وقامت تافاوت بالواجب فأنجبت له دمية تسليه في وحدته وتنسيه عشق الجبال. اكتشف أن الوهق يزداد ضراوة وخشونة وشراهة كل يوم. امتدّ وتقسّى وانسبك في سلسلة طولها سبعون ذراعاً. السلسلة الوحشية التي يبشّر بها الفقهاء الخطاة يوم القيامة. اختنق وعذّبه الحنين إلى الجنّة في تادرارت. تخلّص من الوهق ورفض الدمية

و. . هرب. عاد إلى فردوسه فأحس بنفسه طائراً من جديد، عشبة تتشبث بالسفح، نسمة ريح نديّة، شعاعاً ضوئيّاً في الفجر العذري، بذرة طليقة تتسقّط أرض المطر، ودانياً يخبر الشقوق ويقهر قمم المستحيل. كسب المجازفة واستعاد نفسه ولم يخسر، بالخروج، سوى وهق العبيد وسلسلة الخطاة. رقد على التراب اللميس فداعبته النسمة الشمالية الندية. حدّثته رؤوس الجبال بسيرة الأسلاف ورقصت في وجهه عناقيد النجوم. طوقته قطعان الودّان ورأى في عيونها الغامضة الفرح. اخترقه الشعاع البكر وسكن في قلبه.

أمّا العندليب فلم يكف عن الغناء طوال الوقت. قرر أن يحتفي باللقاء أيضاً فرفع صوته البهيج وردّد معه أغاني الشوق والحنين.

غفرت له الصحراء الزّلّة الأولى وقبلت توبته. ولكن الأمر اختلف في الزّلّة الثانية. اعتبرت المكابرة هبوطه تحدياً وكفراً. عاد من الطريق نفسه ورهن قلبه ورقبته في يد امرأة. وهبها نفسه بالعشق فخان العهد وطعن تادرارت مرة أخرى. تنازل في المرة الأولى ووضع القيد دون أن يفقد قلبه. دون أن يرهن نفسه. سلّم نفسه للوهق ولكن قلبه ظلّ طليقاً مملوكاً للصحراء وحدها. ولكن العشق هو الذي حوّل المغامرة، في المرة الثانية، إلى كفر. حلّ الشيطان القديم في جسد الأنثى لتجبره، كما أجبرت جدّه، أن يقتحم الحرم ويأكل الحرام لينال المنفى والعقاب. هو أيضاً أخذه العشق فتنازل عن نفسه لامرأة. استبدل الصحراء بتينيري فتخلّت عنه المكابرة وتركته للقدر الجبّار.

باع الرمز السماوي وعبد الصّنم الأرضي. الصحراء لا تغفر عشق الأصنام، عشق المخلوقات الأرضية. عرف الآن مكمن السرّ. عرف أن السرّ في العشق. الخطر في العشق. اللعنة في العشق. الخطيئة في العشق. القصاص في العشق. الفناء في العشق.

(٥)

حلّ ظلام آخر. حلكة أخرى عرفها كثيراً. عرفها كل من اجتاز

الصحراء: غمام الظمأ عندما يبلغ حدّه. يتراخى البدن. يتقلص القلب، يجف، يتحجّر، ويسحب الدم والحياة من العروق. يضعف البصر وينزل أمام المقلتين ستار الظلمات. بعدها تترآى الرؤى وتطلع الأشباح.

انهار عند الفوهة. تابع الأشباح. استوى الليل والنهار. بدأ الستار يعقد مصالحة بين الظلمة والضوء. الرحلة تبدأ دائماً بهذه الصفقة. يتبخّر الماء، تقبل الظلمة. تحوّل النهار ليلاً. تظهر الأشباح. تجرّه عبر الليل. عبر الظلمات، في رحلة الظلمات. يمشي وراءها في النفق الطويل حتى يحلّ النسيان ويستوي كل شيء بالـلاشيء. النسيان يسهّل الانتقال بالأشياء إلى اللاشيء. إذا نسى الظمآن نفسه وكفّ أن يعرف من هو سهل عليه أن يجازف بالقفز في البئر، لأن النسيان، الغياب، يمسح الخوف من الهاوية ويسوّي الحياة بالفناء. أجمع أولئك الذين قفزوا في الآبار وانقذوا أنهم فعلوا ذلك بعد أن غابوا عن الوجود بزمن طويل. ولم يحدث لأحد أن تذكّر شيئاً عند السقوط في القاع. كما أجمعوا أنهم فازوا بالصفاء والوجد بمجرد أن فقدوا الإحساس بالبدن وعبروا برزخ الألم. حدّثه أحد أتباع الطريقة القادرية في «سردلس» أن الدراويش يريدون الوصول إلى هذه الحال عندما يستلّون السكاكين ويبدأون في طعن صدورهم. قال أيضاً أن ليس في الوجود أقسى من الحجاب أو وزر البدن. يومها لم يخبر جليسه عن سرّ الصحراويين. لم يقل له إن الرعاة يصلون إلى الحال عن طريق أقصل وأسهل وهو: الظمأ. ولو عرف دراويش القادرية السرّ لما احتاجوا أن يمزقوا صدورهم بالسكاكين. حسبهم أن يخرجوا إلى الفلاة بدون ماء.

أخبره أحد الرعاة الذين انقذوا وأعيد من الفناء أنه أحسّ، عندما عبر البرزخ، بحالة من الشفافية والانتشاء تعجز اللغة عن وصفها. أحسّ أنه قبضة ضوء. نسمة ريح، ملاك بلا وزن أو بدن. ثم تحسّر وفاض به الشقاء. بكى وناح ومزّق اللباس على صدره وردد: «ليتني بقيت هناك إلى الأبد. ليتهم تركوني في حالي». ترنّح وتمرّغ في التراب كالمجذوب، واستمر على هذه الحال حتى غلبه التعب فنام. وعندما صحا كان القمر قد

بدأ مسيرته. في آخر الليل أذاع له سرّاً آخر. قال إنه لم يحس بيأس ولم يجرّب شقاء كما أحس وجرّب في تلك اللحظة التي فتح فيها عينيه وعرف (هكذا قال: «وعرف») أنه بعث من جديد في نفسه، في بدنه، في ذاكرته. وعرف أن لا وجود لخلود إلاّ في المحو. لا انتقال، ولا كمال، إلاّ في تبديل الجلد على طريقة الحيّة التي خدعت الجدّ الأول وسرقت خلوده. لقد استعارت الطريقة واستأثرت بها لنفسها. بعدها سهرا الليل يتحدثان عن تبديل الجلود. تولّى هو الزمام وروى عدد المرّات التي شاهد فيها أفاعي تُبدّل جلدها وتبعث نفسها في ثوب جديد، في بدن جديد، في شباب جديد، في حياة جديدة.

عليه الآن أن يصمد ويصبر وينتظر. عليه أن ينتظر بلوغ حال المحو. في المحو نسيان يسوّي بين السهل والجبل، السماء والأرض، القمة والحضيض، الضياء والظلمات، الحياة والفناء. لن ينعم بالخلاص إلاّ في حلول المحو.

استلقى على قفاه. فتح عينيه. شخص بحدقتيه. انقشع الظلام. تبدّى الستار المعتم عن فجوات بلون عهن ورديّ. هامت النّتف أمام وجهه بكسل واسترخاء. تغمرها الظلمة فتشتت شملها وتمزقها إلى مزق أصغر. ولكن النتف المعاندة تعود وتتجمع في قطع أكبر وتحوم في الفضاء، فوق فوهة المجهول. في الثغرات أطلّ رأس أشعث، بعيني دعجاوين (أم عسليتين؟) ولحية مخروطة. اقترب منه فأبصر القرنين الجليلين المعقوفين إلى الوراء. أسبل جفنيه ثم عاد ففتحهما. ظلّ الرأس المهيب ينحني فوق رأسه، يحدّق فيه بعينيه الإنسانيتين، الغامضتين. استجمع أوداد قواه وحرّك شفتيه وتمتم بصوت لم يعرف هو نفسه عمّا إذا كان مسموعاً أم أن قلبه هو الذي نطق:

ـ آمغار؟ جئت لتأخذني؟ هل آن الأوان يا آمغار؟ إلى أين تريدنا أن نذهب؟

(٦)

قيل إن الودّان الذي تعود أهل السهل أن يصفوه «بالمسكون»، حام حول

المضارب وتسكّع أياماً قبل أن يخرج له الدرويش. قابله عند الرابية المطلّة على موقع بيت الزعيم عند الغسق، ورافقه عبر الحضيض، وشاهدهما النّاس وهما يتوجهان شرقاً نحو العراء السّمح المؤدي إلى القمم البعيدة. قال آخرون إنهم سمعوا الدرويش ينادي الحيوان المسكون بـ «أوداد»، فردّ الفريق الذي يروق له أن ينفي ويشكك في كل شيء: «وماذا في ذلك؟ وهل تريدون الدرويش أن يخاطب صديقه الودّان بكلمة أخرى غير أوداد؟»(*). فعاد الأولون، الذين يتشوقون لأخبار أهل الخفاء ويتابعون تحوّلات الجن، يتساءلون: «إذا كان الدرويش يرافق ودّاناً حقيقياً فلماذا ضاحكه وداعبه وخاطبه؟ سمعناهما يتضاحكان ويتخاطبان ويتبادلان الدعابات. سمعنا المخلوق المتخفي في الودّان يتكلّم بلغة المرحوم أوداد وصوته ولكنته». رفض فريق الشك والنفي التسليم وبادر إلى الحجة: «يستطيع الودّان المسكون بالجن أن يتحدث بألف لغة وبألف لكنة. لن يكون الجن جنّاً إذا عجز عن هذه الحيلة الصغيرة. أمّا مخاطباته ومداعباته للدرويش فلا غرابة. لن يكون الدرويش درويشاً إذا لم يخاطب الجن. لقد سمعنا موسى يخاطب أشجار الطلح ويتسامر مع رميم القبور فهل يعجز عن مخاطبة أهل الخفاء الذين يتسامرون حتى مع الرعاة؟».

ولكن غياب الدرويش عن النجع استمرّ. مضت أيام، ثم أسابيع. بحث عنه الناس في وادي الطلح والصحاري المجاورة ولكن لا أثر. بعد أيام عاد به الرعاة من صحراء تادرارت. قالوا إنهم وجدوه نائماً في أحد الكهوف المعلّقة.

استجوبوا الدرويش ولكنه رفض أن يعلّق على رحلته الغامضة. تعقبته الثكلى حتى اختلت به في العراء. اعترضته وبدأت الاستجواب:

ـ كفّ عن التهرّب وأجبني على سؤال: ماذا أخبرك الودّان؟

ـ الودّان؟

ـ نعم. الودّان. أوداد. هل تظنني لا أعرف السرّ؟ هل نسيت أنني أمّه؟

(*) أوداد: الودّان (تماهق).

حاول الدرويش أن يهرب ببصره فأشاح بوجهه نحو الأفق. راقب قرص الشمس يستحم في نار الغسق فلاحقته العجوز واعترضت نظرته. غمغم بضيق:

ـ وهل يستطيع الودّان المسكين أن يقول شيئاً؟

اقتربت منه خطوة أخرى. حدّقت في عينيه بنظرة غريبة. خيّل له أنها ترتجف. حشرجت بوعيد مخنوق:

ـ أنا أعرف السرّ. أنا أمّ.

ارتبك. تردّد. فهددت:

ـ لا تكذب!

في النهاية وجد نفسه يعترف:

ـ مَنْ فتح عينيه على فم الظلمات نال عقاب الرؤية. مَنْ رأى أُصيب بالعماء والبكم.

حاول أن ينصرف فاعترضته من جديد:

ـ هذا اعتراف لن يشفي غليلي. لن أدعك قبل أن تخبرني ماذا أخبرك.

ـ من رأى لن يخبر بشيء أبداً. من رأى فقد اللسان.

ـ هل بدأت تخاطبني بلغة الدراويش؟

وقف موسى حائراً، عاجزاً، متردداً. لم يجد لغة أخرى غير لغة الدراويش تصلح للحديث عن السرّ، المحو، الحلول.

١٠ ـ المرثيّات

«أهل السرّ: أهل الحب، أهل الحب: أهل الخطر»

م.ع. النّفري

أ ـ مرثيّة أهل السّرّ

شَقَت في الطلب كما شَقَت في الفقد. بل إنها لم تتنبّأ، عندما تضرّعت للسماء والأرض، للحجارة والصّور طلباً له، ان الاستجابة سيعقبها شقاء يفوق الطلب. سيعقبها الفقد. لأنها لم تكن تعلم أن عطاء القدر رهن للقدر. هبة القدر تخصّ القدر. نَذْر القدر سيأخذه القدر. وكأي أنثى راعها أنـها لم تُرْزَق بالذريّة، خاصة بعد أن مضى على الاقتران عام دون أن تحبل. اصطادت السَحَرة المرافقين للقوافل، اشترت منهم تمائم المجوس، علّقت في رقبتها أحجبة الفقهاء العابرين وقايضت تعاويذهم القرآنية بالذّواب، ولكن الطلب لم يتحقق. استجابت لوصايا العرافات وتعاطت المراهم وأدوية العطارين ولم تأت البشارة. يئست. ناحت. لبّت نداء الأسلاف ونامت فوق القبور.

إدبني(*) هو الذي أشار عليها بالالتجاء إلى الودّان المقدس في صخرة «متخندوش».

لم يحرقها أن تعاند الصحراء بدون ولد. ولم يعذّبها عبوس رجلها ونظرته اليائسة لها كامرأة عاقر، ولكن لأنها كفّت أن ترى في نفسها الأنوثة. كفّت أن تحسّ بأنها امرأة. وليس ثمة مخلوق في الصحراء أشقى من امرأة لا تحس

(*) إدبني: قبور الصحراء الكبرى ذات الشكل الهندسي البيضوي، أو المستدير.

بأنها امرأة. والمرأة لا تكون امرأة إلاَّ إذا كانت منجابةً نثورة. بل لا يكفي أن تكون منجابة ونثورة، وإنما لا بدَّ أن تنذر على رجلها الذكور. وعندما ذهبت إلى الودَّان الجليل المعلق في الصخرة توسَّلت أن يهبها ذكراً. الـذكور وحـدهم برهان الأنوثة في الصحراء. بعد مشورة إدبني اختلقت حيلة. قالت للزوج أنها عاهدت وليًّا في وادي متخندوش وتريد أن تفي بالوعد. نزل بها في رأس الوادي. في الصباح خرج وراء الإبل فخرجت إلى الصخرة. ناحت عند حافر الودَّان وتوسَّلت أنْ يرحمها ببذرة البقاء، ويهبها الذرية، أنْ يلين ويعطيها الولد البكر.

نَذَرت له ناقة.

انتظرت أسابيع. لم يتغيَّر شيء. عادت إلى الصخرة وركعت للودّان. نذرت له ناقة أخرى. استمر الحال حتى وجدت نفسها قد نذرت له سبع نوق. في ليلة ظلماء زارها رسول الأسلاف الذي رأتـه عندما توسَّدت القبر القديم. قال إن الودّان لا يريد النوق ولكنه سيهب الولد إذا نذرته له. قامت مفزوعة، وناحت حتى الصباح. مضت أيام من النواح. تتمايل مع الشكوة، متظاهرة بمخض الحليب، في حين تسكب دموع الفجيعة في صمت. ثم.. ثم زارها الودَّان العظيم بنفسه. لن تنسى هيئته وهيبته ونظرته المخيفة. كما لن تنسى ما نطق به. قال: «لا وجود إلاَّ في الجود، والعطاء سرّ الحياة. لا يفقد إلاَّ مَنْ بخل بالعطية». بكت وتوسّلت: «ولكن ما حاجتي لأخذه إذا كنت سأعطيه؟».

قال: «ما يؤخذ بيد يُعطى باليد الأخرى. كل ما أخذ نَذْر مملوك لمَنْ أعطى». قالت: «ولكنه ولد. قطعة من الجسد». رفع صوته: «ما الولد إلاَّ دمية. الدمية أجدر بالعطاء». بكت: «لا حياة لأنثى بدون ذرية. لا حياة لامرأة بدون ولد». عاد إلى القساوة: «هذا لن ينفي أنه دمية. والمرأة السعيدة هي التي تجود بالدمية إرضاء للآلهة». ولولت. استيقظ الرجل. اختفى الودَّان.

رحلوا عن متخندوش.

أقاموا في تادرارت شهوراً أخرى. فكّرت بالنهار وسهرت الليل. قالت لنفسها أنه سيذهب في كلا الحالين. إذا لم تأخذه الآلهة التي أعطته فسيأخذه التراب. وأن يكون وقفاً على الودّان أهون من أن يأكله الرّغام. ذهبت إلى إدبني وأخبرت رسول الأسلاف أنها قبلت العرض.

حبلت بعد أسابيع.

تعذّبت في الحمل والإنجاب ولكن زينة الحياة الدنيا عوّضتها الألم وأنستها النبوءة. ابتهجت به وبعث فيها روح النثور واعتزاز المرأة المنجاب. أعادت لها الدمية ثقتها بنفسها فاسترخت وغفلت عن الوعد. سمّـته «أوداد» تيمناً بالودّان العظيم ولكن سعادتها به محت في ذاكرتها الرمز الذي شاءت أن توسمه باسمه إرضاء للودّان واستعطافاً له. نسيت النذر ولكن الودّان لم ينس. ترعرع وركض وراء الجديان في المرعى فعاد من هناك بالإشارة التي ذكّرتها بالوعد الجليل. اصطاد بُهْمَة ودّان صغيرة وعاد بها إلى البيت عازماً أن يربيها. وما أن رأتِ البُهْمَة حتى نزل في قلبها الوحي. تشاءمت وبكت سرّاً. ترعرت البُهْمَة بين يديه وربطتهما صداقة حميمة. وبعد شهور، في صباح شتوي بليل، فرّت البُهْمَة. هربت إلى الجبال وانضمت إلى قطعان الودّان. بكاها أوداد أياماً. صام عن الطعام والشراب وراقب القمم ساهماً. طالت به الكآبة فخامرها شعور غامض. رأت في هرب البُهْمَة إشارة من الودان الأب. الـودّان الأب أراد أن ينبئها بقـرب الميعاد. فهـل ينوي أن يستـردّ «حاجتـه» بهـذه العجلة؟ هل في هـذا إيماءة بنهـاية السعـادة؟ هـل ستفـرُّ الـدميـة من يديها؟

لم يطل الانتظار. بدأ أوداد يغيب في المراعي. وعندما تقصّت، مع الزوج، ضياعه المشبوه اكتشفا أن الولد يترك الجديان في السهول ويتسلق الجبال بحثاً عن البُهْمَة الضائعة. لم تستطع أن تثنيه عن صعود الجبال، كما فشلت في إقناعه بعبث البحث عن البُهْمَة لأنها التحقت بالقطيع وكبرت وأصبحت ودّاناً يصعب التعرّف عليه. ولكن المنع زاده عناداً وضاعف لهفته في استعادة البُهْمَة. احترف تسلق الجبال واستمرأ حياة الكهوف. فشلت تمائم السحرة وتعاويذ الفقهاء في إنزاله من القمم وإعادته إلى السهل. مرّت

أعوام قبل أن توحي لها غريزة الأنثى أن المرأةٍ هي المخلوق الوحيد، هي التميمة السحرية الوحيدة، التي تستطيع أن تركِّع الرجل وتنزله من السماء السابعة. دبَّرت له الوهق وربطته بالفاتنة «تافاوت». ولكنه تمرّد على الوهق بعد زمن قصير فأيقنت أنها تتحدّى الودّان القديم. تتحدّى مَنْ وهب. تتحدّى الآلهة. أقنعت نفسها أن التراجع عن الإستئثار وقبول الأمر الواقع أهون من الفقد. أهون من استفزاز الودَّان ـ الأب ودفعه للغضب. رأت في قبول الأمر الواقع إيفاء بالعهد.

هذا عن السرّ الأول.

أما السرّ الثاني فكان خبيئاً، منذ الأزل، في مربع الصِلِدِم المرفوع على رأس الجبل المستحيل. سلّمت بالجبال قدراً له ولكنها فزعت عندما وصلها خبر الرّهان. أدركت أن الرهان ما هو إلاّ إشارة تنبىء عن حلول أوان الفراق. لأن الضبُّ، جدّ الأتباع، زحف إلى الجبل واحتكم للودّان في مأساته.

حدَّثه كيف أثار غضب السماء عندما استحمَّ في الغدير ونجَّس الماء ليجد نفسه ممسوخاً يزحف على أربع وطلب من الودّان أن ينتقم له من أهل الصحراء الذين وشوا به وتسببوا في تحوّله في الضّب البائس. انتصر الودّان العظيم لمحنته ووعده أن ينتقم له من الصحراويين الأشقياء. منذ ذلك اليوم بدأ حملته، وأصبح يصعد بالناس إلى القمة المستحيلة ويرميهم، بالتعاون مع الجن، في فوَّهة الظلمات. منذ ذلك اليوم ذهب إلى الأبد كل مَنْ وصل إلى الرأس ووقف على رأس النَصْب وشاهد الفوَّهة. أمَّا الضَبُّ اللئيم فنال الصِّبا إلى الأبد. لأن الودّان عوَّضه خسارته وخلع عليه لباساً يستطيع أن يغيرّه كلما شعر بالشيخوخة فيستعيد شبابه.

وها هو الودّان يستدرج أوداد إلى هوَّة الظلمات ليأخذه إلىِ الأبد. إذا تسلق الألواح وجلس على النَصْب فلن ينزل مرة أخرى. الآن أَحسَّت أنها اخطأت لأنها لم تعترف للولد بالحقيقة. لم تخبره بدم الودّان الذي يجري في عروقه. لم تبح له بالسرّ الفاجع. بأُبوَّة الحيوان المطبوع على صخرة

متخندوش. الآن ستدفع الثمن وحدها. ستحزن وحدها. ولكن.. ولكن هل يمكن أن يغيّر الاعتراف من الأمر شيئاً؟ هل تستطيع أن تتقي مصيراً كتبه عليه القدر قبل أن يولد؟ هل تستطيع أن تحتفظ بالدمية رغماً عن الوهّاب الذي أعطاها؟

لو حاولت لكان ذلك تحدّياً للأسلاف والودّان و.. النبوءة.

ب - مرثية أهل الحبّ

كل الأنام تتباكى. كل الخلق يتساءل: لماذا لا يعودون؟ لماذا يستمرئون الظلمات ويختفون إلى الأبد؟ هل السبب في بشاعة دنيانا؟ أو في بهاء الخفاء وسكون الظلمة؟ وهل يمكن أن يكون الخفاء بهيّاً؟ هل يمكن الاستئناس بوحشة الظلمة؟ وهل وجه الباديات قبيح إلى هذا الحدّ؟ هل الصحراء قاسية وبائسة حتى يقدر المسافرون أن يهجروها إلى الأبد؟ وهل العويل تعبير عن الحسرة على المسافر الفقيد أم عجز عن فهم اللغز وفشل في إدراك حقيقة المصير؟

هذا حال الخلق. هذا لسان الأنام.

ولكنه إستطاع أن يقف على السرّ. ولم يتوقف عن استنكار الاحتجاب إلاّ عندما عرف السرّ. الخلاص القاسي من قبو الوعاء، المعاناة الوحشية لحظة الخروج من القفص. إنعتاق العصفور الخفي والتحاقه بالأصل الوضّاء، بالفيض السماوي. في اللحظة العسيرة تتحقق الرؤية ويتم الميلاد. الميلاد لا يتم إلاّ بعبور صراط الرؤية. ولكن العصفور لا يفوز دوماً بدخول بوابة الفردوس إلاّ بعد قَطْع طريق طويل من التقلب والانتقال والتحوّل. الحظوة بالنعيم عبر جحيم البعث. أوداد قَطَعَ الشوط الأوّل ودخل في الودّان. عندما اعترضه عند حضيض الجبل سأله عن التقلُّب: «قل لي: هل تألمت كثيراً؟ هل كان البعث قاسياً؟ هل أوجعك الحلول؟ حدثني: كيف تجد نفسك الآن؟ أليس وعاء الودّان أرحم من هيكل الإنس؟ أليس مأوى الحيوان أنعم من مثوى البشر؟ ولكن.. ولكن لماذا أُلقي في وجهك بالاستفسارات

البلهاء؟ أنت ودّان منذ البدء. أنت ودّان منذ الأزل. كنت ودّاناً طوال الوقت. ها. هل تظنني أجهل السرّ؟».

رافقه في رحلة الصحراء. في الطريق استجوبه مرة أخرى: «الأجدر أن تحدِّثني عن نَفَق الظلمات. كيف هي الفوَّهة؟ هل هي مخيفة؟ قلْ لي: لماذا يؤثِر المسافرون أن يبقوا هناك إلى الأبد؟ لماذا تنقطع أخبارهم؟ لماذا يخفون عنّا حال الغيب؟ لماذا يحرموننا أن نعرف المصير؟ لماذا يحرموننا أن نعرف ويزيدون الطُلَّسم غموضاً بغيابهم المبهم؟ لماذا يضاعفون شقاءنا؟ لماذا؟ لماذا؟». إكتأب الودّان العظيم. تباطأ في خطوه. حجب الحزنُ ألَقَ مقلتيه العسليتين. طفرت دمعة صغيرة من عينه اليمنى. تعلَّقت بأهدابه الطويلة ومضت في قرن الشمس كقطرة ندى. لم يحلظ رفيقه كيف شهق كالمتبول.

عاد الدرويش إلى الاستنطاق: «ولكن لا تقلقْ. أعرف أن البكم قصاص الرؤية. أعرف أن العجز عن النطق جزاء مَنْ فاز بالرؤية. أعرف أنك لن تنطق ما حييت. لا تخفْ. هذا ثمن يدفعه كل مَنْ يشرف على الغيب. المحو قدر المخلوقات. محو الذاكرة وقطع اللسان. هذه حيلة لقطع الطريق على ثرثرات الخلق. لولا هذه الحيلة لبَطُل العجب وكفَّ المجهول عن أن يكون مجهولاً. لولا المحو، لولا البكم، لا نكشف سرّ الصحراء. وإذا عُرف السرّ انقلب الكوكب وتبدَّى الباطن واختلَّ الميزان وانتهت السكينة. وحتى لا تحلَّ الفوضى وتطير الصحراء بجناحين وتنزل السماء إلى الأرض اصبر على العقاب. اصبر على البكم، وعلى المحو. هل تعدني أن تصبر على الجزاء؟».

ارتفع قرن الشمس.

أسرعا. هرولا. تبدَّت القمم المكابرة برؤوسها الرمادية وجلالها الأبدي. صاح الدرويش دون أن يتوقف عن الركض: «في قلبي سرّ عن صراط البعث. لن أبوح لك به حتى لا يفسد. أنت لا تعلم كَمْ يفسد اللسان الكريه الأشياء عندما ينطق بها. أنت لا تعلم شيئاً عن ابتذال النطق، عن قدرة الصوت، الحرف، في انتهاك الحرمات، في فض بكارة الحرمات. النطق

مجرم يخرّب ويدنّس ويفترع. النطق رجس من عمل الشيطان. أنت أسعد مخلوقٍ ما ظللت عاجزاً عن النطق. الصمت حرمك والنطق كفرك. أنت الآن ملاك وأنا شيطان رجيم. أحسدك برغم أني أحاول أن أقاوم الرِجْس وأسكت. وعندما أعجز عن السكوت أذهبُ إلى الجبل أو الطَلْح وأُحدِّثه بالأمر. ولكن الريح تأتي فتستنطق الطَلْح وتستجوب الجبل. تنزع منهما السرّ وتأخذه إلى كل مكان. كنْ سعيداً في حرمك حتى يحنَّ الله ويخصَّني بما خصَّك به. ساعتها ستعرف أمري بدون نطق، دون أن أضطر لتخريبه بالرِجْس».

أضاءت مقلتا الودّان ببهجة فعرف الدرويش أن في قلب الرفيق نزلت سعادة.

جـ - مرثيّة أهل الخطر

أَخَذَها بالطائر. أخذها بالغناء. لولا تعلُّق أهل الصحراء بالشعر والطرب لما امتلك السلطان على قلبها. ضعف الصحراويات أمام الغناء، عشق الصحراويات لهذا الحرم هو الذي مكَّنه منها، من قلبها، من خطف العصفور المحبوس في صدرها. هذا العشقَ المجهول، المشبوب، المجنون، الذي لم يهدىء من جذوته حتى أصلها الحبشي، بل ضاعف، ربما، من أجيجه وجنونه. فورة الدَم الحبشي زادت تعلقها بالشعر و. . بالعشق أيضاً. الحياء يكبح جموحَ العصفور الدفين في صدر الصحراوية الأصيلة، ولكن الدَم الحبشي الذي يجري في عروقها هو الذي صنع منها هذا الهجين الجسور الذي أصبح أمراً يتحدث به لسان الصحراء الوسطى، هو أصل الاندفاع العاطفي الذي جعلها تنزل من سماوات الإمارة والسلطان لتعشق راعياً ضائعاً من الأتباع يسكن الكهوف ورؤوس الجبال. شيوخ «واو» أرجعوا المجازفة إلى غرابة أطوارها، ووجهاء القبيلة، الذين لم يستطيعوا أن يتحرروا من عدائهم القديم لزنوج الأدغال، علَّقوا السبب في رقبة الجنون وخفَّة العقل التي يتميّز بها العبيد. وصلها أنهم استنكروا تعلقها بأوداد ورأوا في ذلك تنازلاً عن أوخا وإهانة لكل النبلاء فقالوا: «ولكن ماذا يمكن أن يُرْجى من امرأة

مشبوهة تجري الدماء الزنجية في عروقها؟ العرق دسّاس حقّاً!». ذهبوا إلى السلطان وحاولوا أن يؤلِّبوه ضدّها، ولكنه صَدُّهم. بَلَغها أنه قال لهم أنه لا يستطيع أن يَحْمِلها على ما لا تريد تنفيذاً لوعد تقيَّد به أمام السلطان أورغ قبيل الانطلاق، ولن يحنث به حتى لا يرضي الأحياء على حساب الأموات. حدَّثها بعضُ الخدم كيف أمر بنحر الذبائح وإعداد الوليمة لوفد الوجهاء حتى يغريهم بالإستماع. إتكأ على الجدار وسهر الليل كله وهو يروي لهم أحكاماً قال إنها مستعارة من آنهي، وقصصاً شيقة أخرى عن سلطة المرأة الآيرية وجاهها القديم حتى انتهى إلى تقديس رجالهم لهذا المخلوق الغامض ووضعها في مستوى الآلهة. ذكَّرهم أيضاً أنه استمدَّ هذه الأحكام من تراث الأسلاف الذي نسيه أهل آزجر بسبب إنشغالهم بمحاربة بني آوى وشنِّ الغارات على سكان الأدغال. أخبرتها جارية نبيهة أنه قال بالحرف: «هل يعلم الوجهاء الأفاضل لماذا يرونني بدون زوجة؟ هل يدري النبلاء لماذا لَمْ أركن إلى أعتاب هذا المخلوق المقدَّس؟ لأني أعرف سرّاً لا يعرفه كل البلهاء الذين يجازفون بالإقدام على هذه الخطوة. أعرف أن الواجب يقضي على الرجل الذي قرر أن يربط مصيره بإمرأة أَنْ يهبها نفسه كلها، أَنْ يسخر لها وجوده، أَنْ يركع لها، أَنْ يعبدها، أَنْ يحوم حولها كما تحوم الفراشة حول النَّار. لأن المخلوقة، الإلهة، ستعاقبه بأشرِّ جزاء إذا لم يفعل ذلك. ستقلب نعيمه وتحرقه بالنَّار. سيشقى، ولن يجد للحياة طعماً ولا معنى. ولمَّا كنت لا أرى في نفسي الكفاءة في تسليم نفسي لها فقد آثرت أن أبتعد وأحترف التجارة. التجارة لعبة أهون خطورة من المرأة. تستطيع أن تخسر صفقة في التجارة، صفقات ولكنك تستطيع أن تستعيد الخسارة وتربح مرات. أمَّا مع المرأة فإن الخسارة تحدث مرة واحدة. صدِّقوني إنها مرة واحدة وأخيرة». ضحكت يومها على فَرَاسته، وأعجبها رأيه في المخلوق الغامض، كما يروق له أن يسميها، وعرفت لماذا يتحاشى أن يفصح عن آرائه بحضورها. عرفت أن التزامه بدستور الحياء العائلي ليس السبب الوحيد في تجنّبه لآرائه في الحياة والمرأة والتجارة. السلطان يخفي سرّاً أكبر، تجربة أكبر تجهلها كما تجهل أشياء كثيرة أخرى عن حياته.

صدُّهُ الحكيم لشكوى الوجهاء كان تصريحاً رسمياً لها بحرية الاختيار. الاختيار الذي كبَّلها بأصفاد من نوع آخر. قيَّدها بأوزار جرى عرف الصحراء أن تكون امتيازاً في عنق النبلاء، قيداً في عنق الأحرار. العبيد كانوا أكثر حكمة عندما اختاروا العبودية وسلَّموا زمام الأمر للسادة. والسادة كانوا أغبى مائة مرة لأنهم رضوا بتسلُّم زمام الأمر وأنطلت عليهم الخدعة. ولا أحد يتصوَّر صعوبة الزمام وقسوة صراط الحرية إلَّا بعد أن تنزل المأساة ويفوت الأوان. الاختيار ضَلَّلها أيضاً وأفسد حياتها. وإذا استطاع هذا المارد أن يحطم حياة أقوى الفرسان ويدفع أعتى السادة إلى التَهْلكة فكيف لا يفسد حياة امرأة وحيدة، يتيمة، مهاجرة في أرض الأغراب، تخلَّى عنها وليّ أمرها وتنازل عنها للأقدار بدعوى حرية الإختيار؟ هذه الحرية هي التي جعلتها تعشق في أوخا نبله وكبرياءه والتزامه بالمراسيم كما عشقت في أوداد قلبه وتعلقه بالغناء والجبال. طالما تمنّت أنْ يكون أوخا بقلب أوداد كما تمنّت أن يكون أوداد بهيئة أوخا، أنْ يَحُلَّ قلب أوداد في بدن أوخا. بهذا الحلول يتحقق الكمال. يكتمل الجَمَال، الأسطورة، الرمز الصحراوي القديم للرجولة، للفروسية، للبطولة. وما ترددها بينهما، الذي بدا للناس مشيناً ومهيناً، إلَّا ثمرة لهذه الرؤية. هكذا رأتهما. هكذا أحبتهما. هكذا ربطتهما، فأصبحا رجلاً واحداً، معشوقاً واحداً، يكمِّل أحدهما الآخر. ولولا هذه الجسارة، التي عرفت الآن أنها لم تكن إلَّا وهماً ووقاحة وزندقة صنعها الاختيار الفاجع، لما ترمَّلت قبل أن تفرح، لما فقدت قبل أن تجد. ولو تولَّى السلطان الأمر عنها كما يجدر بوليِّ الأمر، لو اختار لها كما يختار السيِّد عبداً لأَمَتِهِ المملوكة لتحاشت الفجيعة واستقام لها الأمر. تذكَّرت نبوءة الدرويش عندما حذَّرها من الخطر، خَطَرَ أن تُوْدِع قلبك في وعائين في آن معاً. القلب لا يحتمل أن يُرْهَن لمعشوقين. الكفر أن تشطر القلب إلى نصفين حتى لو كان الشطران نذراً لإلَهين. استهانت بالنبوءة فنالت الجزاء: خسرت الرهان.

* * *

١١ ـ القدر

«هناك شيء واحد أقوى حتى من الآلهة: القـدر!»
جواب إلَه دلفي عن سؤال للملك كريز
هيرودوت «التاريخ»

(١)

آبّا تميّزت عن الجميع. عجوز الهوسا اختلفت عن كل مَنْ أحاط بها في الطفولة. ما زالت تحتفظ في قلبها لهذه المربيّة الحكيمة بذكرى خاصّة. عاملتها الأمّ ببرود يصل حدَّ الخشونة والجفاء. لم تقدر أن تمحو هذا الانطباع من قلبها، كما لم تستطع، إلى اليوم، أن تغفر لها هذه القساوة برغم محاولات آبّا للتخفيف عنها وتعويضها الحنان الأمومي المفقود. والسبب لم يغب عنها حتى في الطفولة المبكرة، لأن همسات الجاريات الفضوليات نقشت في صدرها أسباباً تنتحل الأعذار للأم. سمعتهن كثيراً يتهامسن بأن الحبشية كانت تنوي أن تهدي السلطان المحروم من الذرية، ذَكَراً يساعدها في الإستيلاء على فؤاد السلطان وسلب السلطنة. كانت ترى ككل الحبشيات أن الولد أمتن وهق يمكِّن المرأة من الرجل. وعندما رُزِقت بتينيري، بذلك الولد المنتظر، أُصيبت بالخيبة وظلَّت تنوح وتمزِّق وجهها طوال أيام النِفاس.

وتناقلت الألسن الفضولية رواية تقول إنها لم توقف المرثيّة إلاّ بعد أن تدخلت آبّا نفسها وهمست في أُذنها أن السلطان قرر أن يطلقها ويعيدها إلى بلادها إذا استمرت في العويل.

أمّا معاملة الأب فكانت أكثر حناناً. وبرغم ما تردَّد في القصر من أقاويل قبيحة تتهمه بأنه رفع السلاح وغدر بعمّه إلاّ أنها لم تصدِّق يوماً هذه

الشائعات. وظلَّ الدفء رباطهما المشترك. ولكن الأب كان سلطاناً. وآبّا قالت لها أن على الفتاة الذكيّة، على الأميرة، أن تقنع من عاطفة الأب بِقَدْرِ إذا كان سلطاناً. أبناء السلاطين لا ينتظرون أن يفوزوا بإهتمام أكثر مما يسمح به وقت الآباء عندما يكونون سلاطين. الأبوّة والسلطنة لا يجتمعان. هكذا لقنتها المربية. لا تستحضر ذكريات الطفولة إلاَّ وتستأثر العجوز النحيلة، الممصوصة الوجنتين، بالنصيب الأوفر. فتحت عينيها على القصر فوجدت آبّا تجوس في ردهاته. لم تجد الأم ولا الأب ولكنها وجدت عجوز «كانو» فعلَّمتها الرّطانة. لم تعلِّمها الهوسا وحدها، ولكن هي التي علمتها «تماهق» وهي التي علّمتها «الأمهارية» أيضاً(*). علّمتها اللّغات كما لقنتها الحياة. قالت إن ثمة حياة سرّية في كل لغة، ومَنْ تعلم لغة واحدة عاش مرة واحدة، ومَنْ تعلَّم ثلاث لغات عاش ثلاث مرات. قالت أيضاً أن اللّغة تفتح الرأس. والمرأة أول مَنْ يحتاج للرأس المفتوح لاستعماله في غرض المصير. لا تنسى كيف كانت تأخذها من يدها وتجلس بها في الفناء الخلفي، للتمتع بشمس الصبح في أيام الشتاء. تأتي بالدهون والطِّيبِ والرماد المحمَّى، لتبدأ في مراسم الشَعر. تغسله بالماء الدافىء. تمشِّطه بعناية. تسرِّحه وتعرِّضه للشمس، ثم تلطِّخه بالرماد وتغسله بالماء الدافىء من جديد. تجففه وتتركه يشرب من شعاع الضُحى. في المرحلة الأخير تَشْرَع في تغذيته بالدهون ومستحضرات النبات لتضفره في جدائل طويلة، دقيقة، تحيط بالوجه من الجانبين، ثم تنثني إلى الوراء، لتطوِّق الجيد من الخلف. في البداية أثارت فيها الطقوس ضجراً فحاولت أن تتمرّد وترفض. ولكن آبّا الحكيمة أخبرتها أن على الأنثى أن تتمتع بتسريح شعرها وتتلذذ بجمالها طالما مَنَّ القَدَرُ عليها وخلقها امرأة. اعتادت خلال العمل أن تسلّيها بالأساطير، ومع تدفق الزمن، وتقدُم العمر، بدأت تنزل من سماوات الماضي وتقترب من أرض الحاضر. تروي لها سير النساء الذكيات والغبيات. يوم تروي فيه سيرة امرأة غبيّة، ويوم مخصص لرواية سيرة امرأة ذكية. وكانت تسعى، بالروايات التربوية، أن

(*) الأمهاريَّة: لغة الأحباش.

تصل إلى النتيجة التي أعلنتها أخيراً، وظلّت تُلقّنها لها طويلاً.

قالت: «الرجل قَدَرُ المرأة. ولا يمكن أن يكون للمرأة غاية في الحياة سواه. وكل النساء اللائي بحثن عن شيء آخر، هدف آخر، سرٍّ آخر، ضيَّعن حياتهن وضعن. الله لم يخلق في الكون شيئاً بلا معنى. وعندما خلق المرأة مخلوقاً جميلاً قَدَّر للرجل أن يقطف هذه الثمار. والثمار تذبل وتندثر في الفناء إذا لم تُقطف في موسم الحصاد. المرأة الذكية هي التي تهيىء نفسها للقطاف. المرأة الحقيقية هي التي تتزيّن وتتجمل لتكون أبهى وأشهى إنسجاماً مع شريعة الكون وامتثالاً لإرادة الآلهة. ولذا فإن المرأة الذكية دائماً سعيدة. أمّا المرأة الأخرى، الشقية، فمخلوقة غبية إذا بحثت في الحياة عن شيء آخر غير الرجل». لم تكتفِ آبّا بجعل الرجل إلَهاً للمرأة ولكنّها روّجت لفكرة أخرى أكثر إثارة. قالت لها إن المرأة خُلِقت لتكون مُلْكاً لكل الرجال، أو، بالأصح، الرجال هم الذين خُلِقوا ليكونوا مُلْكاً للمرأة. المرأة الذكية، التي تطيع الله في شريعة الكون، هي الساعية للاستيلاء على أكبر قدر من النّصيب، من الرجال. وعلى العكس، فإن المرأة الغبية، الضعيفة، الشقيّة، هي التي تكتفي برجل واحد وتقف عند هذا الحدّ. هذه المرأة شقيّة لأنها تقف على حافة الفناء، لأن تكريس الحياة ووقفها حكراً على رجل واحد مجازفةٌ خطرة، تنقلب دائماً على رأس المرأة. ولكن المرأة الحقيقية يجب أن تكون ثعلباً يحفر سبعة جحور، حتى إذا حوصر في جِحر تسلل، عبر المنفذ السرّي، ودخل الجِحر الثاني، فإذا داهمه الخطر هنا أيضاً، قفز إلى الباب الثالث في السرداب. على المرأة أن تحتاط على طريقة الثعلب. على المرأة أن تحتذي بالمهاجر الصحراوي الذي لا ينطلق في الرحلة إذا لم يعرف موقع البئر الذي سيرده. بئر واحد خطر على حياة المرأة. لا بدَّ للمرأة من آبار في رحلَة الصحراء، رحلة الحياة. لا بدَّ للمرأة من بئرين، وهو أضعف الإيمان. وهي لا تلجأ إلى هذه الحيلة الحكيمة انقياداً للشهوة أو سعياً وراء الذكور، ولكن هذا ضروري لتتقي مزاج الرجال المتقلّب. المرأة التي تريد أن تحمي نفسها لا يجب أن تثق بالرجل أبداً. عليها أن تحبّه، تداعبه، تحنو

عليه كطفل كبير، ولكن عليها أنْ تعلم أنها ستخسر الرهان في اللحظة التي تمنحه فيها الثقة. الثقة جوهرة نفيسة لا ينبغي وضعها في يد الطفل حتى لو كان يدَّعي أنه رجل. والمرأة لن تعرف أبداً لماذا يروق لهؤلاء الأطفال الأشقياء (الذين نسميهم رجالاً) أنْ يخونوا الثقة لأنهم يجهلون السبب هم أنفسهم. وأغلب الظنّ أن هذا يحدث استجابة للنداء المجهول الذي يدعوهم للتحرر من القيد ويوهمهم بأن في ذلك وصول إلى «واو» التي لا وجود لها لا في الصحراء ولا في السماء. قالت لها أن «واو» لا وجود لها إلا في خيالهم، في عقولهم. «واو»، في رأيها، وليدة العقل الطفولي، شقاوة طفولية. وشوقهم إلى هذه الواحة، وبحثهم الوحشي، دليل على أن كل رجال الصحراء هم أطفال كبار، أطفال أشقياء. وعلى المرأة أن تتولّى أمرهم وترعاهم بحكمة الأم الرحيمة. الطفل يضيع إذا لم تتولّاه الأم وتضع حدّاً لمغامراته الخطرة. البحث عن «واو» إحدى هذه المغامرات، وخيانة الثقة، التنصّل من الواجب أمام المرأة، المغامرة الثانية، المجازفة الأخطر التي ستدفع المرأة ثمنها: المرأة الغبية. أمّا الذكية، الشيطانة التي تفكر وتمتشق سلاح الشطارة فعليها أن. . .

هنا تتوقف أناملها النحيلة، النشيطة، عن اللعب والتمسيد وشدِّ خصلات الشعر. ترفع رأسها المنكّس بسبابتها ثم تحدِّق فيها بعينين حمراوين مخيفتين وتتهيأ للتلقين. تكمِّل الجملة بإهتمام وغموض: «. . عليها أن تقيّد الطفل الشقي، عليها أن تحتفظ بالرجل الغدَّار، بشيئين. بهذين. . » تضرب رأسها بقبضة يدها. وتنهض على قدميها بخفة لا تتناسب مع سنّها، وتضرب على فخذتها اليمنى بيدها ثلاث مرات متتالية قبل أن تهدأ وتعود للجلوس. تكمل: «. . الرأس والفخذ شَرَكُ الرجل. بالرأس والفخذ تستطيع المرأة أن تربّي الطفل الشقي، الرجل المغامر. بهذا الفَخ تمنعه من المجازفة والغدر». ولكنها تعود في مرات أخرى للتحدث عن الاحتياط، عن البئر الثاني، عن امتلاك الرجال الآخرين. رأت في الحيلة يقظةً، استنفاراً، كنزاً دفيناً تستعمله المرأة عندما يحين الوقت.

في البداية استمعت للتعاليم بـلامبالاة طفولية. ثم بدأت تهتم وتندهش

وتبتسم. وعندما وَعَتْ في نفسها الأنوثة واستدار الرِدفان وتكوّر فيها النهدان، أصبحت تتشوّق وتصغي لها بمتعة فتاة تتفتّح وتتلهّف لفهم لغز الحياة والرجال.. إلى أن تدخّل رجل من الحاشية ليفتح عينيها على دهليز آخر كان مغموراً بالظلمات. كان يتولّى المخازن ويشرف على التموين. طويل القامة، هزيل البُنْية، يتلفع بعمامة بيضاء يحرص على نظافتها دائماً. يجرُ رِجلاً عرجاء أُصيبت بسهم مسموم في إحدى معارك الأدغال عندما كان محارباً في جيش السلطان. ويُقال إن مواهبه الحربية قرّبته من السلطان فقرّبه وسلّمه مفاتيح المخازن ليشرف على تموين القصر. اسمه دودو، ولكن السلطان يدلّله ويناديه بـ «امنوكال»(*) من باب الدَعَابة والإجلال لماضيه الفروسي. جاءها امنوكال في أحد الأيام وأخذها من يدها ليختلي بها في الزاوية. كانت آبًا قد ألقت عليها درساً مدهشاً عن كيفية تحرير الطفل الشرير (يروق لها أحياناً أن تصف الرجل بـ «الطفل الشرير» بدل «الشقي») من المرض الخبيث الذي يعاني منه كل الرجال، من الوهم القبيح الذي كان سبباً في شقاء المرأة، وهم الحرية. لا تنكر الآن أنه كان درساً شيقاً. ولكن امنوكال حذّرها من تعاليم العجوز وأخبرها أن كل ما علّمته لها هو من تعاليم المجوس. وعندما سألته عن تعاليم المجوس قال لها بعجالة مَنْ يتجنّب الجواسيس: «إنهم يؤمنون بالذّهب بدل الله. شريعتهم التِّبْرُ وليس القرآن». تلك الإشارة فتحت عينيها على الصراع في القصر بين الخدم المسلمين والآخرين الذين يعتنقون المجوسيّة. وظلّ الصراع يشتدُّ كلما استدان السلطان التِّبْرَ من زعماء الأدغال لينشّط حياة التجارة في السلطنة.

راقبت الخلاف بين الطائفتين وهو يتصاعد ويتحوّل إلى أحقاد ودسائس، ولم تندهش عندما شهدت اليوم الذي اختفى فيه امنوكال من حياة القصر، فاستنتجت انتصار عَبَدَة التِّبْر وسيطرة دين المجوس. وهو دين لم ينتصر داخل القصر إلّا بعد أن تسلّط على السلطنة وركّع تينبكتو كلها. ولم يمض وقت طويل على زيارة زعيم بامبارا إلى الواحة حتى تهامست الجاريات الفضوليات

(*) امنوكال: الأمير (تماهق).

في ردهات القصر برؤيا السلطان. ورغم السريّة، رغم التحريم الذي فرضه أبوها على النبوءة إلاّ أن فضول الجاريات وتعطشهن للقيل والقال جعل الإبقاء على الأسرار أسراراً في القصر عملاً مستحيلاً. روت لها الرؤيا جاريتها الحبشية. لم يطل بها المقام بعد الرؤيا. وعندما آن الرحيل ودَّعتها آبّا باكية وأوصتها أن تحفظ وصاياها. ولكن العجوز لم تتنبّأ بأنها، بينما تنهمك في ضفر جدائل الأميرة وتدبرها للرجال، كان القدر يُعِدُّ لها مصيراً آخر.

(٢)

فرَّت من هاوية آمناي فلاحقها إلى آزجر برسوله القِبْلي. الدَاهية تيميط أول مَنْ عرف السرّ فأسكتتها بنصيحة من أناي. اشترت منها السكوت بالتِّبر وقطع الذهب مستعينة بعقيدة المجوس التي تدعو لجسّ نبض المرء ببريق الذهب فإن رأيت في عينيه ميلاً للمعدن النفيس سهل شراء ذمته. سهل عليها أن تستميل العرَّافة وتشتري صداقتها مستعينة بسلطان الذهب كما اشترى السلطان الإمام وسخَّره لمساندته في بناء «واو» مستعملاً نفس الوسيلة. وأول شيطان اهتدى إلى السرّ هو الدرويش. هذا المخلوق أول مَنْ نبَّه إلى خطورة الذهب على السهل مدفوعاً بآراء صديقه الزعيم. الدرويش والزعيم أخطر مَنْ في السهل، لأنها تعلمت، فيما بعد، أن أخطر الناس على مَنْ يمتلك الذهب هم أولئك الذين يعادون الذهب ويرون فيه معدناً منحوساً. الكل حذَّرها من هذه الفئة. السلطان أول مَنْ حذَّرها.

وعندما أهدت السوار الذهبي للدرويش ككراء على تبليغ الرسالة أدركت أنها ارتكبت خطأً. أدركت أنها غفلت وخالفت الوصية عندما أخبرها الخدم بالطريقة القبيحة التي عامل بها السوار فسخر منها ومن هديتها. ويُقال إن هذا الشيطان (أم الملاك؟) ورث هذا العداء للمعدن من أجداده المرابطية الأوائل الذين فتحوا الأدغال ودعوا للزهد وشنّوا الحملات على عَبَدَة التِّبر والأوثان. أمَّا الزعيم فأضمر له العداء بسبب ما زعم من أنه لعب دوراً في هلاك جدّته على يد الجن الذين يعتبرهم أهل الصحراء الوسطى ملاّك الذهب الأصليين.

وإذا كان المعدن قد أضاع تيميط والإمام كما أضاع الآلاف من سكان الصحراء الجنوبية قبلهم، فإن ضياعها دخل إليها من باب آخر غير التِّبْر. ضياعها جاء من حيرتها في الاختيار بين الرجلين وترددها الذي سمّاه الدرويش الشيطان «التردّد القاتل»، بين النقيضين. تعلّقت بالعصفور الشفاف الذي يغني في صدر أوداد ولا يحطّ إلاَّ على القمم المجاورة للسماء. وأَحبَّت في أوخا فخامة النبلاء ورجولة المحاربين. إنقادت إليه بعين أصلها الأزجري، بعين الأميرة، بعين الكبرياء ورؤيا المكابرين. الدّم الآزجري، الانتماء إلى قبائل «أوراغن» التي يستمدُّ منها أبوها أصوله، قادتها إلى أوخا، وشدَّتها الهيئة المكابرة بحبل من مسد، بسلسلة من حديد. في حين قادها دم آخر، إنتماء آخر، أمومي، حبشي، خفي، و.. طليق، إلى جنّة الطُلقاء، إلى رقعة الخلاص، إلى السراب اللعوب، إلى الخلود والحرية، إلى طائر الشعر والشوق والفردوس، إلى أوداد الذي يحمل في صدره جوهرة النّور.

لم تكتشف هذه الإزدواجية إلاّ أخيراً. لم تكتشف أصول الإزدواجية إلاّ الآن. لم تتوقع أن يتكلم فيها الهجين بهذه اللغة. لم تتوقع أَن يرتفع فيها صوت الدَم والسُلالَة والأصل بهذه الوحشية. استهانت بالكائنات النائمة في زوايا القلب، في ظلمات الوعاء، ولم تظن أن هذا القفص الصغير يمكن أن يخبىء الصحراء الكبرى كلها بين ضلوعه. لم تظن أن في القفص ملاكاً خفيًّا يجمع التناقضات ويسجِّل الذكريات المنسيّة. هنا تكمن أصول الحيرة. هنا بدأ التردّد القاتل. هنا قَدَح الزِناد بشرارة الخطر.

(٣)

شهدت الانهيار في ليلة واحدة. انهدَّ المِثَالُ، تداعى النَصْب المكابر في مرة واحدة. الحوار المجنون. رقصة الوداع. الرأس الحاسر. السوأة العارية. العورة القبيحة. الفم البشع، المفتوح، والأذنان الكريهتان، المتدليتان كأُذني جحش. العينان المحمرتان، الوحشيتان. الوجه الدّامي، المعفَّر بالرّغام. حَدَثَ كل هذا في ليلة واحدة. في النصف الأخير من ليلة الميعاد. تمزَّق اللثام فانكشفت الهيئة. احترق الحجاب فَبَانَ العَرَاءُ. ظهر

الوعاء. الهيئة التي خدعتها وأُخِذَت بها. الإناء الذي فتنها دون أن تعرف لون مائه. قناع الكبرياء الذي أخفى عنها الوجه الآخر لهيئة الفارس. اللثام حجب الأسطورة. اللثام صنع الأسطورة. فهمت الآن سرّ اللثام. وجدت المبرر للجدّ الذي اخترعه. وجدت الحكمة المجهولة التي دَعَت السلف لاختراع القناع. إخفاء العار عمل إجباري لمخلوق يريد أن يحترم نفسه. عمل مشروع لرجل يريد أن يستر عريه، ويحترم بدنه. لم تكن تستطيع قبل اليوم أن تبصر القناع المزيف، الآخر، الذي يخفيه اللثام الجليل لو لم يتمزَّق اللثام. رأت أن قطعة القماش الشقية تستر كبرياءً مزيفاً، كبرياء شيطانيًّا مضلّلاً. هذا الكبرياء هو الذي ضلَّلها وأخفى عنها أوخا الحقيقي. هو الذي أغواها وجعلها تضع رِجّلاً في صراط وتضع الأخرى في الصّراط الآخر. الكبرياء هو الحجاب. حجاب النفس والروح والحقيقة. الدرويش تحدَّث دائماً عن هذا الحجاب ولكنها لم تفهمه إلاَّ الآن. الدرويش الملاك حذَّر منه دائماً ولكن لم يفهمه أحد. كان مستحيلاً على الناس أن يفموه لأنهم جميعاً يحملون في قلوبهم نفس القناع. يضعون على قلوبهم نفس اللثام. الدرويش هو الذي أخبرها بالنبأ الفاجع عندما جاءها بقطعة القماش الدّامية. هو الذي قال لها أن أوخا أقنع آخماد بأن يفصل روحه عن بدنه بالخنق. إختار الخنق حتى لا يخرِّب البدنَ، الوعاءَ، الإناءَ الفارغ. آثر القفص وفضَّله على عصفور النور. زندقة أوخا في إيثاره للصندوق الفارغ على عصفور النور. هكذا نعاه الدرويش. بهذه القساوة قرأ عليهن النبأ.

الآن، بعد أن شاهدت الهيئة البشعة، أيقنت أن الدرويش على حق. أحسَّت بالدّوار وفزَّ من بدنها عرق غمرها. ترنَّحت حتى أسندتها الجارية. ركضت هرباً من المواجهة. عثرت في الحجارة فسقطت وشرعت تتقيَّأ. حملها الخدم إلى البيت وسهرت على رأسها العجائز. زارها السلطان بعد طلوع الشمس فقرأت في عينيه كل شيء. قرأت في عينيه الاكتئاب والتعاطف والعَزاء. قال لها بالبصيرة أنها بدأت الحياة ودفعت ثمن الاختيار. قال بالعين الناطقة أنه لم يشأ أن يختار لها لأنه لم يشأ أن يمارس الحياة نيابة عنها. بدأت

تفهم معنى أن تختار، وأن تحتار، وأن. . تحيا.

(٤)

ولكن القَدَرَ لم يرحمها.

حرَّرها من الوهم ولم يقدّم لها الحقّ بديلاً. جرَّدها من أوخا، ولكنه لم يأتِ لها بأوداد. لم ينزِّل لها أوداد من السماء. ظلَّت طوال ثلاثة أيام تستعدُّ للقاء. تحلم بهالة النور، بالمخلوق الطليق كالهواء، بالودَّان البري الذي يحمل الحرية شعاراً على الرأس، علامةَ في الوجه، إشارة من ضوء، لتهرع إليه وتخبره بما فعله بها الاختيار. الاختيار: صراع الضدّين اللذين ورثتهما في الدم، في السلالة، في الازدواج المتولِّد بالهَجين. ستخبره أيضاً بشيطان الكبرياء. حجاب الكبرياء الذي خدعها وقادها طويلاً. ستزِفُ له البشارة أيضاً. ستقول له أن أوخا انتهى. انتهى في قلبها قبل أن ينتهي في البئر. نَزَعته من صدرها حتى لو كسب الرهان. تجرَّدت من الوهم. تحررت من التردّد القاتل. اختارت أخيراً. اختارته حتى لو لم يصعد. حتى لو خسر الرهان. ولكن. . ولكن الهمسات الشيطانية في القصر منعتها من الابتهاج. الشائعات ترددت على ألسنة الجاريات الفضوليات اللائي لا يخفى عنهن شيء. ثم تحوّلت الهمسات إلى إيماءات شريرة. سمعتهن يتهامسن سرّاً بأن أوداد لم يعد. لن يعود. يستحيل أن يعود. قلن إن جميع الحكماء يعرفون أن صعود الجبل المستحيل ليس كالنزول منه. صعود القمة ليس كالهبوط. بلغت بهنَّ الوقاحة حدّاً جعلتهن يرددن الكفر. قلن بالجزم أنه لم يحدث في تاريخ الصحراء الوسطى أنْ صعد مخلوق إلى القمة ونزل منها إلى الأرض من جديد. الصَاعد إلى الألواح دائماً مفقود. ففوق الرأس يوجد سرّ. الرأس يشرف على فم الظلمات. ومَنْ بلغ الفم ورأى الظلمات غاب واختفى. هذا ما ترويه الشرّيرات، الجنيّات. الشيطانات، الخادمات، جنيّات القصور. الخدم شياطين القصور.

انخفضت الحرارة. تراجعت الحمّى. شعرت بتحسن. تحاملت على

نفسها ونهضت على قدميها. استدعت العرّافين للمشاورة. تعلّلوا بجهلهم للصحراء الوسطى. تواطأوا مع باقي الحاشية وأخفوا عنها حقيقة الجبل. تحسَّرت على غياب تيميط. استدعتِ الدرويش. في البداية تهرّب. في النهاية قال بلغته الغامضة:

ـ مَنْ رأى جنّاً لم يعد إلى حظيرة البشر.

استفزَّتها لغة الدراويش أكثر مما استفزَّتها العبارة. هبَّت غاضبة:

ـ وهل الجنّ حكر على القمة؟ هل الجنّ حكر على الجبل؟ الصحراء كلها وطن الجنّ. إنهم يجوسون في كل مكان.

تردّد طويلاً قبل أن يدخل معها في حوار التفاصيل:

ـ الصحراء وطنهم حقّاً، وما نحن إلاّ ضيوف عندهم. والخلاف الأوّل هنا، في تصرفنا كضيوف. إننا نتصرف كأصحاب أرض، كملاّك للصحراء. نحن أسوأ ضيوف شهدتهم الصحراء. ثم إنك جئتِ من آير ولا تعرفين عن الإتفاق شيئاً.

ـ الإتفاق؟ أي إتفاق؟

ـ نعم. الاتفاق. العَهْدُ المبرم بيننا وبينهم. لقد تنادوا منذ زمن طويل وقرروا أن يجمعوا شتاتهم الموزع في كل الصحراء في «ايدينان» الهارب من زحف الرملة. فصلوه عن قرينه الجنوبي واشتروا ذمته مقابل أن يحموه من غزوات القِبْلي. انتهت الصفقة بأنْ أقاموا فيه وطناً. لم يكتفوا بإقامة الوطن، ولكنهم جمَّعوا كنوزهم المخفية في الصحراء وجلبوها إلى الوطن. وقَّعوا مع أجدادنا عَهْداً أن نتخلى عن التعامل بالذهب إذا أردنا مراعاة أصول الجيرة. جئتم بالتِّبر من آير وتعاملتم بعملتهم. كل مَنْ تعامل بالمعدن الحرام موعود بالقصاص. كل مَنْ ملك الذهب أصيب بالمسِّ ونال مصير العرَّافة والإمام.

ـ ولكن أوداد لم يملك الذهب يوماً!

ـ أوداد تطاول على الوطن. اعتدى عليهم بالعين، بالرؤية، بالمشاهدة.

أوداد تجسّس وتفرَّج على وطن الظلمات.

راقبته بشك، بفضول. كأن الجنيّة تريد أن تقرأ في عينيه سرّاً آخر قرر أن يخفيه إلى الأبد.

(٥)

تسللت من القصر في الظلمة. استغفلت العسس عند السور. اتجهت إلى الجبل. هامت في العَرَاء. تسكَّعت عند الحضيض. تفقَّدت السّفح. تسلَّقت السّند مستعينة بيديها. كافحت الحجارة الحزَّازة. سلخت يديها وأدمت القدمين.

فزَّ منها السائل الحارُّ فلم تعرف عمَّا إذا كان عرق التعب أم نزيف الدم. بلغت الحضن.

أقْعَتْ وأنصتت لهمهمة الفناء، لغة الموت، سكون الصحراء. ما أَجَلَّ السكون في الصحراء. انتظرت أن تسمع الجلبة، جلبة الجنّ، تمتمات أهل الخفاء الذين ينامون في النهار ويسهرون الليل. ولكنهم تواطأوا أيضاً مع الفناء وتحدَّثوا بلغة السكون. السكون الكتوم الذي يخفي أمراً، يداري سرًّا، يردد المرثيّة، يرطن النّعي بصوت لا يسمعه أحد ولكن يحسّه كل الناس. يتكلم النّعي بلغة لا يفهم مفرداتها أحد، ولكن يدركها الجميع. سكون الصحراء نعي الأحياء، كل الأحياء. سكون الصحراء مرثية الخلق. خَبِّرْ أيها السكون: أين خبَّأت طائر الفردوس؟ قلْ يا مكابر: أين غزال البر؟ ودّان الجبال؟ نسمة الشمال؟ قبضة النور؟ العلبان؟ مزيج الملاك والإنسان؟

إرْحَمْ يا لوح السماء. أعِدْ لي قَدَري الذي لم أفرح به. قدري الذي مات قبل أن يولد. ضيعته قبل أن أجده. فقدته قبل أن أهنأ به. أغواني الشيطان المنفوش فضلّلني وقادني في صراط آخر ليبعدني عنه. العلبان الذي احتويته بين يديك قدري قبل أن أولد، قبل أن أُبعث. العشق بيننا موروث من الأزل. كنّا كلًّا واحداً فتغرَّبنا، انفصلنا، تهنا في صحاري الله الواسعة. بحثنا عن نفسينا طوال الأزل. بحثنا عن بعضنا لنستعيد وحدتنا، اتحادنا، التحامنا. كل

الرحلة الماضية بحث الجزء عن الجزء. بحث الفصل عن الأصل، الضّلع عن القفص. حنين الضّلع إلى قفص الصّدر. فارحمْ يا لوح الجنّ؛ أعدْ لي أصلي. أعدني إلى الأصل. أعدني ضلعاً في صدر المعشوق. و. . اغفرْ لي كفري. زلّتي في التملّك. أردت أن أملك رجلين ففقدتهما معاً وفقدت كل الرجال معهما. الظّمأ إلى رجلين خطيئة الضّلع. مَنْ أراد أن يفوز بكل شيء لم ينل شيئاً. سبب الزّلة تقيّدي بوصية المجوس.

فهل ثمّة أمل، يا جبل؟

(٦)

استعرّ الجسد. احترق الجوف. ارتجفت الأطراف بالحمّى. نزّ العرق. نزلت السّفح. بلغت الحضيض. خسرت الرّهان. فقدت الأمل. لا أمل. لن تستعيد الوحدة. لن تلتحم بالكل. لن تتواصل في الأصل. لن تهتدي إلى الصّدر. لن تجد الفردوس. لن ترتوي من أنهار اللّبن. ضيّعت «واو» وضاعت. القدر كتب عليها الفقد والتّيه. خطف من يدها الأمل لحظة الوجد. وما خُطف بيد القدر لن يوجد. لن يعود. فحكم عليها بشقاء المحرومين من البعث، من التواصل في الكل، من الالتحاق بالأصل. جَنَت ثمار أهل الخطر. حصدت محصول النبوءة، نبوءة الدرويش. موسى نبيّ، مَلَاك، عرّاف، نذير. موسى يعشقها أيضاً. رأت في عينيه العشق. ليس من الصّعب على ضلع الفتنة أن يرى الشوق في عين العاشق. عين الضُلع لا تخطىء وميض الحنين إلى الجزء المنفي عن أصله. يومها تجاهلت الإشارة فأفلت الملاك وذاب في أشعة الشمس. بلبلتها القوة الخفية، القَدَرية، وأربكت لها الحساب. استهانت بالإيماء فدفعت الثمن. فلماذا لا تحاول أن تصلح ما أفسدته يداها؟ لماذا لا تتشجّع وتستعيد الملاك التائه؟ ماذا؟ مَنْ؟ هل هذا شبح الدرويش؟ هل نزل الملاك من السماء؟ الدرويش جن إذا فكرت فيه حضر. الدرويش مَلَاك إذا استنجدت به نزل.

تشجّعت وسألت:

ـ هل أنت الدرويش؟

ـ ها. . ها. .

زلزل السكون بقهقهته. إنه الدرويش. في نزوله إشارة. في ظهوره نبوءة.

تشجعت بالنداء الخفي فخاطبته بلغة العشق:

ـ مكتوب في مخطوطات الصخور أن خلاص أهل الخطر لن يتمَّ إلاَّ على يد أهل النور. . .

اقترب الشبح. استجاب للحوار:

ـ ها. . ها. هل تتكلّم الأميرة لغة الدراويش؟

ـ لغة الدراويش لغة الخلاص. مَنْ فقد العصفور في الجبل لا بدَّ أن يبحث عن الطريق في مكان آخر، في لغة أخرى.

ـ الخلاص ليس في اللّغة.
ـ في الطريقة. هل الخلاص في الطريقة؟
ـ ها. . ها ليس في الطريقة. ليس في الطرق.
ـ أين الخلاص؟
ـ ويل لمَنْ لم يجده هنا.

ضرب على القفص بقبضة يده. تقدَّمت منه خطوتان. توسَّلت:

ـ لماذا لا تستجيب لندائي إذن؟ لماذا لا تجيب على العرض؟
ـ . . .

ـ أردت أن ألتحق بالقفص. سنترافق. سنصبح كلًّا واحداً. يلتحق الجزء بالكل ويعود الضلع الضائع إلى الأصل في القفص. أليس هذا نعيماً؟

ـ ها. . ها. . ها. .

تزلزل العَرَاء بالضحك. طُعِن السكون الجليل بالقهقهة. قهقهة شيطانية لا

تليق بدرويش. لا تليق بملاك. قهقهة جنونية، ماجنةً، توحي بالكفر والشماتة. فهل أخطأت يا تُرى؟ هل الشبح شيطان رجيم؟ هل كان الشبح جنيّاً؟

استمرَّ يقهقه حتى اختفى في ظلمة الخلاء. مشت وراءه. هامت في العَرَاء. وجدت نفسها تقف على فوَّهة البئر.

(٧)

انتشلها الرُعاة في الصّباح.

وجدوها منفوخة، جاحظة العينين، طافية فوق سطح الماء. خرجت «واو» ودبَّ السهل. أقبل السلطان وحمل جثمانها بين ذراعيه. سار به إلى القصر ببطء، ووجوم، وجلال. مشت وراءه الحاشية صامتة أيضاً. دخل الأزقة الكئيبة، المعتمة. في القصر اختلى بالجثمان في الدّار. رَوَتْ الجواري فيما بعد أنه سَجَّاها على الكليم وناجاها طويلاً. بعضهم قلن إنه ركع بجوارها صامتاً. وأكدت أخريات أنهنَّ سمعنه يعترف بمسؤوليته عن هلاكها. قلن إنه قال: «أنا القاتل. أنا المدبِّر. دمك في رقبتي. أردت أنْ أخلِّصك من هاوية أمناي فأخذتك إلى هاوية القَدَر. أنا مَنْ أساء تفسير الرؤيا. أنا الذي اجتهد دون كفاءة. أنا الذي استعار دور العرَّاف دون علم بمزاج الآلهة، بسلوك القدر. أردت إنقاذك فأسأت التدبير وقدتك بيدي، قطعت بك الصحراء، كي ألقي بك في البئر الذي رآه أبوك في المنام. كيف أسدُّ فراغ الصحراء بدونك؟ كيف أطرد وحشة الإغتراب لوحدي؟ ما طعم «واو»، ما معنى الفردوس، بدونك يا صغيرتي؟».

وقبل أن يقيم المأتم ويعلن الحداد روى بعض العقلاء من أفراد الحاشية أنه حبس نفسه بعد انتهاء مراسم الدَفن، وظلَّ يشتم عدوّاً مجهولاً ويتوعَّده بالحساب طوال ثلاثة أيام. تهامس الثِّقاة منهم وهدهدوا التراب كي يخففوا الخطر وعقّبوا بالقول إن العدوّ المجهول لم يكن سوى القدر نفسه!

(٨)

بعد أنْ توارت الأميرة تحت التراب سمع الخلق دمدمة لم يسمعوها منذ سنين، عربدة خفيّة، حركة مجهولة، إشارة سماوية. زأر الهدير واقترب فتوجّس الناس. تصنَّت السهل واستجابت الصحراء للنداء بالترقب والشوق والإنتظار.

إقترب الزئير الخرافي. بدأت الصحراء تحتمي بستائر العتمة، بنقاب الخفر، بغلالة العروس المهجورة. تخضَّبت بحنَّاء الحياء احتفاء بالفحل، فرحاً برسول الذكورة، بإله الخصب واللقاح.

في الأفق قَدَح الزناد بأول إشارة.

سَطَع خيط ناري متعرِّج ورشق الصحراء بالبشارة. أعقبته زمجرة مكتومة للجمل الخرافي الهائج. رفرف قلب الأرض المحرومة وازداد وجوم القمم. مَزَّقت الصبايا حناجرهن بالزغاريد وصنعن بأصواتهن العذرية كفناً للقِبْلي، نعياً للعدو المسلَّط على رقبة الصحراء. تراجع إله الصحراء الجنوبية. مُني رسول المجوس بالهزيمة وعاد إلى المجهول والأدغال. انسحبت الريح وراء الحدود.

اقترب الزحف. تظاهر الأفق بالغمام. قعقع الجمل الخرافي الثائر. تمزَّق الأفق بخيوط النَّار. سكنت الصحراء. تمدَّد السهل. هتف كل شيء بالشوق والحنين والإنتظار. سقطت القطرات الأولى. قطرات كبيرة، نهمة، ظمأى لمعانقة الأرض. القطرات البتول، التي تتحرّق للقاء، وتتوق للالتحام بذرات الرّمل العطشى. تبعتها قطرات أخرى. توالى سقوط الماء، فاستغاثت الأرض شوقاً وندَّ عنها فحيح. انطفأت النار المحبوسة في صدر الأرض منذ ألف عام وبدأ الوحش يحتضر: وحش الجدب والجفاف والقِبْلي. تنفست الصحراء الصعداء وفتحت ذراعيها لاحتضان معشوق غاب طويلاً، وانتظرته طويلاً.

ارتفع بخار من الأرض احتفاء باللقاء المستحيل، انتصاراً للمعجزة. تدافع الصبيان إلى العراء. خلعوا لباسهم. رقصوا في أمواج البخار، تحت

خيوط الماء. تقافزوا عراةً. هتفوا بأُغنية المطر الموروثة عن الأسلاف:

امطري، امطري، امطري،
فالخباء قد خوى
ولم يبقَ من التمر سوى حبّات النَوى.

استجابت قافلة السحاب لوصية الأجداد، لنداء الأحفاد. اشتدّ نزول الماء، فَغنًى، مع الصبيان، كل شيء في الصحراء.

* * *


القسم الرابع

١ - المكيدة

«قَـدَرُ الرّجـال ألاّ يحصلوا على السعادة إلاّ مـع شيء من الاكتئاب».

كلود ليفي ستراوس «الفكر البرّي»

(١)

عقب عودته من رحلة طرابلس لم يعتزل في بيته أكثر من ثلاثة أيام.

وعكس ما توقع الخدم والأعوان وأهل الفضول من أهالي غدامس، فإن الحاج خرج من البيت في اليوم الرابع تعلو وجهة سكينة خفية لم يعهد الناس أن يروها على وجه مَنْ فقد كل ذويه في يوم واحد ليجد نفسه أعزلَ، معزولاً، وحيداً. وتردد على ألسنة أهل الفضول أنه ردَّ على تحيات الأعيان وتجاهل إيماءات الخصوم الخفية عندما عبر سوق الواحة المزحوم قاصداً عين الفرس خارج السور.

عند باب السور الموحش صَرَفَ الخدم وسار نحو الأحراش وحيداً. دخل دغل النخل وأنصت لغناء الجنادب وهديل الحمام في رؤوس النخيلات التي تطوِّق العين لتحميها من شراسة القِبْلي. وراء عرقوب الرملة لوّنت الشمس الأفق وزرعت ذيلاً طويلاً، قانياً، وهي تحتضر.

سكنت الصحراء.

لأول مرة أحسّ بالسكون، بطعم السكون. قطع القارة الصحراوية من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، عشرات المرات، ولم يعرف أنّ وراء سكونها الموحش لغة خفية، أنّ وراء الصمت الكئيب، القاسي، حناناً، ولهفة، وعشقاً. وربما لم يسمع السكون لأنه لم ينصت. لم يسمع لأنه لم ينتبه. لم ينتبه لأنه لم يعشق. لم يعشق لأن في قلبه بلبلة أخرى. البلبلة

كانت في قلبه قبل أن تكون في رأسه. بلبلة الذهب والمقايضة والحسابات. فهيهات أن ينصت لغناء السكون، لمعزوفة الأبدية، للغة الخلود، مخلوقٌ لم يتحرر من بلبلة الأسواق ورنين التبر المصنوع.

واليوم، بعد أن تحقق الأمر، وتبدّد الوهم. اليوم بعد أن تيقن أن الأولاد عبروا البحر البشع مع أمهم وأصبحوا غنيمة في يد النصارى إلى الأبد، عرف أن في الصحراء العظمى سكوناً جليلاً، ينطق بلغة الخفاء، بلغة الله، ويبوح بسرّ الأسلاف. عرف أن القارة العارية جسد خرافي عجز طوال السنين الماضية أن يبصر فيه امتداد القدّ، وعفاف الصورة، وسخاء البهجة، و. . روح المحبة والتعاطف. داس الصحراء ولم ير في جوفها سوى الكنوز.

طلب كنوز الخفاء الممسوسة ورفض أن يأخذ كنوزاً أنفس ظلّت تعطيها له كل صباح وكل مساء. عاش في قارة سحرية أخرى ولم يشعر طوال عدوه المجنون أنه يدب على الصحراء. نفس الصحراء. لم يرفع رأساً لعناقيد النجوم، ولم ير وجهاً لقمر. لم يفتح عيناً على عراء، ولم يسمع لغة السكون. لم يتمتع برؤية ظبيٍ أو ودّان ولم يتذوق الطعم الآخر، السحري، للماء. فالماء، الماء، معجزة أخرى في الصحراء. ينصت الآن لخرير النّبع، فيكتشف أن لسعيه في الحجارة شقاوة، وعناداً، وإغراء. إنه لعوب، مناور، مثل صبيّة حسناء.

ولكن. . . هل يستطيع أن يخاطب الماء مَنْ أغمد مدية في قلب مخلوق؟ هل يجسر قاتل أن يعود من منفاه إلى الأرض، إلى الصحراء؟ هل تغفر الصحراء التي اغترب عنها دائماً، وقايضها بمعدن لم يجر عليه سوى الخصومات والنحس؟ هل تصفح الأرض، الأم، عن الولد الضّال الذي رواها بدم قربان بشري؟ هل يجرؤ أن يركع، ويتمرّغ، ويطلب الغفران متعللاً بإنقاذ النسل والإبقاء على الذريّة؟ هل تصفح السماء أم الصحراء عن الصمّ البكم العميان؟ هل تصفح عن المختوم على أفئدتهم وبصائرهم بالظلمات؟ هل تُقبل التوبة، وتحدث المعجزة بعد أن رفع يداً وسفح دماً؟ كان يستطيع أن يطمع في الغفران لو استبدله عند اللطمة الأولى، لو انتبه

للإشارة الأولى. ولكنه تمادى وكاد وطلب المزيد فخسر الرهان. خسر نفسه. حذّثه الهاجس الخفي في الحين، ولكنه جهل وتجاهل وسعى ضدّ السيل. إعتقد أن تِبر العرَّافة يكفيه ليستردَّ امرأته وأولاده وشرفه الضائع. نازعه الإمام فسلَّط عليه أحد الأعوان فأزاحه. فقد رأسه وتحوّل بنفسه إلى تيّار وسيل. اندفع إلى غدامس كي يردَّ الكيل لأعدائه فوجد أن القدر سبقه ودفع العائلة إلى أيدي المرابين. طاردهم إلى طرابلس ولكن مركب النصارى عبرت بهم البحر. عاد بثروته الدموية واعتكف في البيت.

والآن يكتشف أن في الأرض صحراء. وفي الصحراء سكون، وفوق السكون يطوف قرص كبير، عجيب، من ضياء. طوق من الفضة يسبح في الأفق فهل هذا أنت يا قمر؟ اكتشف أنه ركض أكثر من نصف قرن دون أن يـرى قمـراً، دون أن يستنشق زهـرة رتم. دون أن يلتفت إلى القُـلاَع ويلتقط كمأة. دون أن يصغي لثرثرة الماء في الحجارة. دون أن يشاهد زحام السحب وهي تحتفل وتتزاحم لتمطر وتعاشر الحمادة الجدباء. بل دون أن يرى امرأته ويلاعب أولاده. بل دون أن يعرف حتى نفسه. أُنسته المقايضات في أسواق الواحات أن الله خلق البضاعة كي تكفل الستر وتسدَّ الحاجة. تدخّل نحاس النحس وأخذه من دنياه وأولاده ونفسه.

أقعى تحت نخلة مكابرة وعبث بالرمل الليلي الودود. تابع القمر وأنصت للغو الجنادب وثرثرة ماء النبع في حجارة الساقية. سَرَحت به شعائر الصحراء فوجد نفسه يدخل حرم الطفولة. ركض حافياً في الأزقة المتربة وذاق مداعبات الحصى والرمضاء والحزيز. طارد الجديان الشقية في الوديان المجاورة وعانى من شقاوتها ككل الأطفال. تعرّى في مواسم المطر ورقص تحت وابل الشبوب مردداً نداء الإخصاب:

أمطري، أمطري، أمطري،
فالخباء قد خوى
ولم يبق من التمر سوى حبّات النوى
فتلتقط الصحراء الظمأى النداء لتستعطف به السماء.

إلى أن. .

تململ في القفص عصفور. ظهرت الصبية الحسناء من تحت الأرض كجنيّة، فرفرف عصفور القفص بالعشق. سرحا مع الجديان، وشاكسته في الأزقة كثيراً. عيّرته بوجهه المستطيل، وبتسريحة شعره التي تشبه عرف الديك. حلق شعر رأسه فقالت إنه لن يستطيع أن يغير من وضع وجهه المستطيل. تجاهلها. هجرها. امتنع عن مبادلتها الكلام، فطاردته وشاكسته وطلبت منه أن يغفر لها شقاوتها. ركن إلى صلح لم يدم طويلاً. إذْ ولّته ظهرها، مثل أي أنثى خبيرة، بمجرد أن تنازل لها. صادقت صبيًا بديناً يشتغل أبوه بالتجارة. قالت إن أهم ما في الرجل أن يكون غنيّاً. فقرر أن يكون غنياً منذ ذلك اليوم. عرف أن الذهب مصيدة الصبايا وسيد السوق.

بدأ بالمقايضة، واحترف التجارة.

واستمرّت تلك الرحلة منذ ذلك الوقت، منذ الصبا، حتى اليوم.

نجح في الحرفة وخسر نفسه. نجح في التجارة ونسي الحياة. لأنه لم يعرف أن الحرفة قائمة منذ الأزل على لعبة تقول إن الذهب لن يعطيك نفسه إلاّ إذا أخذ نفسك بالمقابل. لقد سمع حكيماً مجوسيّاً يتكلم بهذه النبوءة في كانو، ولكن مضاربات المعدن الشيطاني أُنسته التفكّر في النبوءة. أنسته أن العرّاف المجوسي كان يعنيه هو بالذات. لو تفكّر وقتها لكان ثمة أمل في الخلاص. في الخروج من اللعبة. ولكنه كان قد توغل بعيداً. فهل يطمع في الخلاص مَنْ خسر نفسه؟ هل يمكن أن يخسر الإنسان نفسه مرتين؟

الخسارة الوحيدة التي لن تليها خساة أخرى هي هذه الخسارة.

يستطيع الآن أن يستعيد التفاصيل التي بها تركّبت السلسلة. الصبيّة اللعوب دفعته إلى الذهب والتجارة. الذهب صنع له العداوات والخصومات. العداوات جرّدته من الشرف ورهن الخصوم عائلته في غفلة. لم يكن أمامه طريق إلاّ أن يهرب إلى الأمام فطلب المزيد كي يحرر نفسه وشرفه وعائلته، فغرق في الوحل، وتورّط أكثر. ارتكب الكبائر فاستحال الغفران. تذكر

الخسارات، خسارة الأولاد والشرف و. . النَّفس. تلظَّت في صدره جذورة وصعدت إلى الحلق. فزَّ من عينيه دمع كالصديد.

واسته الصحراء. اكتأب القمر. حشرجت النخلة فوق رأسه وانتحبت. توقف الماء عن اللغو ومسّد وجه الحجارة بحنان العشّاق. قالت له الصحراء مواسية: باطل. كله باطل. الذريّة باطل. الزوجة باطل. الشرف باطل. وأنت نفسك باطل الأباطيل.

ولكن هل يسمع صوت الصحراء مَنْ تغيّب عنها منذ الطفولة، وباع قلبه للبريق؟

(٢)

ادخلوا عليه «ماتارا». عجوز خلاسية رفيعة. نبيلة الملامح. طويلة القامة. تحمل عكازاً أنيقاً مصنوعاً من أبنوس الأحباش. أجلسها الحاج على الفرش الوثير بجواره. أتى لها الخدم بأطباق الكعك والفطائر ولحوم الحيوانات الصحراوية المجففة، وأكواب اللبن وشراب التمر. قضمت من الكعك ودخلت حرم المجاملات:

ـ أحمد الله الذي أمدّ في أيامي حتى دخلت هذا البيت وهو عامر بربٍّ البيت. وبقدر ما يسعدني هذا بقدر ما أحس بالمرارة لخلوّه من أهله. فلا زينة لبيت إذا لم يكتمل فيه أهله.

ـ صدقت العمة «ماتارا» وأطال الله في عمرها حتى تشهد في البيت أهلاً.

ضربت عجيزتها العجفاء بيدها النحيلة وهتفت:

ـ يسعدني أن أسمع هذا. يسعدني أن أراك سعيداً تتقلب في حضن بنت السبعة عشر عاماً.

اعترض الحاج:

ـ أخشى أن العمـة الجليلة لم تفهمني تمـامـاً. ليس في نيتي أن أدخـل للبيت امرأة تكون ربةً له.

ـ لا أفهم.

ـ أنت تعرفين أن شيطانة في صباي أخرجتني من الواحة ومن صوابي، وأريد أن أعود إلى الصحراء بامرأة أيضاً.

ـ ربما لا تعرف أن الزمن الغلاّب ختم على رأسي بعصابة نسج الشيطان خيوطها من النسيان وضعف الذاكرة، فبدأت أنسى لغة الأسياد والوجهاء.

ضحك الحاج بتسامح. حاول أن يختصر الطريق:

ـ إذن اسمعي حجتي وأجيبيني على سؤال. ماذا يفعل الرجل النبيل إذا نُكِب في امرأته وأولاده؟ ماذا يفعل إذا وجد نفسه وحيداً محاطاً بالخصوم. نفس الخصوم الذين دبَّروا المكيدة وباعوا أهله للنصارى في سوق العبيد؟

ـ إذا لم تخذلني الذاكرة فإن الرجل لا بدّ أن يردّ لهم الكيد.

ـ أحسنت! ولكن لن أستطيع أن أردَّ لهم الكيد إذا لم أستعن بصديق قديم. وهذا الصديق هو أنتِ!

ضربت العجوز صدرها بيدها:

ـ أنا؟

تمهّل البكاي فأضافت ماتارا بدهشة حقيقية:

ـ هل يعقل أن يستعين الداهية القديم، كبير تجار غدامس وسيِّد القوافل والذهب بامرأة عجوز تتحايل على الزمان بالتعاويذ حتى لا يدخل إلى بيتها زائر الفناء؟

ـ أنتِ الوحيدة!

ـ هل قلت الوحيدة؟

ـ ليس في غدامس مَنْ يستطيع أن يساعدني في صنع انتقامي غيرك.

ـ أفصح قبل أن يقتلني الفضول!

ـ اسمعيني إذن.

تمهَّل مرّة أخرى. قال فجأة:

ـ أريد أن أنال امرأة كبير التجّار!

انتفضت العجوز وأشاحت بوجهها ذعراً. هَدْهَدَت الفرش بيدها كي تبعد الشرّ. تمتمت بالتعاويذ السحرية فواصل البكاي بجسارة:

ـ امرأته الصغرى. أصغر نسائه وأجملهن. آخر زوجاته الأربع. أنتِ الوحيدة التي تستطيع أن تقوم بدور الوسيط. سأجزل لك العطاء بعملة الذهب. ذهب كثير. أمّا هي...

سكت لحظة. أغمض عينيه لحظات. فتحهما فجأة ونطق بالرقم الفلكي:

ـ سأعطيها خمسة وعشرين كيلاً من التّبر، و... ثلاثة أكيال من الذهب المصوغ. حلي لم تحلم امرأة بجمال صنعتهن.

وَمَضَ بريق في عيني العجوز. عاد الدَم إلى وجهها الشاحب. انتفض قلب الحاج بمجرَّد أن رأى الإشارة في عينيها. قالت بصوت آخر:

ـ أعترف يا سيدي الجليل أن ما تعرضه يكفي لشراء كل نساء الأرض، ولكن...

قاطعها الحاج ودفع في وجهها بالمغريات:

ـ سأدفع لك كثيراً. لن أبخل على الوسيط. صدقيني!

احتدَّ الوميض في عينيها. ابتسمت بخباثة يعرفها البكاي.

(٣)

قال مساعده دهشون بابتهاج الشهوانيين:

ـ صغرى زوجات كبير التجّار أشهى امرأة في غدامس. أشهى امرأة في الصحراء كلّها. نافسه فيها أغنى الأعيان. ولكنه لم يفز بها بفضل المال وحده.

لم يلحظ على وجه البكاي إشارة توحي بفضول فأكمل:

ـ أحسن سيدي الاختيار. كبير التجّار أيضاً حصل عليها بفضل الجنية ماتارا!

هتف الحاج فجأة:
ـ حقًا؟ لم أعرف ذلك من قبل.
ابتسم دهشون بدهاء:

ـ خبرة سيدي في أسرار التجارة هي التي أهدته إلى المفتاح. المرأة كالتجارة، للوصول إليها يلزم سرّ لم يمنّ به الله إلاّ على الأخيار.

ـ أوافقك. المرأة شَرَكٌ لامتهان المقايضة. بل إن المقايضة هي المرأة. خرجتُ للتجارة أول مرة كي أرضي امرأة.

ـ غداً يبدأ الفرح. غداً ينتهي الفرح.

ثم فرَّك يديه بشوق طفولي. ولكن الحاج قال بتصميم مفاجىء:

ـ أريدها بشهود. لن يتمَّ فرحي إذا لم يكن شهود.
أجفل دهشون ففكَّ البكاي عن لغته الغموض:

ـ أذلّني بشهود. باع ذريتي وامرأتي في سوق العبيد أمام الناس. وأريد أن أذلّه بشهود. أمام الناس. العين بالعين..

تجرَّأ المساعد وقاطعه بسبب الدهشة والفزع:
ـ ولكن هذا هو الشيء الوحيد في الدنيا الذي لا يفعله الناس إلاّ خفية. شرائع الأرض وشرائع السماء قضت فيه بالخفاء. أَلَمْ تقضِ فيه بالخفاء؟

ـ الشرائع اليوم شرائعي. لن يكون الانتقام انتقاماً إذا لم يسنّ المنتقم شرائعه حين يحين الانتقام.

أعقب ذلك بضحكة كئيبة، غامضة أيضاً.
تابعه المساعد. تكلم الحاج جادًّا:

ـ ستختار بعض الأشراف. إحرصْ أن يكمنوا في الدار المجاورة

للمخدع، فإنْ هتفت باسمك فأدخلهم عليَّ. هيء- هيء- هيء..

تابعه المساعد بنفس الجمود. تغضّن جبينه بسؤال وعلا وجهه شحوب. استمرَّ الحاج يسرد خطته:

- إحرصْ أن تأتي بكل الخصوم: إيدير. دعباش. بوحبّة. الدكراس. ولا بأس أن يكون الإمام بينهم. الوليمة ناقصة إذا لم يحضرها الفقهاء. هيء- هيء- هيء- هيء....

لم يعهد دهشون في سيده الضحك الخبيث، ولكنه أرجع غرابة طوره إلى غرابة اللغة. ظلَّ يحدِّق في البكاي جامداً مثل النّصب، إلى أن قرر الحاج أن يختم قصّته:

- سوف تدعوهم إلى وليمة حقيقية. ستبدأ في إعداد الوليمة من الليلة. هل تظن أنني أمزح؟ أَلَمْ تقلْ بنفسك منذ قليل إنه فرح؟ هيء- هيء- هيء...

جاراه دهشون بالضحك، وبعد لحظات وجد نفسه يقهقه في ضحك حقيقي، مُنكر، لئيم. في عينيّ الحاج برق وحي الجنون. تمادى واقترح:

- انتظرْ! الشيطان أَلهمني الآن بما هو أجسر وأجمل..

مال نحو دهشـون بوجه مجنون تماماً. قال بنبرة مخنوقة:

- لماذا لا تستدرج كبير التجار نفسه إلى الوليمة؟

فزَّ دهشون، استنكر:

- كبير التجار؟

- الوليمة مصيدة الوجهاء. الولائم أفخاخ صنعها الشيطان لاستدراج التيوس أمثال كبير التجّار! ها- ها ها..

قطع ضحكته القبيحة وعـاد ينسج خيوط المكيدة:

- سوف تستدرجه بالوليمة. سوف تستدرجه بالصلح. ستقول له إنّي أدعوه

إلى وليمة الصُلح. نعم. أخبره أني أعلنت التوبة وقررت أن أعتزل الخصومات والعداوات والتجارة. قلْ له أني تبت وندمت وانضممت إلى دراويش القادرية. ها ـ ها.. قلْ له أني سأخرج من الحلبة بمجرَّد أن يغفر لي. سأتخلى عن المكابرة والمعاندة وألتحق بالزاوية حال أنال مغفرته. هيء ـ هيء ـ هيء..

المكيدة فاقت كل تصوّرات دهشون فعجز عن مجاراته. تابعه ذاهلاً، جاحظ العينين.

(٤)

أَدخلتها عليه ماتارا من الباب الخلفي. قادتها من يدها حتى أجلستها بجواره على الفراش. صبيّة من صبايا الفردوس. عروس ترتدي ثياب العرس. تدس فتنتها وراء رداء فضّي مخطط. تطأطىء عينيها الكحلاوين في حياء العرائس فلا يزيدها خفر العذراوات إلّا سحراً وبكارة. يداها مخضبتان بالحنّاء. يدان صغيرتان مزبورتان بخطوط الأقحوان ورموز الجنّات. الأنامل مرصّعة بخواتم ذهبية تلمع رؤوسها بفصوص الحجر الكريم. على الصدر النّافر، المتمرد، المكابر، رأى قلّادة عجيبة الطراز من الذهب. بدخولها عبقت الدار كلها بأريج الفراديس. خليط من بخور وعطور ومستحضرات الزهور. طار به الدّوار وحلّق في سماوات الانتشاء. تمتم بذهول:

ـ الله! الله! الله!

علّقت ماتارا لأول مرة:

ـ أردت عروساً فجئتك بعروس. فهل وفيت بوعدي؟

ولكنه ردد في وجده:

ـ الله! الله! الله!

تبادلت نظرة مع العروس وعادت إلى الاسترضاء:

ـ علّني وفيت بالوعد. هل يرى سيدي أني وفيت بوعدي؟

خرج الحاج من دنياه:

ـ كيف تسأل ماتارا الحكيمة هذا السؤال وهي تعلم أني طلبت منها صبيّة من الدنيا فجاءتني بآية من فردوس، بملاك من السماء؟

مدّ يداً مرتجفة إلى الصدر المارد. داعب الحلمة النافرة براحته فأحس بالخَدَر يسري في جسده. هام مرة أُخرى بالتميمة:

ـ الله! الله! الله!

تورَّد وجه الفتاة ونكَّست رأسها. تدخلت ماتارا:

ـ على سيدي ألَّا يفزع الملاك بحضور الغرباء. الملاك لا ينقاد إلَّا في الخلوة!

ـ ماذا أفعل إذا أفقدني ملاكك صوابي ووقاري؟ هل في الدعابة إثم؟

ـ لا إثم بين رجل وامرأة. خلقهما الله للالتحام والعناق. هل يمكن أن يكون قد خلقهما لغير ذلك؟

ـ الله! الله...

ـ إذا اجتمع رجل وامرأة فإن حضور طرف ثالث هو الإثم. فليسمحْ لي سيدي بالانصراف.

ـ ألن تشاركينا المائدة؟

ـ مائدتي في عطيتي!

صفق الحاج بيديه وابتسم. دخلت جارية زنجية ووقفت عند الباب في خشوع. خاطبها الحاج وهو ما يزال في دنيا الغيبوبة:

ـ رافقي خالتك إلى الفناء وقولي لدهشون أن يعطيها حاجتها.

قالت ماتارا وهي تهمُّ بالخروج:

ـ سمعت هَرَجاً في الناحية الأخرى أفزعني.

ابتسم الحاج. قال:

ـ هؤلاء ضيوفي. دعوت ضيوفاً. أَلَمْ نتفق على أنني عريس؟

ابتسمت ماتارا بخبث قبل أن تتوارى خلف الباب.

(٥)

برغم أن الأنثى كانت السبب في رحلة شقائه، إلاَّ أنه لا يستطيع أن يحسب نفسه عضواً في فريق الرجال الشهوانيين الذين لا تستهويهم النساء فقط، ولكنهم لا يرون في الحياة هدفاً يستحق الممارسة غيرهن. وإذا سمح لنفسه بأن يستثني بعض المغامرات العابرة مع نساء قادتهن إليه الصدفة أثناء عبور الواحات، فإنه يستطيع أن يحسب نفسه عضواً في الفريق الآخر، الذي يقف على النقيض. ولزاماً عليه أن يعترف الآن أن السبب ليس زهداً في النساء، أو نفوراً من العلاقات العابرة، خاصة وأنه يعرف أن الدافع الأول في تغرّبه وخروجه كان امرأة، ولكن السبب في انقلاب الوسيلة وتحوّلها، مع توالي الأيام والأسفار، إلى غاية. خرج من الواحة وراء بريق التِّبر، ليس حبّاً في التِّبر نفسه، ولكن كي يتخذه شَرَكاً يقتنص به قلب المرأة التي أذلَّته. كان حكيماً في إدراك سرّ المرأة، ولكن غاب عنه سرّ المعدن الرهيب. خانته الحكمة فاستدرجته عملة المجوس والشياطين وقادته من أنفه طوال أمد يزيد عن النصف قرن دون أن ينتبه إلى أنه هو الذي وقع في الفخ الذي أراد أن ينصبه لاصطياد قلوب النساء في بداية صراط الإغتراب.

مرة واحدة أقام علاقة جدية بامرأة.

كانت ماردة خلاسية من كانو. مديدة القامة، ببشرة أبنوسية ملساء، في محجريها تدور عينان دعجاوان وضيئتان بالاندفاع والغموض. على يديها ذاق صنوفاً من فنون الغرام لم يعرفه لا من حَلاله ولا من نساء العلاقات العابرة في الواحات. يصل من الرحلة فتتزيَّن وتتطيّب وتتدخّن بالبخور. تدعك جسدها الأملس بزيوت من مستحضرات العشب والزهور وترتدي ثوباً فضفاضاً يزيد جسدها جمالاً وغموضاً وسرّية. تستقبله في الدار المفروشة بكليم من جلود الوحوش، المبخَّرة بأطايب ساحرات الأدغال وتقدمّ له غليون الخشخاش. يبدأ في سحب أنفاس الفردوس على رائحة الشواء. يرفع قمر الأدغال رأساً

خجولاً فتبدأ طقوس مجوسية أخرى. طقوس تتقنها الماردة الخلاسية، فتخرج به من خشونة الصحراء، صحراء الحياة والناس والمقايضة، لتدخل به باباً سرياً آخر، يفضي إلى حرمات النعيم.

استمرّت العلاقة السحرية سنوات، ولكن لا بدّ أن يأتي اليوم الذي يملّ فيه الإنسان الجاحد من فردوس الآلهة، ويبحث عن معول يخرِّب به الحرم.

استدرجه أصحابه التجار إلى مغامرة عابرة مع حبشيات مستهترات، ولم يكن من الصعب أن يصل خبر المغامرة الطائشة إلى الماردة الخلاسية. عاد في ليلة فوجدها محمومة. ترش صدرها العظيم بالماء البارد وتهذي بالهوسا. اختفى غموض الأدغال في عينيها الكبيرتين وعلا شفتيها زبد. سألها عن مصابها المفاجىء فأشاحت بوجهها، حاول أن يداعبها فاستكبرت ونهرته بخشونة لبؤة. مرّر يده على شعرها المفلفل فأجفلت. احتضنها وراودها فاستنكرت ودفعته عنها. لاحظ تورّم جفنيها وشحوب الوجنتين. لم يكن صعباً أن يَحْدُس السبب برغم أنه لم يتخيّلها رقيقة، حساسة، غيورة، إلى هذا الحدّ. في الصباح قدّمت له مفاجأة أخرى:

ـ من حسن حظّك أني لست ساحرة حتى أُدبِّر لك القيد الخفي الذي يشدّك إليّ، كما لا أملك المال حتى أكتري ساحرة تفعل ذلك نيابة عنّي. فقدت الأب، وكذلك الأخ، حتى لا يكسرا رقبتك انتقاماً لي. أنت محظوظ ومحبوب من الآلهة، وأنا بائسة ولا أملك سلاحاً غير قلبي الذي وهبته لك فغدرت به.

فاضت عيناها الواسعتان بدموع وأكملت قراءة الإتهام:

ـ ما أشقى مَنْ يهب قلباً هذه الأيام! ما أشقى مَنْ لا يملك سوى قلبه هذه الأيام!

لاحظَ أنها أعادت هذه العبارة القاسية ثلاث مرات كأنها تقرأ تعويذة مجوسية ورثتها عن الجدّات الحكيمات، ثم.. خرجت.

خرجت إلى الأبد.

هربت. بحث عنها في كل كانو فلم يجدها. سخَّر التجّار والأصحاب والعرَّافين فعجزوا أن يدلّوه على الطريق إليها. وأكثر ما آلمه هو غفلته. وهي غفلة ناتجة عن الجهل بطبيعة ماردات الأدغال اللاتي لم يكن بإمكانهن إتقان طقوس الفردوس السريّة لو لم يكنّ عاشقات. وهو لم يغفر لنفسه جهله بثراء هذا القلب الحساس، المجهول، كما لم ينسَ حريقاً شبَّ في صدره وفجيعة ما زال يحملها معه إلى اليوم.

(٦)

استعاد تلك اللحظة بعد أسابيع وهو يضع رقبته تحت رحمة السيّاف. ولو لم تستعر اللحظة هذه الروح الإعجازية لما قايضها برحلة جنونية مدهشة اسمها الحياة وقايضها بها وهو يهب رأسه للجلّاد ويتأهب للعبور الجانب الآخر.

واللحظة الأسطورية بدأت كما تبدأ أي لحظة مماثلة بين رجل وامرأة. بل بين ذكر وأنثى.

استعان بغليون الخشخاش كما علَّمته ماردته الخلاسية الضائعة ليتزوَّد بالشجاعة ويقتل الجبن. فالرجل جبان بطبيعته مهما ادَّعى الشجاعة عندما يتطلب الأمر تخريب القداسة ومدَّ اليد إلى ثمار شجرة الحرام. ولكي لا ترتعش اليد ويسيطر على رجفة الجبن الخفيّة استعان بالخشخاش و. . تجاسر. ذكّرته بشرتها الحريرية ببشرة ماردته المفقودة. ولكن ما لم يعرفه، ما لم يذكّره بأي شيء، ما استعاده حتى وهو يقف على حافة الفناء، هو ما حدث بعد اللمسة، بعد التماس البكر، الأوّل. الانطباع الذي خلق الأسطورة، وأعطاه العزاء فقايض اللحظة السماوية بحياة لم يعتقد يوماً أنه يستطيع أن يقايضها بأي شيء آخر حتى لو كان الفردوس والخلود. فهل هي وَهْم؟ أم لحظة شيطانية، جنونية؟ هل تقدر مخلوقة وديعة ملفوفة بالخَفْر والحياء أن تصنع معجزة تحرق تجربة الحاج البكاي وتحوّل حكمة الصحراء الكبرى إلى رماد وهباء؟ أم أن هذه اللحظة هي التي قايض بها جدّنا الأوّل ملكوت الله

فتنازل بسببها عن الفردوس والسعادة واستبدلها بشقاء الأرض؟ نعم. هذا هو التفسير الأقرب. هذا هو التفسير الوحيد الأقرب لحقيقة اللحظة وجلالها.

فبعد التماس استعرَت الجنيّة بألف شعلة. استحال الخفر والحياء والوداعة إلى نار. وتحوّل هو، الذي هذَّبته تجارب الأسفار وزوَّدته الصحراء بالحكمة والوقار، إلى فراشة وديعة تحترق في النار. تبادل مع الأنثى الخجول التي داعبها منذ قليل وعاملها كطفلة، الأدوار. تحوَّل هو إلى طفل جهول وتولَّت هي التربع على عرش الخبرة والحكمة.

هذا الجنون كاد ينسيه كلمة السرّ. جنحت به اللحظة الجنونية حتى كاد ينسى مفتاح الخطّة ويفسخ المكيدة. ولو لم يكن هاجس الانتقام أقوى من كل شهوة لما أفاق من الحلم. لو لم يدفع ثمرة العمر وكنوز الأرض ثمناً لتدبيره لما صاح في الغمضة الأخيرة التي سبقت انقشاع اللحظة: «دهشون! دهشون! دهشون!». خرج النداء كحشرجة حيوان ذبيح، كخوار ثور. ولكن دهشون المستنفر الذي يبدو أنه ملَّ، وطال به الانتظار في الدار المجاورة، استجاب للنداء في الوقت المناسب، وهَرَعَ إليه مصحوباً برتل الوجهاء. توافق دخولهم مع إلشّعفة، الشهقة، صيحة البعث، أو، ربما، زفرة الاحتضار وابتهال النَّزْع الأخير. تفقدهم بنظرة غائبة، بطيئة، ذاهلة. استعاد الحياة والأنفاس ورتّل بروح مَنْ عاد من رحلة في الفناء:

ـ الحمد لله!

إلى جواره، في المخدع، بدأت المخلوقة النارية تنهش وسادة الجلد جاحظة العينين. بين الرجال المتجمعين في المدخل تبيّن كبير التجّار. ثم بدأ يكتشف الخصوم واحداً، واحداً.

ساد سكون الصحراء.

عاد يتفقدهم مرة أخرى. توقف عند كبيرهم الذي علّمهم المكائد والعداوات والسّحر. رأى في وجهه ألوان قوس قزح. أدرك لأول مرة ماذا حدث بالضبط. عاد إلى الحياة، إلى الواحة المكبّلة بتلال الرمال فغمرته

سعادة لم يتخيّل أن مخلوقاً يمكن أن يفوز بها على الأرض. سعادة غامضة، خفية، ولكنها، يقيناً، سعادة كئيبة.

جرح جلال الصمت عندما رتَّل بصوت عالٍ:

ـ الحمد لله!

فيما استمرَّت المخلوقة النارية تلتهم سيور الجلد المتدلية من الوسادة. حول شفتيها الشهيتين فزَّ زبد كثيف.

(٧)

رفع بابا رأسه عن كدس الأوراق الصفراء. لوّح بيده المبتورة في الهواء على عادته وسأل المتهم:

ـ هل تقرّ بالتهمة البشعة الموجهة إليك؟

ابتسم الحاج البكاي. سكت طويلاً قبل أن يجيب:

ـ وهل يحتاج القاضي إلى براهين أخرى لإثبات تهمتي؟ هل تحتاج إلى اعتراف لإثبات جرم وقف عليه كل الوجهاء شهوداً؟

تابعه بابا بفضول. استمرَّ يتفحّصه بعينين جاحظتين ثم سأل مرة أخرى:

ـ وما الذي يحمل رجلاً وجيهاً ووقوراً مثلك على ارتكاب هذا العمل القبيح؟

أفلت الحاج ضحكة ساخرة. عبث بمنبت لحيته الفضية قبل أن يجيب:

ـ وما الذي يجبر رجلاً وجيهاً ووقوراً مثلك على أن يقطع الصحراء من بلاد شنقيط إلى تينبكتو، ومن تينبكتو إلى «واو»، ومن «واو» إلى غدامس، إنْ لم يكن شهوة الانتقام؟

تبادل الحضور نظرات ذات معنى. تهامس بعض الوجهاء. تشارو أعوان القاضي. أمّا بابا فخرج من المأزق ببراعة الثعالب. تضاحك وواجه الاتهام

على أنه دعابة. لوَّح بمعصمه المقطوع في الهواء وعلَّق بتسامح مفتعل، مسموم:

ـ يخطىء المتهم الجليل إذْ يلقي في وجه القاضي بهذا الإتهام الشنيع. فالصحراء شاهد على غاية مسعاي. وإذا كتب ليّ القدر أنْ أشقى وأتنقل بين الواحات فإن ذلك حدث لتنفيذ العدالة وليس لإنزال قصاص مزعوم في حق أعداء وهميين خلقهم خيال الفضوليين والعاطلين. يستطيع الشيخ البكاي أن يصدّق أو يكذّب: لا أعداء لي في هذه الصحراء!

انحنى فوق كدس الأوراق لحظة ثم رفع رأسه فجأة وأكمل بلؤم:

ـ ولكني لا أنكر أني أتعقب الخطأة أينما حلّوا إحلالاً لملكوت العدل. هل ترى في الصحراء مهمة أكثر قداسة من إقامة عدل الله؟

استمرَّ الحاج يداعب لحيته التي انحسر عنها لثامه، ويبتسم بغموض. قال بنبرة ساخرة:

ـ لا اعتراض. حاشا أن يعترض متهم على حكم القاضي.

هبَّ الشنقيطي:

ـ انتظر. أنا لم أحكم بعد..

ـ أعرف أنك لم تنطق بالحكم، ولكني أعرف أيضاً أنه حكم جاهز منذ زمن بعيد. جاهز قبل أنْ أُجهز على العرَّافة في «واو»، وقبل أن أُصفّي الحساب مع الإمام. جهَّزته وأنت ترى أُمَّك تنتقل بين أحضان الرجال، وأعددت له الصيغة القضائية عندما انخرطت في مدارس مراكش. نعم. أراهن أن دراسة علوم القضاء لم تكن سوى حيلة صغيرة لإعداد الصياغة: صياغة المنطوق القديم الذي أصدرته في الطفولة للانتقام، لإشباع هذه الشهوة التي أوافقك أنها لا تعادلها شهوة أخرى. لقد فركت يديك عندما حدثت أول جريمة في واحة آزجر وقلت لنفسك: «الحمد لله الذي هَدَاني إلى «واو» ووهبني الفرصة كي أُحُزَّ الرقاب!». ولكن الفاعل أفلت. أراهن أن

حسّك القضائي لم يخنك، وكنت تعرف أني الفاعل الحقيقي، وعندما هربت أردت تقديم قربان آخر لعدالتك المزعومة، لعدالة آلهتك المجوسية، ووضعت يدك على رقبة الدرويش المسكين. ولو لم يبعث له الله النذير، لو لم يبعث له بكبش الفداء لذبحته إرضاء لإلّه الانتقام. ولكن حادثة الكبش، معجزة النذير، كانت إشارة سماوية لم تغبْ عن سلطان عاش كل العمر وهو يتعامل مع نبوءات العرّافين ورموز السحرة. السلطان رأى في الواقعة إيماءة إلّهية تهدد مملكته وكان ملزماً بإبعادك. ولكن هيهات أن يتراجع عن صراط الدَم من جُبِلَ على الكراهية في الطفولة. تناولت عصاتك وسافرت في أثري إلى غدامس..

قاطعه القاضي:

ـ تريد أن تقول إني لم أتولّ القضاء في الواحة إلّا كي أنتقم منك. ألا ترى أن في هذا طعناً في مرسوم الوالي وتشكيكاً في تزكية القائمقام؟

ـ لا أرى في هذا طعناً في أي مرسوم، ولا تشكيكاً في تزكية القائمقام. من أين للوالي أو للقائمقام أن يعرفا سرّك؟ من أين لهما أن يكتشفا الشهوة التي ترقد في قلبك؟

ـ لا تنسَ أنك اعترفت منذ قليل، وأمام هذا الجمع من الشهود، بجريمة أخرى، بل بجريمتين سابقتين، غير تهمة الزّنى.

ـ ليطمئن القاضي. لم يكن الاعتراف سهواً أو غفلة منّي. فعلت ذلك متعمِّداً كي أُثبت لك أن الإنسان لا يعنيه أن يُتّهم بثلاث جرائم إذا كانت واحدة من هذه الجرائم تكفي للنطق بحكم يفصل الرأس عن الرقبة. فأنت، يا سي القاضي، لن تستطيع أن تقتصّ منّي إلّا على جريمة واحدة ما دمت لا تقدر أن تقتلني ثلاث مرات. هي ـ هيء ـ هيء.. هل يستطيع وحش الانتقام أن يجبر القاضي على أن يذبحني ويحزّ رأسي عن رقبتي ثلاث مرات؟

ـ لا يدهشني أنك اخترت الجزاء. لا يدهشني أن تنطق بالحكم نيابة عنّي.

ـ إذا قطعت رأسي بالتهمة الأولى فلن تستطيع إلّا أن تسلخ جلدي بالتهمة الثانية. أمّا بالثالثة فستمثّل بجثتي. ولكن الشاة لا يهمّها سلخها بعد ذبحها. هل نسيت؟ هيء ـ هيء ـ هيء..

قطع ضحكته العصبيّة. ارتدى قناعاً آخر. أُسدَل على وجهه عمامة من اكتئاب. قال:

ـ قلب القاضي كبير وسوف يغفر لي دعاباتي القاسية. ولكن ما أتمناه حقّاً هو أن يتسامح إلى النهاية ويأذن لي باعتراف آخر، أخير.

همهم جمع الوجهاء في الزاوية فواصل الحاج البكاي:

ـ وإذا كنت أعتذر الآن عمّا سلف فهذا لا يعني أني أتراجع عمّا قلته منذ قليل عن الانتقام. بل إن اعترافي الآن سيعطي هذه الشهوة الشيطانية قداسة إلّهية خاصة سترفّع بها عن باقي الشهوات الأرضية الذميمة. وعلى جناب القاضي ألّا يندهش إذا سمعني أقول إني لم أقصد إدانته إطلاقاً عندما تحدثت عن سرّه، بل أعترف الآن أني أعتبر نفسي قَريناً له وشريكاً وسنداً في كل ما يتعلّق بالانتقام.

اعتدل في وقفته. رَمَقَ صف الوجهاء. التفت إلى السجّان الزنجي العملاق كأنه يستأذنه. سحب نفساً عميقاً وبدأ مرافعته بسؤال:

ـ هل يصدِّق القاضي أن بإمكان الإنسان أن يضحّي برصيد الرحلة الجنونية مرة واحدة مقابل نزوة عابرة حتى لو كان مجنوناً؟

استوقفه بابا ملوِّحاً بيده البتراء:

ـ انتظرْ. فليحاسبني ربّي إنْ كنت فهمت شيئاً.

ـ صبر القاضي على ثرثرتي طويلاً، فليكافئه الله إذْ يصبر عليّ قليلاً. أردت أن أقول إن الرجل لا يقدِّم ثمرة تعبه في حياة الصحراء والشقاء كي ينال امرأة مهما كان غبيّاً. وإذا فعل ذلك فلا بدّ أن ثمة سرّ أكبر. ولا أخفي أنه سر أرى أننا نشترك فيه. إنه نفس السرّ الذي استعرته من قماط الطفولة وحملته معك

في أسفار الصحراء لخطاة تنزل بهم القصاص. إنه الانتقام يا سي القاضي. رغبة الانتقام هي التي دفعتني لأن أغسل يدي بالدَم في «واو» كما غسلت جسدي بالخطيئة في غدامس. لا تصدِّق أني قتلت العرَّافة تيميط كي أستعيد امرأتي وأولادي. لا أنفي أن هذا مبرر ذكي يصلح للدفاع عن النفس أمام قضاة يبحثون عن مبررات. ولكني أعرف أيضاً أنه مبرر عديم النَّفع أمام قاضٍ يخفي في قلبه سرّاً مثل الشنقيطي بابا. وهذا الاكتشاف لا يحتاج إلى فراسة خاصة. هذا اكتشاف لا يستدعي أن تتمتع بمواهب العرَّافين أو السحرة. إنه يحتاج فقط إلى أن تملك قلباً مثل قلبه وتتخذ من هذا القلب كهفاً تخفي فيه نواياك السرِّية، مثل نُسَّاك الصحراء تماماً. إنهم يدارون هزيمتهم في الخلوات والكهوف، ويقتلون أنفسهم بالصيام عشرات السنين ليطعموا غول الانتقام من العالم. غول العداوة لبني الإنسان. نعم. غول الانتقام هو الذي أفقد الحاج البكاي صوابه فقدَّم جوالات التِّبر، ثمار الشقاء والأسفار والجريمة، رصيد الجنون والحياة، مقابل أن ينال امرأة كبير التجّار!

التفت إلى صفِّ الوجهاء فالتقى نظره بكبير التجار. نَكَس الخصم المهزوم رأسه فواصل البكاي خطابه بانتشاء وحماس:

ـ أستطيع أن أقسم أن الله لم يخلق شيئاً ألذّ من لحظة الانتقام. أستطيع أن أقسم أن الفردوس في لحظة الانتقام.

تعالت أصوات الاحتجاج. سمع الحاج احتجاج الفقيه:

ـ أستغفر الله من تجديف المجوس. أعوذ بالله من قَسَمِ الزُّناة.

أسكتهم القاضي بإشارة من معصمه المبتور، فواصل البكاي المرافعة:

ـ تظن يا سي القاضي أني اخترت الجزاء بمكيدتي الأخيرة. يؤسفني أن أقول إن التوفيق لم يحالفك هذه المرّة. لقد اخترت جزائي منذ زمن أبعد بكثير. اخترت قصاصي منذ استسلمت للغواية الأولى فتغرَّبت عن نفسي، وعن الصحراء، بالخروج طلباً للتِّبر المشؤوم إرضاء لها. ولكني لم أفهم جوهر اختياري إلاَّ أخيراً. لم أفهم خطيئتي إلاَّ بعد فوات الأوان. ولم يكن فقدان

امرأتي وأولادي إلاَّ حلقة صغيرة من هذا القدر. وقد أيقنت بهذا المصير نهائيّاً عندما وصلت طرابلس متأخراً. وصلتها مُحَمَّلاً بأثقال التِّبر كي أحرر العائلة. ولا أخفي عليك أني حاولت طوال الرحلة أن أختنق نداء مجهولاً ظلَّ يحدثني طوال الوقت باللاجدوى. وعندما وصلت ووجدت السفينة قد أبحرت قبل وصولي بيومين لم أفاجأ كثيراً. لحظتها قررت أن أمضي في الصراط الذي رسمه لي قَدَري فبدأت أنسج مكيدتي الصغيرة. ها ـ ها ـ ها.. قررت أن أكافىء نفسي على المتاعب وأعطي غول الانتقام حقَّه. وإذا كنت قد تجاسرت منذ قليل وتحدثت عن لذَّة الانتقام فليسمح لي القاضي باعتراف أخير.

تَلفَّت حوله بهدوء. رمق الخصوم بنظرة انتصار. اعتدل في وقفته. أومأ له القاضي أن يتابع. برقت مقلتاه بوميض خبيث. هَرَشَ رأسه وحَدَج غريمه قبل أن يقول:

ـ فليسامحني الله ولكن لذَّة الانتقام تساويها لذّة واحدة لم تخطر لي على بال وأنا أنهمك في تنفيذ خطتي. لم أكن من أنصار الشهوات يوماً ولم تستهوني النساء منذ استبدلت الغاية بالوسيلة ونسيت الهدف من تكديس الذهب، ولكن امرأة كبيرة التجار، هذه المخلوقة الوديعة، الخجولة، الصغيرة، قَلَبت خطتي وقدَّمت ليّ الدليل على أن ثمة شيء آخر يستطيع أن يساوي نشوة الانتقام. شيء اسمه العناق! إني أشعر بالعار إذْ أتحدَّث أمام خصمي القدمي عن حَرَمِهِ المصون، ولكن الإعجاز أنها منحتني سعادة فاقت سعادة الانتقام نفسه. لا أُفشي سرّاً إذا قلت إنها منحتني أتعاب الرحلة كلها في لحظة واحدة. دفعت لي ثمناً يفوق جوالات التِّبر التي دفعتها لها. قلبت المقايضة القديمة عندما أضعت الطريق إلى المرأة في غمار بحثي عن سلاح الإغواء، فأعادتني، بالصدفة، إلى قلب المعادلة. وجدت حواء الحقيقية التي أضعتها عندما كنت منهمكاً في صنع شَرَكَ الانتقام. ولكن الإنسان لا ينال السعادة إلاَّ بعد فوات الأوان!

التفت إلى كبير التجّار وقال بصوت هامس:

ـ صدِّقني أيها الكبير الفاضل أنك كسبت امرأة لا وجود لمثلها إلاَّ في الفراديس. وليطمئن السيد الفاضل أني سأحمل لها الذكرى إلى يوم أبعث حيّاً. هذا دَينٌ عليَّ!

سكت، ثم سأل فجأة:

ـ ولكن قلْ لي: هل ما زالت تلتهم وسائد الجلد؟

أعقب السؤال بقهقهة شريرة، شيطانية، كريهة.

(٨)

لم يندهش أحد في الواحة عندما انتشر الخبر بعد يومين.

فبعد خروج كبير التجار من دار القضاء ذهب إلى بيته. أُغلق الباب بالمزلاج وشنق نفسه.

أمَّا القاضي الشنقيطي فلقي مصرعه أيضاً بعد ثلاثة أيام من تنفيذ الحكم في الحاج البكاي.

وما أدهش الأهالي هو أن مصرعه حدث بنبوءة من البكاي، وفي اليوم الذي حدَّده تماماً. فقيل إنه قال في نهاية المرافعة: «نحن لسنا رفيقان في سرّ الانتقام وحده، ولكن النجوم ربطتنا بمصير واحد أيضاً. ستموت بعدي بثلاثة أيام، وبنفس الطريقة» فسخر منه القاضي وسأله: «هل هذه نبوءة؟ هل أنت عرَّاف أيضاً؟». ولكن المتهم اكتفى بابتسامة خفية كأنَّه يذكِّر بابا بسيرته القديمة مع قاطع الطريق الذي بَتَر يده عملاً بشريعة العين بالعين والسن بالسن.

بعد ثلاثة أيام، في الموعد المحدد، تحققت النبوءة.

هاجمه ثلاثة أشقياء، وفي رواية أخرى أربعة، وهو في طريقه إلى بيته.

قيَّدوا يديه وراء ظهره وذبحوه بوحشية. رويت أساطير كثيرة عن الأحداث التي أعقبت هذا العمل البشع. قالوا إنه ركض وراءهم وهو ينزف ويصيح

بحشرجة ذبيح. وأشاع آخرون أنه وصل دار القضاء، ولفظ أنفاسه الأخيرة هناك..

ظلَّت الواحة الفضولية المعروفة بظمأها التاريخي للأساطير والشائعات تتحدث طويلاً عن المحاكمة وما نتج عنها من أحداث دموية. تحدَّثوا أيضاً عن النبوءة فقالوا إن البكاي اللئيم اشترى قُطَّاع الطرق بالتِّبر قبل أن يموت كي يتولّوا أمر القاضي إذا نفَّذ فيه حكم الموت، فدبَّر مكيدة وهو في القبر أُلعن من تلك التي دبَّرها وهو على قيد الحياة.

٢ ـ دياسبورا(*)

«في ذلك الزمان صعد عبيد نبوخذنصّر ملك بابل إلى أورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار. وجاء نبوخذ نصَّر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها. فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمّه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه وأخذه ملك بابل في السّنة الثانية من ملكه. وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرّب وخزائن بيت الملك وكسّر كل آنية الذّهب التي عملها سليمان ملك إسرائيل في هيكل الرّب كما تكلّم الرّب. وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبي وجميع الصناع والأقيان. ولم يبق أحد إلاَّ مساكين شعب الأرض».

العهد القديم
سفر «الملوك الثاني»
الإصحاح ٢٤

(*) دياسبورا: (كلمة يونانية) الشّتات. السّبي. الانتشار.

(١)

يكاد أهل الرأي ورواة الأثر يجمعون أنّ أسطورة واحدة لم تكن لتستقيم في الصحراء إذا لم يشارك في صنعها الجنّ وينفخوا فيها من روحهم. وبرغم ما في هذا الرأي من تطرّف إلاّ أن الطريقة التي توارثتها الأجيال عن أحداث صنعت زوال «واو» تجبرنا أن نصدِّق الصيغة الأسطورية التي رآها أهل الرأي ورواها أهل الذكر.

ولكن أهل الخفاء لم يتولّوا صياغة الأسطورة فقط، بل شاركوا في صنع الأحداث وساهموا في إزالة معبد الذهب ومحوه من الصحراء الوسطى. في رواية أخرى أنهم أشقياء بني آوى، تنادوا وجمَّعوا أشتاتهم لأخذ الثار والانتقام من آزجر. ولكن حتى هذه الرواية لم تنفِ مشاركة الجن في الغزو. فقيل إن زعيم بني آوى استنجد بهم وذكَّرهم بتحالف قديم أُبرمه الأسلاف، فهرعوا للنجدة وتنكَّروا تحت أقنعة ابن آوى، وهو وحش غدَّار أيضاً تتبرَّك به القبيلة الشقية، ولا تتخذ من رأسه تاجاً في الغزوات أو الحفلات فقط، ولكنها تعتبره سَلَفاً، جَدّاً، إلّهاً تُقَدَّم له الذبائحُ وتُسفح لإرضائه القرابينُ. ولكن عشّاق التيه، الذين يسمّيهم أتباع القادرية زُهَّاداً وطلّاباً لله، أجمعوا أن محاربي بني آوى حتى وإنْ شاركوا لم يكونوا سوى قلّة، لأنهم لن يقدروا على الفتك ببنيان «واو» المرصوص في ساعات مهما كان عددهم. وأرجعوا البلاء إلى تدخل الجن. وأضاف عشّاق الله والتيه أن الخليط خرج على «واو» في الهزيع

الأوسط من الليل من فم الظلمات المرفوع إلى السماء بقرون الشياطين، وانتشرت الأشباح في السهل كلّه قبل أن تنقضّ وتبدأ العدوان.

في حين روى الرعاة وسكان الكهوف المجاورة رواية شيقة عن الغزوة. قالوا إن الحلف تكوَّن من الأجناس الصحراوية الثلاثة: الجن والإنس والحيوان. فقبيلة بني آوى لم تتجاسر على الحنث بالعَهْد القديم وتعبر الحدود إلّا بعد أن تشجَّعت بحيوانها المؤلَّه الذي خرج لها من الأدغال وسار في المقدمة مقرِّراً أن يتولّى الأمر بنفسه ويثأر لقبيلته من أعدائها القدامى. وحكى الرعاة وهواة الخرافات تفاصيل كثيرة عن الطقوس المجوسية التي مارستها القبيلة قبل أن تفوز بمباركة ابن آوى الإله. وقال هؤلاء الهواة أن زعيم القبيلة ذبح بنفسه سبعة أطفال وثلاث عذراوات قرباناً لإلَه الغدر قبل أن ينال موافقة الحيوان ويأخذ الإذن بالتحرّك. وقد تولّى أهل الخفاء دور إخفائهم عن الأنظار فهرَّبوهم عبر النَفَقَ الرهيب الذي يبدأ من إيدينان ويفضي إلى الصحاري المتاخمة للغابات. وما أن نزلوا إلى السهل حتى حلَّ فيهم الجن جميعاً، فبدأت وحوش ابن آوى تنهش العباد وتمزِّق الأجساد، فيما تولَّى الجن والإنس ضرب الأعناق، وتحطيم المصارع والأبواب، وإشعال الحرائق في البيوت والدكاكين والأزقَّة.

ولكن عشَّاق الله والتيه الأبدي انتحلوا الأعذار للجن ووجدوا المبررات للغزو. فردّدوا، بنزعتهم التشكيكية، أو فلنقلْ الزهدية، أن أهل الخفاء جاءوا ليستردوا كنوزهم، ويأخذوا ثروتهم القديمة التي آلوا على أنفسهم أن يجمعوها في الجبل الخفي وتعاهدوا بشأنها مع أهل الصحراء بأن يتجنّبوها. ولمَّا كان أهل الصّحراء هم الذين حَنَثوا بالوعد وخانوا العَهْد فقد كُتِب عليهم القصاص ورماهم القدر بالبلاء.

(٢)

لم تشهد الصحراء، في تاريخها، غزوة خلت من بطولات.

والمثير في بطولة الغزوة الأخيرة هي أن صاحبها كان السلطان نفسه. فجاء

أن كثافة الغُزَاة وشراسة القوى المغيرة تكفي لإزالة «واو» في ساعات، ولكن بسالة السلطان في دفاعه عن فردوسه الأرضي هي التي أُجبرتِ الأعداء على التراجع وردَّتهم إلى جبل الظلمات مع طلوع الفجر. وروي أنهم فشلوا في إصابته طوال العراك. جرَّبوا الحِرَاب، والسيوف، وكذلك النبال المسمومة دون أن يُصاب الجنّي «أناي» بأي جرح. سلَّطوا عليه ابن آوى ليمزقه بالنّاب ولكن الوحش لم يفقد أنيابه فقط، بل ضاع بضربة وحشية من سيف السلطان. تكأكأ عليه الحلف الثلاثي، المزيج البشري، الحيواني، الجاني، دون أن يفلح الخليط في إصابته بأذى. عادوا في الليلة التالية وواصلوا العراك. حصد منهم، بسيفه الأسطوري، في رواية أخرى الذهبي، العشرات بل المئات. ولم يتمكنوا منه إلَّا بعد تدخُّل خصمه القديم ايدكران المجدور!

قفز العرَّاف المجوسي إلى زعماء الفرق الثلاثة وأمر بإيقاف القتال. وقف أناي على الرابية، ينثر الزَّبَدَ ويغتسل بالعرق، أحاط به الوحوش من القبائل الثلاث في حين اجتمع ايدكران مع الزعماء على إنفراد. قال لهم: «إني أعرف سرَّ هذه التعويذة. السلطان محصَّن ضد كل الأسلحة ولن يموت إلَّا بالحبال». بدأت معركة حبال المَسَد. كان المقاتلون يلوِّحون على رقبته حبال الوهق ولكنه نجح طوال الوقت أن يصيبها بسيفه الذهبي العجيب ويمزقها في قطع صغيرة. اقترب النهار ففرَّ الغُزَاة واعتصموا بالجبل. في الليل عادوا من جديد، مسلَّحين بخطة جديدة. أشار عليهم إيدكران أن يستعملوا طريقة الإطاحة بالجمال الفتيقة. أحاط به أشرس المقاتلين. انقسموا إلى فريقين كبيرين. شدّوا حبالاً طويلة من المَسَد الطازَج. تحركوا نحو الرابية يقودهم ايدكران بنفسه. أقبل عليهم السلطان شاهراً سيفه الخرافي فسارع الوحوش وطافوا حوله بالحبال الشرهة. استطاع أن يمزِّق حبالاً كثيرة ولكن حركة السيف في يده كانت أبطأ من سعي الأعداء فتمكَّنوا منه والتفَّت بعض الحبال حول رقبته كثعابين الأدغال. استمرَّ يقاوم. قطَّع حبالاً أُخرى ولكن الغزاة كانوا قد احتاطوا للأمر فهجم فريقان آخران بحبال جديدة تضمن استمرار الإلتفاف وشدَّ الخناق. استمرَّ السلطان في المقاومة واستمرَّت الوحوش في خنقه بالحبال إلى أن صاح إيدكران: «توقَّفوا. الآن دعوه لي».

هَجَم عليه بيدين عاريتين. سقط السيف من يد السلطان. ترنَّح جاحظ العينين. انحسر لثامه عن فم مزبدٍ ولحية بيضاء. ولا أحد استطاع أن يميِّز، تحت ضوء القمر، عمَّا إذا كان البياض في اللحية ناتجاً عن غمر الزَّبد أم هي إشارة الزمان. على صدره، بين التعاويذ المخيفة، لمع مفتاح الخزائن الأسطوري عندما انكسر الشعاع الفضي الخجول على سطح المعدن الممسوس.

التحم الجنيّان.

استمرَّ الصراع طوال الليل. ويبدو أن الصراع، أي صراع، يصبح قاسياً، وحشيًّا، لا إنسانياً، عندما يكون دائراً على المصير، ناشباً في سبيل الحياة أو الموت. وبرغم هذه القساوة، والوحشية واللاإنسانية فإن الفناء يعطيه من روحه ويضفي عليه جلالاً وقداسة لا يتميَّز بهما أي عراك آخر.

وقف جنود الفضائل الثلاث. لم يتدخَّل أحد. لم يتكلَّم أحد. إلى أن أُطبق أيدكران الرهيب بيديه على رقبة السلطان وخنقه. قال عندما فرغ منه: «غابَ عنك أن الحصن يبطله التِّبر. ولن ينجو من الهلاك مخلوق اتخذه إلّهاً. فاتك يا مسكين. كما فات قبلك كثيرين، أن مَنْ آمن به وعبده كفر بإلّه التوحيد والقرآن. فمَنْ منّا المجوسي يا سلطان التِّبر؟».

انتزع من صدره المفتاح الذهبي وأُلقى به في الهواء. وَمَضَ تحت ضوء القمر قبل أن يتلقَّفه مقاتل من الجنّ.

(٣)

في عتمة الفجر تحرَّكت القافلة.

سار الرجال في طابور طويل مقيدي الأيدي، مشدودين بعضهم إلى بعض بحبال المَسَد، يحرسهم أوغاد بني آوى بالحراب المسمومة. خلفهم سارت النساء في صف آخر، محروسات بجنود الجنّ. أمَّا الصبيان والفتيان فمشوا في الخلف مقيدين أيضاً يهشّهم وحوش ابن آوى كقطيع من الأغنام. وروى

الرعاة وسكان الكهوف، الذي إدَّعوا أنهم شاهدوا المسيرة، أن جلَّ السبايا كانت من القبيلة. وأرجع الرواة سرَّ ذلك إلى ما تعرَّضت له «واو» من تخريب وتقتيل ونهب بسبب احتوائها للذهب وتمسك أهلها بمعدنهم. أمَّا القبيلة فنالت تنكيلاً أقل برغم ضراوة رجالها في مقاومة الغزاة. وفي رواية لعشاق التيه أن واحة المجوس تعرَّضت للزوال والإبادة لأن عتاة الجنّ هم الذين تولّوا أمرها. ولكن العقلاء يرون أن في الغزوة، كما في الخرافة، يبقى سرّ تظل الأجيال طويلاً تبحث له عن تفسير مقنع.

(٤)

أطلال «واو» ظلَّت قائمة في السّهل لأكثر من قرن. بقيت آثاراً يتشاءم منها الرُّحَّل ويرون في أنقاضها خرائب مسكونة بالأشباح والجن إلى أن جرفتها السيول الشهيرة عام ١٩١٣ فزالت حتى الأطلال ولم يبق منها حجر على حجر.

(٥)

يُرْجِع حكماء الصحراء معظم الطقوس إلى تلك المسيرة الخفية عبر نفق الظلمات التي استغرقت شهوراً، وفي قول آخر، سنوات. فبعد مضي أيام من المسيرة نَشَبَ خلاف بين السلالات الثلاث حول اقتسام الغنيمة. ذلك أن جنود بني آوى أرادوا أن يستولوا على النساء فتصدَّى لهم الجن ورأوا أن تكون النساء من نصيبهم. اعترض زعيم بني آوى وحاججهم بالقول إن الإستيلاء على الذهب والنساء معاً هي قسمة جائرة، ولكن ملك الجان ذَكَّره بأن العُرْفَ جرى أن ينال حصّة الأسد مَنْ قام بدور ملك الغابة في الغزوة. وهذا الدور الذي قام به الجن هو الذي جاء بالفوز. انتهى الحوار إلى أن يكون نصيب بني آوى طابور الرِجال، وأعطى ملك الجن طابور الصبيان والفتيان لوحش ابن آوى، وبقيت النساء حريماً في الظلمات.

في هذا البقاء بدأ تحريم النساء ذكر أزواجهن بالأسماء، كما حرَّمن على أولادهن الخُسَسْ(*) أن ينتسبوا إلى آبائهم من أهل الخفاء، فتوطَّد في الصحراء تقليد النَسَب إلى الأم. كما خلَّفت تلك الرحلة كنزاً من الأساطير ما زال الصحراويون يتناقلونها إلى اليوم.

(*) الخُسّ: مخلوق خليط بين الإنس والجن.

٣ ـ الكفن

«وقال الرّب لإبـراهيم: اذهبْ من أرضك ومن عشيـرتك ومن بيت أبيك، إلى الأرض التي أريك»

سفر التكوين إصحاح ١٢

(١)

قال الدرويش: «ذهبت لزيارة وادي الطَّلح فغفوت هناك قليلاً. ولكن هل يعقل أني نمت خمسة أيام حقّاً؟». أفادت تافاوت: «خرجت وراء الجديان في الوديان الجنوبية. تعبت فهجعت في كهف. لا أُصدِّق أن تلك الغفوة استمرَّت أياماً!».

التقيا في الخرائب. جاء هو من الشرق وصعدت هي من الجنوب. هاما في الخراب ودارا بين الجثث، حتى تقابلا مثل شبحين. لم يتكلما. تفقَّدا الضحايا صامتين. ولكنهما نسيا القربان الذهبي الذي تقدَّما به للجن يوماً حتى عندما تحاورا وبحثا عن المبررات لتفسير النجاة.

(٢)

اجتازا رماد النَجْع. بلغا بوابة السور: الضلفة اليسرى أكلتها النار، ولكن الفحمة الهائلة ظلَّت تتشبَّث بطرف الجدار، فيما انخلع الجزء العلوي من الضلفة اليمنى وبقي الباب معلقاً في الحائط من عقبه. حول البئر انتشرت أجداث الموتى. دبَّت الديدان فوق بعض الجثث، ورقدت أُخرى في برك من الدَم والدهن والصديد. في حين حنَّطت الشمس جثثاً أُخرى فلم تصب أجسام هؤلاء الأخيار بأذى. لم ينزف لها جرح ولم يتفصَّد من البدن دهن ولا صديد ولا قيح، فظلَّت جاحظة، تحدِّق في الفراغ كأنها استلقت لتتمتع بغفوة

القيلولة. بل إن موسى لاحظ على شفاه هؤلاء ابتسامات ساخرة، وأُخرى سعيدة كأنها تبتهج إذْ نالت الخلاص أخيراً.

فوق واو حامت الغربان وتصاعد دخان الحرائق وعفن الجثث.

تقيأت تافاوت ثلاث مرات. اشتكت من الدوار والصداع ودعته للخروج من الواحة. ابتعدا نحو الجنوب الشرقي. رمقهما ايدينان المغرور بحزن وتلقيا منه العزاء. قعدت تافاوت على حجر وركع سهل الخراب تحت قدميها. تلوّن وجهها بالشحوب والحمّى. قالت بصوت غائب:

ـ لم أحلم في طفولتي إلاّ بولد. كنت أبكي وأزحف وراء أمّي وأطلب ولداً. انتهرتني. ضربتني. رأت لي مستقبلاً خليعاً. قالت إن بنتاً في سنّي تطلب ولداً ستجلب الشؤم والعار على الصحراء. ولكنها كانت تعزّي نفسها وتقول إن الأنثى خُلِقت للعار. للرجل. لكل الرجال. إذا جاءت أنثى إلى دنيا الصحراء فهي ملك لجميع رجال الصحراء. قَدَرُها أن تغوي وتمتلك جميع الذكور. استبدلت الذكور بالرجال في النهاية. ولكني لم أتوقف عن المطالبة بالولد. تحايلت جارتنا العجوز وصنعت لي ولداً شقيّاً من الخزف وأعواد الحطب. كانت له عينان حمراوان كعيني جنّ صنعهتما الجنيّة العجوز من الخرز الأحمر. فرحت به خلال الأيام الأولى ثم ما لبثت أن مزقته وقضيت عليه عندما اكتشفت أنه ليس ولداً حقيقياً: مجرّد دمية يملكها كل الصغار. رفعت الاحتجاج إلى أمّي فضربتني وربطتني بالحبل إلى وتد. تركتني أياماً بلا طعام. ولكن العقاب لم ينل مني ولم يجبرني على التراجع. طالبت بالولد حتى أيقنت الأم أني بنت جنيّة. غافلها أهل الخفاء واستبدلوها بابنتهم. قالت إن الاستبدال حدث عندما خرجت إلى المرعى وتركتها وحيدة بدون حماية. نسيت أن ترشق المدية بجوارها لإرهاب لصوص الجن، كما سَهَت في ذلك اليوم ولم تحصّنْ معصمها بصرَّة الشيح. يومها حَدَث الاستبدال. تصيَّدتِ الفقهاء وجرَّتِ السَحَرة كي يساعدوها في استعادة ابنتها الحقيقية.

ولكن الصحراء، لسوء الحظ، عانت تلك السنوات من غياب السَحَرة الأكفّاء بسبب الجدب وتوقف القوافل عن المرور بوديان «مسَّاك صطفت».

توقفت. أنصتت لنعيق الغربان. تابعت سرباً آخر من الطيور أقبل من الشمال وحام حول السهل.

أكملت:

ـ ولكنّي كبرت وعرفت أني لن أفوز بولد إذا لم أحصل على رجل. عرفت أن طريقي لا بدَّ أن يمر عبر الرجل. بدأت أهتمُّ بالشبّان، واخترت «أوداد» في النهاية. لم اختره بسبب القرابة أو النَسَب ولكن استهواني فيه اللّون الأخضر. أردت ولداً أخضر لأن عجائزنا تقول إنه لون الخلود والأولاد الخضر لا يموتون أبداً. إنهم كجدِّهم الضبِّ، يتوارون وراء الحجارة فقط ليعودوا مرة أُخرى. نلت ما أردت. أوداد أعطاني الولد. الدمية الحقيقية. و.. هرب.

عاد إلى جباله. كان وليّاً مثلك يعرف ما في الصدور. أدرك غايتي فوهبني عطيتي وانسحب. لا تظن أننا تحدَّثنا عن الأمر يوماً. ولكن كلِ شيء كان مرتّباً حسب نيّة خفية. كأنه تدخّل من القدر. وعندما انسحب لم أُحتج. ولم أجرِ وراءه. ولم أطالبه بالطلاق. أعطاني ولدي وأعطيته حريته. هكذا تمَّت الصفقة.

سكتت مرة أُخرى. هبَّ نسيم شمالي رطب. لاحت في الأفق سحب بعيدة. بدأت الشمس تزحف نحو العرش لتتوسَّط السماء. تابعها موسى صامتاً. استمرَّت:

ـ ولكن القدر لعب معي أيضاً فدبَّر له مصيراً آخر. أعترف الآن أن هذا مصير لم يخطر لي على بال. مسكين مَنْ استرخى وترك أمره للقدر!.

ناحت على طريقة الأتباع. تمايلت كالمجذوبة ولكنها لم تسفح دمعة واحدة. الشحوب وحده أشار لفجيعتها. تساءلت:

ـ فلماذا لا يعود الغُيَّاب؟ لماذا لا يعود الغُيَّاب في الصحراء؟

حالو أن يعزّيها:

ـ السبايا يعودون.

هَبَّت كأنها كانت تنتظر هذا العَزَاء:

ـ متى عاد الأسير الذي سَبَاه الجنّ؟ هل سمعت بمخلوق واحد عاد بعد أن دخل إلى نفق الظلمات؟

ـ . . .

ـ أجبني!

سكت الدرويش. استفزَّها السكوت عادت لأسئلة النواح:

ـ لماذا لا يعودون؟ لماذا يختفون إلى الأبد؟ أين يتوارون؟ في الحجر؟ في تراب الأرض؟ في الفراغ؟ في الضوء؟ في الريح؟ في ذرات الرمل؟ في سكون الصحراء؟

انتهز الدرويش الفرصة:

ـ قلت منذ قليل أنهم يتوارون وراء الحجارة كالضَّبِّ ليعودوا مرة أُخرى. أَلَمْ تقولي إن العجائز تقول ذلك؟ ألا تعلم العجائز أكثر مما نعلم؟

تمتمت نائحة:

ـ يعودون في ثياب أُخرى، في لباس جديد، بعد أعوام طويلة. بعد أن أكون أنا قد غبت، قد ذهبت بحثاً عنهم. أنا أريد ولدى الآن. ولدي الأخضر. يا فجيعتي في ولدي المسكين. لماذا لا تجيب؟ لماذا هجرتني؟ لماذا آثرت الإقامة في كهف الظلمات؟ لماذا انفصلت عن أمِّك وقايضتها بجنية لعوب؟ نعم. أعرف أن الولد لا يهرب من أمِّه إلَّا إذا أغوته امرأة. إلَّا إذا استأثرت به جنيّة. ولكن احترس! لعاب الجنية سمّ زعاف. السم في فم الأنثى حتى لو لم تكن جنيّة. احترس!.

تابع موسى خطابها مدهوشاً. حام حول رأسها. تجنَّب إثارتها. تركها للفجيعة. ولكنها لم تذرف دمعاً. قال في نفسه أن المفجوعة تبكي بالقلب. تألَّم. أحسَّ بقساوة القدر. بكى بالدمع نيابة عنها. أخفى عينيه بزمالته وشعر بالسائل يمزِّق وجنتيه. سمعها تستسلم وتتمتم:

ـ لا فائدة. رثائي لن يعيده. فجيعتي لن تعيده. تركني والتحق بأبيه.

نسيت أن الولد لا بدَّ أن يذهب وراء الأب يوماً. سعادتي به أنستني أشياء كثيرة. ولكن القدر لا ينسى ولا يسهو.

ثم ألحقت هذيانها باحتجاج مفاجىء:
- خبِّرني. حدِّثني عن السبب. أجبني: لماذا لا يعود المهاجر؟.
لم يجبها. ألقت في وجهه تهمة:
- ألست على علاقة حميمة بالله؟ ألست وليّه الأثير؟.
- لست وليّاً.
- مَنْ أنت؟.
- أنا الدرويش!
- ومَنْ هو الدرويش إنْ لم يكن وليّاً؟.
- لا أعرف. لا أعرف شيئاً.
تهيَّأ القرص للاحتجاب وراء السحب. تستَّر بهالة كساهور القمر واكتأب وراء الغلالة.
تكلَّمت:

- رَفَضْت عَرْضي يوماً وآثرت الأميرة. ولكن القدر الذي خطف ولدي لم يجمعك بها، لأنه أعدَّ لها مصيراً آخر. وها هو يعيدك إليَّ. فأين ستهرب؟ أنت في قبضتي. ستندثر القبيلة إذا لم نتزوَّج. هل يرضيك أن تنقرض القبيلة؟.

هبَّ واقفاً. أحسَّ بجسد الحيّة يلتف حول رقبته. نغمة الغنج أثارت فيه الفزع والغثيان. كاد يبوح بالسرّ. كاد يصارحها بما أخفاه حتى وهو يضع رقبته تحت سيف القاضي الشنقيطي. نزل المرتفع بخطوات واسعة. ركضت في أثره. أمسكت بطرف ثوبه. التقت نظراتهما فرأى في عينيها عناد الشياطين. عناد الأنثى، الثكلى، عندما تقرر أن تكسب الذريّة وتخلق الحياة.

تكلَّمت هائجة، بلغة متوحشة:
- هل تظنّني أجري وراء الرجال حبّاً في الرجال؟ هل تظن أن إمرأة

واحـدة يمكن أن تعشق رجلاً لـو لم يخف السرّ، الـذريّة، في صلبـه؟ هل تظن أن في الرجل شيئاً آخر يستحق أن ينال عليه عشق المرأة؟ أنت مغرور كأي رجل آخر. كل الرجال مكابرون أوغاد. كلهم يتوهَّمون أن المرأة دمية خُلقت لتمتعهم وتسلّيهم. ها ـ ها ـ ها. . . يالكم من قِرَبٍ منفوخة بالهواء. أوغـاد. كلكم أوغاد. أنت أيضـاً وغد! الـدرويش وغد ومكـابر! هـا ـ ها ـ ها. . .

إنتـزع ثوبـه من يـدهـا. ركض نحـو الخـرائب. ركضت وراءه. أدركته. إعترضتـه. في عينيها الألق والغموض والجنون. توسَّلت بصوت مبحوح:

ـ إرحمني إذا كنت لا تبـالي بـزوال القبيلة. أعـطني الـولـد واذهبْ في حالك. سأعتقك إذا أعطيتني الذريـة. هذا وعـد مني. أعطني الـولد وخُـذِ الحرية. ليس أمامك سبيل آخر.

ثم رَكَعت على الأرض وشرعت تنثر التراب في الهواء:

ـ أنظر إلى التراب. أنظر إلى الهباء! كلنـا سنذهب كـالهباء إذا لم نتـرك الأثَر. أبداننا ستختفي في الذرَّات. سنغيب أيضـاً ولن نعود. هـل يرضيـك أن نغيب أيضاً في الظلمات؟

لاحظ اعـوجـاج الفم، وتـوتـر الشفتين. في العينين تكلَّم الشقـاء بلغـة أخرىٰ.

(٣)

صَعِد السفح في الفجر وشَرَعَ يحفر القبر بـالمعول. بـرزت الشمس وهو ما يزال يحفـر. يهمهم بأغنيـات كئيبة بلغـة بامبـارا. يستعين من حين لآخر بيديه المجدورتين لإزالة التراب. أخيراً بلغ الـرميم. استخرج المعصم في البداية. ثم القفص. وأخيـراً الجمجمة. كـانت مصقولـة. لمّاعـة، بشعة. أجْلَتها التربة ولحس التراب اللحم عن وجهها. قلَّبها بين يديه فتسـاقط منها الرمل. تفقّد الفتحة التي تسرَّب منها التراب. تفحَّصها فانبثقت خنفسة كبيـرة،

سوداء. رمى الخنفسة خارج القبر واستمر يتفحَّص الجمجمة. ندَّت عنه شهقة شَجَنيَّة طويلة قبل أن يبدأ في المناجاة:

ـ هل هذه نهاية المطاف يا أميرة الصحراء الكبرى؟ هل هذا أنتِ يا ملكة تينبكتو و«واو»؟ هل هذه الجمجمة الصمَّاء هي نفسها ذلك الرأس المكابر الذي حطَّم قلوب الشباب وحرق قلب الدرويش؟ هل هذه العظمة القبيحة هي نفسها معشوقة «أماي»؟.

أيعقل أن يعشق الآلهة مخلوقاً زائلاً كهذا؟ أيعقل أنها سلبت مني الفؤاد وأنا رسول الإلّه أماي؟ فأين تختفي الشيطنة في هذا القحف؟

توقَّف عن المناجاة. استمرَّ يقف داخل القبر ويتفحَّص كنزه. عاد إلى المناجاة:

ـ ولكن مَنْ قال أني عشقتها؟ مَنْ يجرؤ على الادِّعاء بأن العرَّاف إيدكران يستطيع أن يعشق مخلوقة فانية اختارها إلّه القِبْلي «أماي» عروساً له؟ كيف استطاع إيدكران أن يخون الإلّه ويقع في عشق طفلة؟

ارتجفت أصابعه. تهدَّج صوته:

ـ ولكن.. على العرَّاف إيدكران أن يسلِّم بهزيمته. عليه أن يتخلَّى عن الكبرياء الكاذب ويعترف بالعشق. نعم. أنا عاشق العروس الحجرية. ليتها حجرية. إنها جمجمة كئيبة. عظم. تراب. ايدكران المكابر أذلَّته طفلة. جمجمة. عظمة!

ضمها إلى صدره بيدين راجفتين. لَثَمَها بشفتيه. همس بنبرة محموم:

ـ لن أتخلى عنكِ. لن نفترق. لن أتنازل عنك للإلّه أماي. حتى الإلّه لن يأخذك مني.

فوق رأسه وقف الزعيم. قال كأنه يواصل حديثاً لم ينقطع قط:

ـ إذا كان عاشق العروس الحجرية قد قفز وراء المعشوقة في هاوية الوادي فإن عرَّاف الأدغال قفز وراءها في القبر.

رفع إليه إيدكران نظرة غائبة. لم يخرج من الغيبوبة فواصل الزعيم آدّه:

ـ ولكني أعترف أن العرَّاف كان صريحاً معي. ولولا اعترافه القديم لظننت اليوم أن بعقله مسّاً.

همهم إيدكران هو يتأبط الجمجمة ويحاول أن يخرج من فوَّهة القبر:

ـ نعم. نعم. الزعيم على حق. كنت أعرف منذ البداية أن الزعيم دائماً على حق. أهل الاعتدال هم الذين يكسبون الجولة الأخيرة.

عبث النسيم بثوب الزعيم فاشتمَّ إيدكران رائحة العرق: عرق المهاجر الذي قطع شوطاً طويلاً في رحلته. مدَّ له يداً مجدورة معفَّرة برغام القبر. صافحه الزعيم. قال معقباً على تعليق العرَّاف:

ـ يكسبون الجولة الأخيرة. جولة الأنقاض والخراب والفناء. أهل الاعتدال يكسبون الهواء، يقبضون الريح.

ـ لا شيء أبداً بلا ثمن.
ـ في بعض الأحيان يعجز عقلي عن فهم رموز العرَّافين.
ـ لم ألجأ في لغتي إلى رمز واحد من رموزهم حتى الآن. أردت أن أقول: لا بدّ أن تقبض الريح مقابل أن تخسر أعداءك هل تريد أن تكسب العراك دون أن تخسر شيئاً؟

ـ خسرت قبيلتي. خسارة لا يعادلها سقوط العدو المزعوم.
ـ هل السلطان عدو مزعوم؟
ـ لا أنفي الخلاف ولكني لم أتخذه خصماً.
ـ كل الصحراء مدينة للزعيم بروح التسامح. التسامح سلاح الأخيار وسرّ المعتدلين.

ـ أنت تبالغ كثيراً.
مزَّق ايدكران قطعة من كمِّه الفضفاض. لفَّ الجمجمة في خرقة القماش بعناية. برَّر لهفته أمام الزعيم:

ـ هذا قربان «أمناي». جئتُ من أجله حيّاً وأعود به عظاماً رميمة.

ثم عقَّب في سرِّه: «فلتغفرِ الآلهة جسارتي. ولكن الجمجمة لن تكون من نصيب أمناي أبداً».

قال الزعيم كأنه قرأ نواياه:

ـ هل تغرَّبت وتعذَّبت وحاربت كل هذا العمر كي تعود إلى تينبكتو بجمجمة؟

ابتسم العرَّاف:

ـ البطولة في أنها جمجمة. البطولة أن تدفع عمرك مقابل عظمة فانية. هيء ـ هيء ـ هيء...

قطع ضحكته المتوترة وأكمل فكرته عن البطولة:

ـ البطل هو الوحيد الذي يقدِّم عمره قرباناً ليتقاسم الرميم مع التراب.

عاد يلثم الجمجمة الملفوفة في الخرقة ويتضاحك بغموض العرَّافين.

(٤)

تسلل موسى إلى القصر في عتمة الفجر. تخطَّى جثث الزنوج والتجار وجنود السلطان. فاح العفن فسدَّ أنفه بلثامه. بلغ باب الدهليز فوجده محطماً. نزل درجاً مظلماً. أفضى الدرج إلى دهليز مضاء ببصيص يسقط من كوَّة صغيرة من السقف. تحسس الجدران وسعى بحذر عبر الممر. ارتطم بجسم فسقط على الأرض. اشتدَّت رائحة الرطوبة والغبار الحبيس. تفحص الجسم مستعيناً بيديه فوجده صندوقاً مغموراً بالأتربة. تحسس أطرافه حتى اهتدى إلى العروة. جرَّه وعاد على عقبيه. سقط مرتين قبل أن يصعد ويبلغ الباب المحطَّم. عَبَر الردهات والأقواس وهو يجرُّ الصندوق. أفضتِ الردهات إلى الممرات المعتمة. توقف ليلتقط نفساً. جلس على الصندوق في قلب الممر. مَسَح العرق والتراب عن وجهه ويديه. تفحَّص كدمة في المرفق الأيمن أُصيب بها في سقطته الأولى. انتظمت أنفاسه فغزت أنفه موجة من العفونة. أحكم لف اللثام حول الأنف وأنصت لسكون

الخرائب المسكونة بالأشباح والموتى. استعاد الماضي ورأى نفسه وهو في طريقه لزيارة الأميرة.

سمع في قلب السكون طرق الحدّادة في الرواق السري وهم يسكُون معدن النحس. وها هو السكون يخاطبه، الآن، وحيداً بلغة الصحراء، بلغة العدم. عادت واو إلى المجهول ولم يبق منها سوى السكون المقدَّس. كأن الصحراء تسخر من البنيان المكابر وتقول إن كل شيء سواها زائل وباطل. لا وجود إلّا للصحراء، ولا خلود إلّا للسكون.

واصل مسيرته.

جرَّ الصندوق واتجه إلى البوابة الغربية. توقف قبل أن يبلغ البئر وبدأ يزيح عنه التراب. صندوق خشبي كبير، مربع الأضلاع. تتدلّى من جانبيه عروتان من نحاس. أطرافه الأربعة أيضاً موشاة بقطع أنيقة من النحاس. الصندوق محروس بقفل كبير مصنوع من النحاس أيضاً. عاين القفل المهيب فتذكَّر المفتاح السري: مفتاح السلطان الذهبي الذي حلم التجار بالاستيلاء عليه ونسج أهل السهل حوله الأساطير. بالأمس غافل «تافاوت» وذهب إلى الرابية. تفحَّص رفات السلطان فوجد الأحجبة والتعاويذ ولكن المفتاح اختفى.

اشتعل في صدره الفضول وقرر أن يقتحم الدهليز.

تناول حَجَراً صَلْداً وشرع يدق القفل النحاسي الكثيف.

برز قرص الشمس.

فوق رأسه وقف الزعيم.

قفز الدرويش. تراجع خطوات. تخلّى عن الصندوق، ولكنه استمرَّ يتمسّك بالحجر. تلوَّنت وجنتاه بالشحوب. قال بخجل:

ـ أنت تعرف.. الفضول في صدر ابن آدم أفعى لا تموت. في قلب كل إنسان شيطان!

ابتسم الزعيم.

- وهل خامرك الشك! هل ظننت أني يمكن أن أُسيء بك الظن؟.

نَكَس موسى رأسه فتكلم الزعيم بلهجة تشجيعية:

- أنتَ لست في حاجة لتقديم مبررات لأني لا أنوي أن أتهمك بالطمع. هل نسيت أنك أول مَنْ كشف سرّ المعدن وقدَّم سوار النحس قرباناً للجبل؟

- لا أستطيع أن أغفر لنفسي الفضول.

ضحك الزعيم:

- أنت طفل كبير يا موسى. هل تعلم أن أكثر ما يثيرني فيك ويشدُّني إليك هو أنك طفل كبير؟

ابتسم الدرويش. تشجَّع آدّة وتكلَّم بدعابة:

- الآن سنتحلَّى بأخلاق الشيطان معاً ونطلق سراح الفضول في النفوس. هيَّا اكسرِ القفل بالحجر.

شجَّعه الزعيم بالدعابات والسخرية وتكلَّم كأنه يوجِّه خطابه للقَدَر:

- تنازلنا عنه للأحياء ونأخذه من الأموات. ولِمَ لا؟ إنه كالمرأة متقلِّب الطباع. يعادي مَنْ يصادقه ويصادق مَنْ يعاديه. ولِمَ لا؟ لو لم يفعل ذلك لما قال عنه «آنهي» أنه معدن الجن. لو لم يكن لعوباً لَمَا ملكه الشيطان!

انحنى فوق الدرويش. تابع جهوده في كسر القفل العنيد. وعندما أفلح موسى، وانكسر عسّاس النحاس، تبادلا نظرة غامضة. تراجع الدرويش وأفسح المجال للشيخ كي يتولّى الأمر. كي يزيح الغطاء عن الكنز. كأن الصندوق يخفي شيئاً آخر غير الذهب. كأنّ الصندوق الخفي يؤوي أفعواناً، كأنّ الصندوق قمقم يضم مارداً. والدرويش تهيَّب القمقم. خاف أن يكشف الغطاء فيتحرر المارد. حتى الدرويش يخاف المَرَدَة.

مازحه الزعيم مُشجِّعاً:

- هيا يا موسى. لماذا لا تريدنا أن نجرِّب حظنا؟ أَلَيس من حق الزُّهَّاد

والدراويش أيضاً أن يجرِّبوا يوماً حظَّهم في الكنوز والذهب؟ هيّا. دعنا نجرِّب حظنا أيضاً!.

التقت نظراتهما مرة أخرى. رأى الزعيم شعاع الشمس البكر في عين الدرويش الحولاء. لاحظ الدرويش في عيني الزعيم قلقاً خفيّاً. انتقل إليه القلق. أصيب بالعدوى. خاف أن تفضحه يداه فشبكهما وراء ظهره. أربكته الحركة فشهرهما أمام وجهه كأنه يكتشفهما لأول مرة. بدأ يفركهما بعصبية. سمع الزعيم يصيح وقد فقد سكينته القديمة:

ـ أزح الغطاء. ماذا تنتظر؟

تقدَّم خطوتين. أغمض عينيه وأزاح الغطاء عن القمقم. ظلَّ مغمض العينين.

انتظر أن تتزلزل الأرض وينهدَّ الجبل. توقَّع أن تقعقع الصحراء بقهقهة المارد الأسطوري. لم يفتح عينيه حتى قال الزعيم:

ـ هذا ما يحدث عادةً عندما ينوي الزُّهَّاد البلهاء أنْ يخرجوا من الصراط ويقرروا أن يجربوا حظهم في إمتلاك الكنوز!.

ثم سمعه يضحك ضحكة صافية. طويلة. أريحية. ففتح عينيه. استنفر حدقتيه لمقاومة انعكاس الشعاع الذهبي في ذرات التِّبر، ولكن الصندوق كان مُطفأً. ماذا؟

لم يكن مطفأً. في الصندوق ينام شبح ناصع. رِفات مُدَثَّر بالبياض؟ هل هو رِفات؟ تساءل الدرويش بسذاجة درويش:

ـ ما هذا؟

سخر منه الزعيم:

ـ ألا تعرف ما هذا؟ أنت حقّاً درويش. أَلَمْ تَرِدْ إرضاء شيطان الفضول؟ أَلَمْ نقرر منذ قليل أن ننضم إلى طابور الأثرياء؟ خُذِ الآن. هذا كنزك. هذا كنزنا المشترك. لماذا لا تتقدَّم وتأخذ الكنز؟ ها ـ ها ـ ها..

لأول مرة يسمع الزعيمَ آدَّه ينفجر في ضحك قبيح. ضحكة شيطانية. ماذا يريد الزعيم أن يقول بهذه القهقهة الكريهة؟ هل فقد الشيخ وقاره وصوابه؟ ماالذي يجعل الزعيم الجليل يفقد جلاله ووقـاره؟ هجم عل القمـاش المُسَجَّى في الصنـدوق. تشبَّث به بكلتـا يديـه وأخرجـه من القمقم. من التّابـوت. ألقاه على الأرض وشرع يفتش في طياته ويبحث بين ثناياه. فاحت رائحة القماش الجديد. احتفظ برائحته البكر حتى بعد أن قضى في التابوت سنوات مقبوراً. ولكنه فقد بكارته وبهجته الآن. تحوَّل بين يدي موسى من قامة ناصعة، مستقيمة، بهيجة، إلى كوم بائس.

قطع الزعيم ضحكته وألقى بتعليقه الفظيع:

ـ هذا كفن يكفي لنا جميعاً! السلطان كان حكيماً!

سأل موسى بدهشة طفولية:

ـ كفن؟

ازداد الغموض في عيني الشيخ:

ـ وهل هو ثوب عروس؟ وهل تظن أن الزُهَّاد يمكن أن يعثروا على شيء آخر غير الكفن؟

ضحك مرة أخرى، ثم توقف وأضاف:

ـ هذه أقدم حيلة في يد إبليس. يظلُّ يوسوس ويراوِد أعداءه مائة عام. ليس ثمة مثابر في الصحراء يمكن أن يفوق إبليس صبراً. وعندما تنقضي المائة عام ويضعف الزاهد ينزل إلى الأرض ليجرِّب حظَّه. يفعل ذلك من باب التسلية عادة. أو فلنقلْ من باب الفضول إذا استعملنا تعبيرك الذكي. هنا يجد إبليس فرصته للغشِ فيطلع له لسانه كما فعل معنا! ها ـ ها ـ ها..

احتجَّ الدرويش:

ـ ولكنك قلت منذ قليل أنك لا تشكُّ في نواياي. هل ظننت أني أبحث عن كنز حقّاً؟

مسح الشيخ دموعاً بكم جلبابه. رَفَع لثامه إلى أرنبة أنفه.

استعاد وقاره:

- وماذا يفعل الدرويش بالكنوز؟ ولكن كيف نسيت أن الفضول أيضاً شهوة يمكن أن يستثمرها الشيطان الرجيم لصالحه.

- هل يتصيَّد الرجيم حركاتنا وسكناتنا إلى هذا الحد؟

- وهل يملك عملاً آخر؟ تفرَّغ لهذه المهمة منذ كسب الجولة الأولى وطردنا من واو. لَعَنَهُ الله!

تردَّد موسى لحظات، ثم تَرْجَم شكوكه:

- الحق أني لم أظن أن السلطان حكيم.

- أعترف أيضاً أني كنت مخطئاً في تقدير حكمته. ربما أعماني خلافي معه عن رؤية حكمته.

- ماذا أراد أن يقول بالضبط؟

- أما زلت تجهل ما قال؟ هل يمكنه أن يقول أكثر مما قال؟

- ...

- الحق أنه لم يضف جديداً إلى ما قاله «آنهي» قبله. فلا كنز للإنسان غير ما يأخذه معه إلى قبره. وماذا يأخذ الإنسان من الحياة غير الكفن؟

- لقد أسأنا به الظنَّ!.

- كان صادقاً في بناء واو. كان صادقاً في إقامة فردوسه الأرضي، ولكنه أخطأ في تقدير كفاءة الذهب.

- ولكنه قدّم لنا الآن برهاناً آخر.

- الحق أن هذا البرهان كان مفاجأة لي.

رَمَقَ القماش البِكْرَ وأضاف باكتئاب:

- هذا دليل آخر على أن الإنسان سرّ أبدي. مَنْ يجرؤ ويأخذ على عاتقه

مسؤولية ويدَّعي أنه يعرف الإنسان بعد اليوم؟

في الطرف الشمالي، وراء الروابي، لاح شبح العرَّاف.
جلس عى ناقته العجفاء، بين قِرَبِ الماء، وتعلَّق بالأفق البعيد. مرَّ قرب البئر ولكنه تزوَّد بزادِه من الماء في الليل فمضى، مهاجراً، دون أن يتلفَّت. المهاجر إذا انطلق لا يرى غير الأفق.

فوق رأسه حلَّق غراب.
اقترح الزعيم وهو يتناول الكفن:

ـ هذه وصيّة. وعلى الأحياء أن ينفِّذوا وصايا الأموات. الواجب يقضي أن نكفِّن الجسد ونعطيه للأرض التي أعطته.

احتضن الكفن ومشى إلى الرابية حيث يهجع السلطان.

(٥)

هَجَع الزعيم وراقب الدرويش ميلاد البدر.
اتخذا موقعاً تحت الجبل الآخر، المغدور، وتركا السهل للجن والأشباح.

على بعد خطوات ارتفعت ألسنة النار وطافت تافاوت تُعِدُّ العشاء. كان الشيخ يراقب النجوم عندما قال الدرويش:

ـ تريد أن تنال الولد بالغَصْب. قالت إن قدر الرجل أن يعطي المرأة الأولاد، ولو لَمْ يحمل الذرية في صلبه لما التفت إليه أحد. فهل هذا صحيح؟

استمرَّ الزعيم يهجع على قفاه ويتابع النجوم السرِّية. إتكأ موسى على حجر وعبث بالتراب:

ـ أنا أخاف. لن يستطيع أحد أن يحميني غيرك.
لم يستجب آدّه. توسَّل الدرويش:

ـ إنها مخيفة. أنت لا تعرف كم هي مخيفة عندما تشتاق للولد!

ـ . . .

ـ أنت لن تتخلّى عني. هل ستتخلّى عني؟

ـ . . .

ـ أنت تعرف السرّ. أنت الوحيد الذي يعرف السرّ. فماذا أفعل معها؟ ماذا يفعل رجل يخفي سرّاً بإمراة تريد طفلاً؟

لم يجب الزعيم. لم يتحرك. ولكن عينيه ظلّتا مفتوحتين، يقظتين، تتابعان الإرشادات المجهولة.

زحف نحوه موسى. انحنى فوق رأسه. قال بصوت غريب:

ـ الحق أن لديّ اقتراحا.

تابع أنفاس الزعيم ثم أكمل:

ـ قالت إن الرجل يفقد الخيار عندما يتعلق الأمر بانقراض القبيلة. بإنقاذ القبيلة من الزوال.

ـ . . .

ـ هذا الندَاء موجَّه لك وليس لي. الله هو الذي اختارك كي تنقذ الأصل من الفناء. الله هو الذي أخفاها في الكهف وأنقذها من الغزو كي تدخل عليها.

رفع الشيخ رأسه. سقط طرف لثامه. رمق الدرويش باستنكار. تراجع موسى إلى الحجر وَبَرَّرَ الجسارة بقصص القرآن:

ـ ولِمَ لا؟ ألم ينجب سيدنا إبراهيم إبنه إسحاق في آخر العمر؟ أَلَمْ يفرحه بذريّة بعد أن بلغ المائة؟

تأمّله، تحت الضوء العُذْري، لحظات. خُيِّل لموسى أنه ابتسم قبل أن يهجع من جديد. ابتسم أيضاً وازداد يقيناً في فعالية الحصن القرآني.

(٦)

في قلب الليل استيقظ الشيخ على النداء: العواء الغامض، القديم،

الفاجع، الذي لا تتقنه في الصحراء سوى قبيلة واحدة: الذئاب.

أنصت مغمض العينين. اقتربت العشيرة. ارتفع النداء فوق رأسه:

- عو- و- و- و- و...

فتح عينيه وبحث عن رُسُل قبيلة «موخامّد». كان القمر ينحني مائلاً للغروب، والأفق يَعِدُ بميلاد القَبَس، ولكن لا أثر للرُسُل. عاد السكون المعظَّم يقبض على الصحراء. أدهشته السرعة التي اختفت بها الرُسُل. ولو لم يكن يقظاً تماماً لكذَّب نفسه وأيقن أنه سمعهم في الحلم. فهل جاؤوا وراء رائحة الجثث؟ إتكأ على مرفقه وتفقّد الموقع. تافاوت تتكوّم بجوار المهري في الناحية الأخرى. ولكن.. مأوى الدرويش هو الشاغر. قال في نفسه أن إخوته الذئاب أيقظوه فَذَهب ليقضي حاجته. ظلَّ يفكِّر في صِلَة القرابة التي تربط الدراويش بعشائر الذئاب حتى غَلَبَه النوم.

(٧)

في الصباح اكتشف خواء مأوى الدرويش.

جَاءَته تافاوت بكوب الشاي. رَشَف ببطء. انتظر حتى أُشرقتِ الشمس. نهض واقتفى الأثر. اتّجه إلى السفح الغربي في البداية، ثم مشى نصف دائرة حتى عثر على الخطوات الأخيرة، الليلية. انحرف شرقاً، نزل شعباً مغمورة بالرمل. هناك التقى الأَثَرُ بآثار الرُسُل. انضمَّ الدرويش لعشيرة الأشقاء. انحدروا إلى الشرق. تابعهم حتى وصلوا وادي الطَّلح. هناك وجد موسى يحوم حول سِدْرَته الأثيرة. طاف حولها ثلاث مرّات. ثم عاد لينضم للعشيرة مرة أخرى. خرجوا من الوادي. اتجهوا جمعياً إلى الجبل. تتبَّع الأَثَرَ. بدأ سفح الجبل يفرش أمامهم صحراء سوداء من الحجارة والحزيز. أضاع الأَثَرَ.

(٨)

عاد إلى الموقع.

أَخْبَر تافاوت أن تُعِد الأمتعة. ثَبَّت السَرْجَ على المهري. فَرَشه بالأغطية وأعدَّ للمرأة مكاناً وثيراً. ساعدته في تثبيت قِرَب الماء حول السرجِ. داعب الجمل ومسَّد على رقبته بحب. التفت الحيوان الذكي ولَثَم يده مستجيباً للدعابة. ثم مَدَّ رقبته وتعلَّق بالأفق وقد تهيأ لقطع طريق طويل.

أشار لتافاوت فاقتربت. ساعدها في الجلوس خلف السرج. أعطى الإشارة للمِهَّري فنهض برشاقة.

تحرّك.

قاده عبر السهل، ثم انحرف يميناً متجنِّباً أن يمرَّ على الأنقاض. إلى جواره شمالاً وقف ايدينان كأنه يحييه مودعاً. توقَّف أيضاً وتأمَّله طويلاً.

واصل المسير.

أمامه امتدَّ خلاء كالفناء.

«انتهت»

موسكو ـ جنيف ـ ليماسول ـ طرابلس ـ مصراتة
في الفترة الواقعة بين
٢٣/٧/١٩٩٠ و٢٨/١٢/١٩٩٠ م.

الفهرس